اليهود تاريخ وعقيدة



دار الاعتصام



دكتور كامل سعفان



دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد صدور الطبعة الأولى في سلسلة كتاب الهلال سنة ١٩٨١ ، ونفادها في أسبوع صدورها ، حصلت على مصادر ومراجع جديدة اقتضت إضافات كثيرة ، أرجو أن تكون عوناً على مزيد من الفائدة في هذه الطبعة الجديدة .

وبالله التوفيق

الفصل الأول

التاريخ اليهودى

١ - اليهود فى تاريخهم القديم
٢ - اليهود فى ظل دولة الإسلام
٣ - اليهـــود فى أوربا
٤ - اليهـــود والقـــرآن
٥ - اليهود والصهيونية

جعلت الكتابات اليهودية في مقدمة المصادر التاريخية ، لتقوم الحجة عليهم ، وليكون هذا التاريخ مجالاً للدراسة النفسية .

اليهود فى تاريخهم القديم

لانكاد نجد توقيتاً محدداً للهجرة التي قام بها إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ من مدينة (أور) الكلدانية ـــ كما تقول التوراة ـــ في طريقه إلى مصر ، ثم عودته إلى بلاد كنعان .. وإن كان أكثر المؤرخين يُرجعون بداية الرحلة إلى حوالي ٢٠٠٠ ق. م ، ويرجع بعضهم حدوثها إلى عام ١٧٥٠ ق. م .

كما أن أكثر المؤرخين يرجعون بأبي الأنبياء إلى أصل آرامى ، والآراميون ينتسبون إلى أصول عربية هاجرت من الجنوب في أزمنة سابقة ، وظلت اللغة الآرامية تحمل في جذورها السمات العربية .

هذا .. مع أن أسماء آباء إبراهيم التي أوردتها التوراة تشترك مع أسماء معروفة أيامئذ في المنطقة القريبة من مدينة حران ـــ جنوبي تركيا ـــ أمثال (تيرا وناحور وسروج وبلغ) ، بالإضافة إلى أن اسم (إبراهيم) قد ورد في نصوص ذلك العهد (أبراثاما) يسمى به الناس ذكورهم .

ولعل السبب في هذا الترابط ـــ وما يوهم بالاختلاط ـــ مرده إلى الاضطرابات التي صحبت سقوط (أور) في أواخر دولة (أور) الثالثة ، تحت هجمات العيلاميين والعموريين .. ولاشك في أن كثيرين هاجروا ـــ إبان هذا الصراع السياسي والعسكرى ـــ وحملوا معهم تلك الأسماء التي تسمّى بها إبراهيم وآباؤه .. وفي نفس الوقت أخذ إبراهيم طريقه إلى الشمال ، ثم إلى الجنوب طلباً للأمان ، مما يفيد أن وجود هذه (الأسماء) في (حران) ثمرة من ثمار الهجرة إليها .

ويؤيد جون بريت **John Bright** هجرة إبراهيم من (أور) في كتابه (تاريخ إسرائيل) مستنداً إلى أن الأثر البابلي الواضح الذي نلمسه في كتابات التوراة الحالية ـــ عند كلامهم عن الخليقة وأصل الكون ونهاية

الطوفان — ما هو إلا ما بقي في أذهان العبريين [1] وقت كتابتهم هذا الجزء من التوراة بعد ذلك ، مما جلبه معه إبراهيم من معتقدات بابلية ، ولقّنها أولاده ، وبقيت تنتقل بالرواية من جيل إلى جيل ، حتى أيام تدوينها ، على عهد سليمان بن داود .

وفي هذا الجزء من التوراة المعنون بالخليقة — تكوين — نقرأ أن إبراهيم قد نصب (إيليازور) الدمشقي وارثاً له ، حيث لم يكن لديه من يرثه وقتذاك ، وأن هذا العمل قد لقي غضب الله .. والعجيب أن تنصيب شخص عقيم لرجل آخر وارثاً له ، يعتني بدفنه ، ويرث ما يترك ، كان معروفاً بين الخوريين الذين اتخذ فريق منهم مدينة نوزي — يورغان تبه — قرب كركوك — عاصمة لهم ، وقطن فريق منهم سورية وفلسطين وآسيا الصغرى .

وينبغي ملاحظة أن هجرة إبراهيم لم تكن هجرة أفراد ، بل كانت هجرة جماعات ، تضم الزوجات والأبناء والعبيد وما يملكون من الحيوانات .

من أجل هذا تمكن إبراهيم من الوقوف بجيش عدته ٣١٨ رجلًا من أهل بيته في مواجهة (كدر لعومر) والملوك الذين معه ، طاردوهم (إلى حوبة التي عن شمال دمشق) — تكوين — ١٥ .

وهذه الهجرة الجماعية لم تكن تأخذ طريقاً أمماً ، بل كانت تنتجع المراعي ، ولم يكن لها هدف محدد .. ومن ثم مر إبراهيم ببلاد كثيرة استضافته ، وأكرمت مثواه ، وصاهر منها ، وانتهى مطافه إلى هذه الأرض التي تزخر بشعوب كثيرة : قنزية ، وقينية ، وقدمونية ، وفرزية ، ورفائيـة ، وأموريـة ، وحرفاشيـة ، ويبوسيـة ، وحيثيـة ، وكنعانيـة ، وفلسطينية — تكوين — ١٥ .

والتقى إبراهيم بديانات مختلفة تسللت إلى ديانته ، وإلى ديانة أبنائه من بعده ، عن طريق الأخبار المتناقلة في تلك الجماعة الكبيرة المتحركة ، مع

---

(١) أطلق على اليهود لفظ عابيرو وحابيرو وهابيرو وعابورا والعبرانيون أو العبريون ، مما يفيد العبور والارتحال وعدم الاستقرار ، والمصريون — إلى اليوم — يطلقون على (النعجة) اسم (عابورا) ، مما يفيد صحة التعليل .

تطور الروايات المنقولة ، فنسب إلى إبراهيم وإلى الأنبياء من بعده ، حتى جاء عصر التوراة المدونة ـــ أعدادٌ من الآلهة ، لاشك في براءتهم منها .

ومع الآلهة العديدين الذين نسبتهم التوراة إلى (الآباء) ـــ فإن كتّاب التوراة حرصوا على تأكيد ملكية أرض كنعان بوعد من (الرب) لإبراهيم ، حتى ليحار المرء : أي رب هذا ؟! ولماذا كان حرص (الآباء) بعد ذلك على الهجرة إلى مصر ، دون التمسك بوعد الله ؟!

(قال الرب لأبرام ـــ بعد اعتزال لوط عنه ـــ ارفع عينيك ، وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالًا وجنوباً وشرقاً وغرباً ، لأن جميع الأرض التي أنت ترى ، لك أعطيتها ، ولنسلك إلى الأبد ، قم امش في الأرض طولها وعرضها ، لأني لك أعطيها) ـــ تكوين ـــ ١٣ .

ومن ظاهر لفظ (انظر) و (التي أنت ترى) لاتتجاوز الملكية كيلو متراً مربعاً ، لكن مالبث الوعد أن ارتبط بالمشى في الأرض طولها وعرضها ، مما يستدعى إمكانية (المرعي) ، ثم يتسع المفهوم ، مع تطور أحلام كتّاب التوراة ، إلى أن (قطع الرب مع أبرام ميثاقاً ، قائلاً : لنسلك أعطى هذه الأرض ، من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات) ـ تكوين ـ ١٥ .

ولعلهم ـــ من أجل هذا الميثاق ـــ كانوا يذهبون إلى مصر ، بحكم كونها داخلة في هذا الميثاق ، ليبتاعوا من خيراتها ، وليتعرفوا إلى مسالكها ، ثم ليتسللوا إليها ، مقيمين متآمرين ، على أمل .

وكان من تمام الميثاق أن الرب سيخرج من صلب إبراهيم اثني عشر سبطاً ـــ أبناء يعقوب ، إسرائيل ـــ يملكون أرض كنعان ، مقابل عبادتهم له وحده ، وطلب منه أن يختن الذكور علامة هذا الميثاق .

وما لبث إبراهيم أن رزق بإسماعيل من جاريته (هاجر) التي ارتحلت بابنها إلى الجنوب ، إلى واد غير ذي زرع عند بيت الله المُحرَّم ، لتفسح الطريق أمام (سارة) التي أنجبت إسحق الذي أنجب يعقوب ، وخلف يعقوب اثني عشر ولداً ، وهم الأسباط : رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويسّاكر وزبولون ويوسف وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وأشير .

وقد هيأ لهم (يوسف) في مصر ، وارتحل يعقوب وأبناؤه بدعوة من يوسف ، وكان عددهم سبعين فرداً [1] وظلوا في مصر خمسمائة عام تقريباً ، تكاثروا فيها غاية التكاثر ، حتى صاروا سبعمائة ألف تقريباً ــ كما تدعي التوراة (عدد ــ ١) عندما بدأوا رحلة الخروج ، هرباً من فرعون مصر ، سنة ١٢١٣ ق. م ، وإن كان المؤرخون يرون أنهم لم يتجاوزا عشرة آلاف ، لأن (ما بين موسى و إسرائيل ثلاثة آباء على ما ذكره المحققون ، ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد) كما يقول ابن خلدون ، ثم إنهم عبروا البحر بمواشيهم (العظيمة العدد) في ليلة واحدة ، مؤتمرين بأمر موسى المباشر ، بعد أن قتل (فرعون) منهم كثيرين [2] .

وخلال وجودهم فى مصر ربطوا مصالحهم بوجود حكام مصر من (الهكسوس) المستعمرين (٢٠٩٨ – ١٥٨٧) ق . م – وأنشبوا مخالبهم في الاقتصاد المصري ، واتسع نفوذهم في مجالات مختلفة ، فلما انتصر المصريون على الهكسوس نقم الحكم الوطنى عليهم ، لأنهم أثروا على حساب المواطنين المغلوبين على أمرهم ، وتآمروا مع المستعمر ضد أصحاب الأرض ، ولم يشاركوا فيما يباشر المصريون من أعمال البناء وفلاحة الأرض ، وحينما كانت الشدائد تنزل بالبلاد استغلوها لإضعاف معنويات الشعب ، وضيقوا عليه وسائل العيش ، ومن ثم أحس اليهود في ظل الحكم الوطني بأن دولتهم إلى زوال ، فأخذوا يجمعون أموالهم ، ويستعدون للإفلات بمكاسبهم ، لكنهم تجاوزواوطمعوا فيما يملك المصريون من الذهب ، ونهبوا خزائن القمح في المنطقة التي تمركزوا فيها بإقليم الشرقية – منطقة الصالحية اليوم – إذ صدرت إليهم أوامر الرب : (إنكم لاتمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة ، وأمتعة ذهب وثياباً ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين) خروج – ٣ .

---

(١) هناك من يقول إن هذا تم في القرن الرابع عشر قبل الميلاد زمن العمارنة .

(٢) يذكر رحمة الله الهندى أن مدة بقائهم في مصر كانت مائتين وخمسة عشر عاماً ، بهذا أقر مفسروهم ومؤرخوهم ، وهذا الزمن قد يضاعف السبعين إلى أقل من ألفين ، إذا وضع في الحسبان تضاعف السكان اليوم ، مع العناية الصحية ، وقلة عدد الوفيات . إظهار الحق ــ ص ١٣٥ .

لكن مطاردة المصريين لهم ، وقسوة ما أصابهم من الهلع والرعب ، جعلهم يتيهون فى سيناء أربعين عاماً ، لايدرون من أمرهم ، حتى كاد يفنى جيل (الخروج) وقدّر (الرب) ما أصابهم ، فقال : (لايرد الشعب إلى مصر ، الرب قد قال لكم : لاتعودوا ترجعون فى هذه الطريق) - (تثنية - ١٧) ونسى (الرب) ميثاقه لإبراهيم .

أراد موسى أن يخفف من آلامهم ، وأن يبث في قلوبهم الأمن والأمل ، فقال على لسان الرب في جبل حوريب : (إني قد رأيت مذلة شعبي الذى في مصر ، وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم ، إني علمت أوجاعهم ، فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين ، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جديدة وواسعة ، إلى أرض تفيض لبناً وعسلًا ، إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحوريين واليبوسيين) خروج - ٣ .

●● وقد اختلف المؤرخون في أصل موسى ، هل هو مصري أو عبراني ؟
وحجة من يدعون أنه مصري كون اسمه مصرياً . بمعنى الطفل أو الابن ، وأنه كان ذا مكانه بين الحاكمين ، إذ كان ضابطاً في جيش مصر ضد الأحباش ، كما يقول فرويد ، مستعيناً بما قال (فيلو) الفيلسوف اليهودي ، ويوسيفوس المؤرخ اليهودي .

وهذا زعم باطل ، لأن الاسم والمكانة يرجعان إلى تبنى امرأة فرعون له ، كما تقول عبارة القرآن الكريم ، بعدما أمر فرعون بذبح مواليد اليهود من الذكور : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ، ولا تحزني ، إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون** ... ﴾ ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً** ﴾ (القصص ٧ - ٩) .

وبدون نظر إلى ما جاء في القرآن الكريم ، فليس ما يمنع من التسمى بالأسماء المصرية ، خلال خمسمائة عام ، بحكم الوجود الاجتماعي الذى يتبادل العادات والتقاليد والثياب والأطعمة والأسماء والأهواء ، أو بحكم التقية ، والمعروف عن اليهود أنهم يلبسون ثيابا غير يهودية ليصلوا إلى مقاتل الأديان الأخرى ، فكيف إذا أرادوا الوصول إلى المناصب القيادية ؟!

وماذا يحول دون أن يصبح موسى قائداً في جيش مصروقد ربط يوسف بين اليهود وأهم المناصب في الدولة ؟!

ثم إن اليهود كانوا في خدمة (الهكسوس) المستعمرين ، مما يساعد على الوصول إلى المراكز الحساسة ، وتاريخ الشرق مع اليهود — حتى عهد قريب — لم يكن يحرمهم من هذه المراكز ، فكان منهم أصحاب الكلمة النافذة في المجتمع الإسلامي ، وفي المجتمع الحديث ، حتى منتصف القرن العشرين ، وما بعده ، في بعض البلاد الإسلامية .

ويروى ول ديورانت أنه كشفت في مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى أنجته في عام ١٥٢٧ ق. م الأميرة حتشبسوت ، وأنه تربى في بلاطها بين حاشيتها ، وأنه فر من مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث ... وكما جاء في القرآن الكريم أن موسى قتل مصرياً ، وخاف أن يُؤخذ بجريمته ، ففر إلى بلاد مدين ، والتقى بكاهنها يثرون — نبى الله شعيب — وتزوج ابنته ، وأخذ عنه بعض التعاليم الدينية ، وحين عودته إلى مصر ناداه الله : ﴿ **فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ ... ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى** ﴾ .. ﴿ **اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى** ﴾ ... ﴿ **فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ .

ومن ثم يكون فرار موسى إلى مدين ليس بسبب (جريمته) في الدرجة الأولى ، بل بسبب موقف تحتمس من حتشبسوت ، ومن هنا كانت صعوبة مواجهة الفرعون الجديد بالدين الجديد .

ونجح موسى في تجميع الشعب اليهودي من حوله ، وانضم إليه عدد من المصريين الساخطين من الأسارى والعبيد .

وخرج (الشعب) فاراً من وجه فرعون (منفتاح — ١٢١٣ ق. م) [1] الذى أبى إلا أن ينتقم من هؤلاء الذين قصدوا إلى تدمير الاقتصاد المصرى .

---

(١) قرأت أخيراً ما يرجح أنه تحتمس الثالث وليس رمسيس الثاني أو منفتاح — مجلة أكتوبر عدد =

●● ويمد الله العون لهؤلاء المطارَدين ، فيفتح لهم طريقاً في البحر ، ويفجر لهم الينابيع ، وينزل لهم المنَّ والسلوى .

لكن طبيعة الجحود في نفوس هؤلاء القوم تأبى إلا الكفر بالله وبنعمته .

قال تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قومٍ يعكفون على أصنام لهم ، قالوا : ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ... قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون** ﴾ (الأعراف : ١٣٨ ، ١٣٩) .

وما لبث موسى أن ذهب للقاء ربه ، فإذا هم ينتهزون فرصة غيبته ، فيصنعون عجلاً من الذهب يعبدونه .

وتسجل التوراة أن هؤلاء القوم قد وقعوا في أسر الآلهة الأسطورية في المناطق التى نزلوا بها ، وبخاصة الإله (يهوه) ، إله البراكين الذى يظهر مغلفاً بالسحاب نهاراً ، وبالنار ليلًا ، ويتابعهم حيثما ارتحلوا (عدد ــ ١٤) .. وكانت تتلخص عبادته في إقامة مآدب صحراوية وذبائح وقرابين محروقة .. وكذلك الإلهة (عنات) إلهة الأساطير الكنعانية ، ذات الشهوة الدامية .. وعلى هذا تتمثل أوامر (الرب) في صورة انتقامية رهيبة .. يقول الرب لموسى : (متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها ، وطرد شعوباً كثيرة من أمامك ..

ستمبر سنة ١٩٧٧ ، على حين يؤكد ما سيرو في كتاب (دليل زائر متحف القاهرة) أنه منفتاح ، وأخذ به كثير من الدراسين .

لعل ما كتب على اللوحة التي أقامها منفتاح حوالي سنة ١٢٢٥ ق. م قد يزكي ما جاء في (أكتوبر) ، إذ جاء فيها : (لقد غُلب الملوك ، وقالوا : سلاماً

وخربت تحينو

وهدأت أرض الحيثيين

وانتهت كنعان ، وحلت بها كل الشرور

وأضحت فلسطين أرملة لمصر

وصمت كل البلاد ، وهدأت

وكل من كان ثائراً قيده الملك منفتاح) .

فذكر إسرائيل ، ووقوع فلسطين تحت سلطة فرعون ، قد يمثل مرحلة متأخرة من خروج اليهود من مصر ، تزيد على نصف قرن ، إلا إذا كان القصد من (إسرائيل) بني إسرائيل ، أما عن (فلسطين) فقد تكرر وقوعها (أرملة مصر) لكن ما أوردته كشوف أريحا تزكي كونه منفتاح ، مادام الخروج إلى مدين كان في عهد تحتمس الثالث .

لاتقطع لهم عهداً ، ولاتشفق عليهم ، ولا تصاهرهم) ــ تثنية ــ ٧ (أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً ، فلا تستبق منها نسمة ما) تثنية ــ ٢٠ من أجل أنهم (لم يلاقوكم بالخبز والماء ، فى الطريق عند خروجكم من مصر) تثنية ــ ٢٣ .

●● وبعدما قويت شوكة اليهود بقيادة (يشوع) أطلق الرب يده في أصحاب الأرض قتلًا ونهباً ، وختلًا ورجماً وحرقاً وصلباً وتمثيلًا : (حرقوا كل ما في المدينة ، من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير ، بحد السيف .. وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها) .
يشـــوع ـ ٦ ، ٨ ، ١٠ .

نزل هذا كله بأريحا ، وعاى ، ولبنة ، ولخيس ، وجازر ، وعجلون ، ودبير ، وحاصور .

ولقد بلغت روح الانتقام والتشفى عند يشوع [(١)] ــ كما تحكى التوراة [(٢)] ــ حد أنه بعدما انهزم ملوك الأموريين الخمسة ، ووقعوا في أسره ، قال (لقواده ، رجال الحرب الذين ساروا معه : تقدموا ، وضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك .. وضربهم يشوع بعد ذلك وقتلهم ، وعلقهم على خمس خُشب ، وبقوا معلقين على الخشب حتى المساء) يشوع ــ ١٠ .

ويرى المؤرخون أن طبيعة هذه الانتصارات لم تكن بسبب قوة اليهود وشجاعتهم ، بل بسبب ما أصاب البلاد من تمزق وفوضى ، حتى عاثت فيها عصابات الخابيرو ـ المكاريين ـ فساداً ، وكان أن طلب (عبدو خيبا) ـ حاكم القدس نيابة عن الفرعون المصرى ــ خمسين جندياً فقط لحفظ النظام .. فإذا انتصر يشوع بأكثر من عشرة آلاف موحَّدين تحت قيادته فالأمر لايعدو مغامرة في غير ميدان .

---

(١) يذكر إخوان الصفاء أنه (يوشع بن نون ــ ولد يوسف النبي) وأنه ظهر فيهم بعد وفاة موسى بأربعين سنة من التيه ــ ج ٤ ص ٢٨ ط ١٩٥٧ ــ دار صادر ببيروت ، على حين يتحدث المفسرون للقرآن الكريم أنه الفتى الذي صحب موسى في طريقه إلى الرحل الصالح (سورة الكهف) .

(٢) لم نناقش أخبار التوراة ، لأنها تعبر عن واقع التاريخ النفسي والسياسي والعسكري لليهود بعد الأسر البابلى .

يقول جوستاف لبون : (إن عدد بني إسرائيل ، واحتياجاتهم وبؤسهم في مصر ، وحرمانهم الهائل ـــ مما جمع بينهم ، وأقنطهم ، فصاروا كقطيع الذئاب الهزيل التي دفعها الجوع إلى الاقتراب حتى من المدن) .

ويقول : (كان بنو إسرائيل أقل من أمة ، حتى زمن شاءول ، وكانوا أخلاطاً من عصابات جامحة ، كانوا مجموعة غير منسجمة من قبائل سامية صغيرة أفاقة بدوية ، تقوم حياتها على الغزو والفتح ، وانتهاب القرى الصغيرة ، حيث تقضي عيشاً رغيداً في بضعة أيام ، ثم تعود إلى حياة التيه والبؤس) .

فدورها إذن لم يكن أكثر من دور عصابة ، جمع بينها الحقد على الآخرين ، والحرمان من الأمان والاستقرار ، فصارت تضرب ضربة الخائف الجبان ، فإذا أصابت ضربتها ، وأمكن لها أن تنتصر ، لم تُبق على شيء ، وأفرغت نقمتها وسُمّها في كل كائن .

* * *

بعد أن استولى يشوع على أرض كنعان قسمها بين إحدى عشرة قبيلة (سبطاً) ، وجعل لقبيلة (لاوّى) الشئون الدينية ، استجابة لقول (الرب) مخاطباً موسى : (قرب إليك هرون أخاك وبنيه معه من بين بني إسرائيل ، ليكهن لى) خروج ـــ ٢٨ .

ويلاحظ في ذلك الحين أن أثر موسى فيهم كان محدوداً ، إذ لم يكد يبقى له من وجود فيهم يتجاوز (لوحين) كتب فيهما (الرب) وصاياه العشر في (تابوت) ينتقل معهم ، حتى بنى سليمان بيت الرب .

ولأنهم كانوا أصحاب حضارة بدائية بدوية فقد أصابهم الاستقرار في أرض زراعية ذات مجتمع له أصوله الحضارية العريقة ـــ بالخضوع لتقاليد المجتمع الجديد ، وقدسوا الإله (بعل) ، وهجروا لهجتهم السامية الأصليّة ، واتخذوا اللغة الكنعانية ، وورثوا عن الكنعانيين أسس الثقافة المادية ، إذ كان العذارى ينذرن أنفسهنّ حال بلوغهن للإله ، فيمارسْنَ البغاء مع زوار معبده ، وكذلك أخذوا بتقاليد عبادة الإله (تموز) الذى كان الكنعانيون

يعتقدون كغيرهم من أقوام الشرق الأوسط القديم ـــ موته صيفاً وعودة الحياة إليه ربيعاً .

ومن أثر الحضارة الكنعانية أن أصبح قادة اليهود ـــ بعد يشوع ـــ قضاة ، انحطوا بالبلاد سياسياً ، بسبب توقف الزحف العسكري ، والانغماس في حياة مدنية غير مألوفة .

وظل بنو إسرائيل ـــ كما قال جوستاف لوبون ـــ قوماً من الزراع والرعاة ، حتى بعد صلتهم الطويلة بالحضارة الكلدانية ، من بعد المصرية والكنعانية ، وبقي بنو إسرائيل ـــ حتى في عهد ملوكهم ـــ بدويين ، أفاقين ، مغامرين ، سفاكين ، مندفعين في الخصام الوحشى ، فإذا بلغ الجهد منهم ركنوا إلى خيال رخيص ، تائهة أبصارهم في الفضاء ، كسالى ، خالين من الفكر ، كأنعامهم التي يحرسونها .

أي أنهم لم يكتسبوا من تلك الحضارات إلا قشرة رقيقة هشة ، لاتلبث عند أول اختبار أن تتناثر ، مُخَلية غلظة وخشونة هذا الشعب (الغليظ الرقبة) .

* * *

جاء الفلسطينيون من جزيرة كريت ، فراراً من وجه الهجرات اليونانية التى زاحمتهم في مواطنهم ، ودخلوا أرض كنعان ، وسكنوا غزة وأشدود وعسقلان وأكرون وجاث ، وانتصروا على سكان البلاد ، بفضل أسلحتهم المصنوعة من الحديد ، وبلغوا أوج قوتهم في النصف الثاني من القرن الحادى عشر ق. م . مزودين بثقافة متقدمة ـــ كما يقول روبنسون ـــ ومزودين بعربات حديدية كانوا يركبونها في الحرب ، وإلى هذا يشير سفر القضاة ـ ١٩ (وكان الرب مع يهوذا ، فملك الجبل ، ولكن لم يطرد سكان الوادي ، لأن لهم مركبات حديدية) .. فلما التقوا باليهود ـــ حوالي ١٠٥٠ ق. م ـــ أوقعوا بهم هزائم متلاحقة ، حتى استولوا على تابوت العهد ، وأخذوه إلى أشدود ، وظلت لهم اليد العليا ، مما دفع الاسرائيليين إلى الالتفاف حول شخص يُحيى أملهم ، ويغذي طموحهم في السيطرة من جديد .

وكان أن توجوا الملك شاءول ــ حوالي ١٠٢٠ / ١٠٠٤ ق. م ــ الذى كان معروفاً بالقوة والبأس ، لكنه لم ينجح في مهمته ، وقُتل هو وأولاده ، وقطع رأسه ، وعلقوه مع أبنائه في بيسان ، وأودعوا درعه وسلاحه قرباناً في معبد الإلهة عشتاروت .

تولى الأمر دواد ، الذي كان حامل درع شاءول ــ بين ١٠٠٤ / ٩٦٠ ق. م ــ وكان فى أول الأمر يحكم بصفته تابعاً للفلسطينيين ، لكنه تمكن من إحراز الاستقلال ، ولم يكتف بذلك بل إنه وسّع حدود مملكته إلى جهات لم يبلغها سلطان اليهود من قبل ، واحتل القدس ، وجعلها عاصمة ملكه ، بعد مقاومة عنيدة من اليبوسيين استمرت طويلًا ، وأقام إدارة على الطراز المصري القديم ، وأجبر دمشق على دفع الخراج له ؛ كما أحبط مؤامرة ابنه أبشالوم ، وأخمد ثورة الولايات الشمالية من مملكته ، وأخضع الموابيّين والأدوميين والعمونيين .. ومع هذا فالدولة في أوج خيلائها ـ كما يقول بيللوك ـ كانت مائة وعشرين ميلاً فى أطول آطوالها ، وستين ميلًا في أعرض أعراضها ، وأقل من ذلك بكثير في أغلب الأحيان ، فإذا خرج الرجل مع طلوع الشمس من القدس متجهاً شرقاً أو شمالًا أو غرباً ، كان فى وسعه أن يبلغ أطرافها في فترة وجيزة من الصباح .. إنه لايقطع اثني عشر ميلًا في أي من هذه الجهات إلا يكون قد خرج من حدود تلك المقاطعة .

●● وخلف داود ابنهُ سليمان الذي بدأ حكمه بقتل أخيه الأكبر أدونيا ، وقتل يؤاب رئيس جيش أبيه ، وعزل أبياثار الكاهن .. وكانت مصر وأشور في حالة اضطراب مما ساعده على البلوغ بمملكته ــ ٩٦٠ / ٩٢٥ ق. م ــ أوج ازدهارها .

كان اهتمامه بالتجارة الخارجية والصناعة والتعدين والبناء والتعمير من عوامل عيشة البذخ والإسراف ، على غرار ملوك مصر وآشور ، وأسرف في بناء قصره الذى استغرق بناؤه ثلاثة عشر عاماً ، واشتهر كذلك ببناء المعبد المشهور باسم (هيكل سليمان) الذي استغرق بناؤه سبع سنين ، وقد اتضحت في بنائه الرمزية الكنعانية ، واهتم ببناء الحصون والقلاع والثكنات ، وأنشأ بمساعدة صديقه (حيرام) ملك صور أسطولًا من

السفن التجارية في البحر الأحمر .. واتخذ من مصاهرة الدول المجاورة سبيلًا إلى الاستقرار ، لكن نشاط التجار والمرابين والعمال المتعطلين زاد من الفساد الاجتماعي والسياسي ، مما ساعد على نشاط الأعداء ، فاستعادوا بعض البقاع التي كانت خاضعة لأبيه ، وانكمش ملكه في آخر عهده ، فاقتصر على غرب الأردن .

* * *

بعد سليمان كان النزاع الشديد بين المدن والريف الذى يصحب عادة النشاط التجارى والصناعى ــ من عوامل انقسام الدولة إلى قسمين : (يهوذا) تحت حكم (رحبعام) بن سليمان الذى لم يستطع ــ بسبب بطشه ــ جمع شمل البلاد ، واتخذ عاصمة ملكه (أورشليم) ،أما (إسرائيل) فكانت تحت حكم (يربعام) ــ من سبط أفرايم ــ الذي اتخذ عاصمة دولته مدينة (السامرة) في الشمال ــ ٩٢٢ ق. م. تقريباً .

وقع العداء بين الدولتين ، في سلسلة حروب وفتن واختلاف في العقيدة ، مما أطمع شيشنق فرعون مصر وصهر سليمان ، فاستولى على أورشليم ، ونهب ما فيها من كنوز .

في هذه الأثناء كانت دولة الأشوريين تزداد قوة ، فتوجه سرجون ــ ٧٢٢ ق. م ــ إلى الشام ، واستولى على السامرة ، ونقل كثيراً من سكانها أسرى ، ثم قضى على دولة يهوذا،واستسلم الملك (أحاز) لحكم تجلات بلاصّر ، الملك الأشوري .. وفي عهده بني الهيكل للمرة الثانية ، بإشراف (أوريا) الكاهن ، ثم أخذ هذا الملك الإسرائيلي مذبحاً وثنياً ، واستعمله فى معبده ـ (الملوك الثانى ـ ١٦) ـ مما دعا إلى ظهور عصر الأنبياء الذين يندون بالشرك ، ويستمطرون اللعنات على الآثمين .

وحدث صراع بين الأنبياء الحقيقيين والأنبياء الأدعياء ، وأصبح لكل حاكم أنبياؤه وبرز (إيليا) بمراثيه ، وشجع (أليشع) على قيام ثورة أدت إلى قتل الملك (أخاب) وزوجته إيزابيل وجميع كهنة الإله بعل .. أما النبي (عاموس) القروي الذي كان يأتي إلى المدينة ليبيع ويشتري ويرى الترف

والفساد فقد دعا إلى الإصلاح الاجتماعي ، وحِث الأثرياء على الرأفة بالفقراء ، وأنذر الناس بغضب (يهوه) وانتقامه ، كما انتقد الفحش المقدس ، وعبادة الآلهة الأخرى .

وفي سنة ٦٢١ ق. م. ادعى حاخام المعبد في القدس أنه رأى أثناء نومه النبي موسى ، وأنه أخبره بأن إسرائيل قد ضلّت سواء السبيل ، وأن الكتاب الذى كتبه من كلمات الخالق موجود في مكان حدده من المعبد ، فلما استيقظ الحاخام حفر في المكان الذى ذكره موسى ، فوجد سفر (التثنية) وصدرت أوامر الملك بتنفيذ ما جاء في السفر ، وإزالة مظاهر الوثنية ، فدبت الحياة من جديد في العروق الجافة .

لكن ما لبثت القدس أن سقطت سنة ٥٩٨ ق. م. في يد نُبوخذ نصّر ملك بابل ، وساق أمامه الملك (يهوياقين) والنبي (حزقيال) ، ومعهما سبعة آلاف رجل مسلح وألف عامل ، مكبلين بالحديد ، فكان هذا الأسر البابلي الأول .

بعد سنوات ثارت مملكة (يهوذا) بتحريض من مصر ، فغضب بنوخذ نصّر ، ودمر أورشليم سنة ٥٨٦ ق. م. وحرق هيكل سليمان ، وسلب خزائن المدينة ، ونقلها إلى بابل ، وقتل من سكانها عدداً كبيراً ، وأخذ معه أربعين ألف أسير ، (لينوحوا عند مياه الفرات في بابل) ، وكان هذا هو الأسر الثاني ، وقبض على الملك (صدقيا) وأخذه إلى معسكره ، وذبح أولاده أمام عينيه ، ثم فقأ عينيه ، وأخذه مكبلًا مع الأسرى ، وشرّد من بقي من اليهود .

وقد خلد أحد شعرائهم هذه القافلة البائسة في أغنية تقول :

على أنهار بابل جلسنا وبكينا على ذكرى صهيون
وفي وسط الصفصاف علقنا أعوادنا
لأن من سبونا طلبوا إلينا أن نغنيهم
والذين عذبونا أرادوا أن نطربهم ، ونادونا :
هلّا أنشدتمونا أحد أناشيد صهيون ؟
وهل نستطيع أن ننشد نشيد الله في بلد غريب ؟

لئن نسيتك ياأورشلم فلتنس يميني حذقها
وليلتصق لساني بسقف حلقي إن لم أذكرك يا أورشليم
وإن لم تكوني لدى خيراً من أفراخي

يعلل التلمود ما نزل باليهود بقوله : « عندما بلغت ذنوب إسرائيل مبلغها ، وفاقت حدود ما يطيقه الإله العظيم ، وعندما رفضوا أن ينصتوا لكلمات وتحذيرات أرمياء » الذي وجه القول إلى نُبوخذ نصر : « لاتظن أنك بقوتك وحدها استطعت أن تتغلب على شعب الرب المختار ، إنها ذنوبهم الفاجرة التي ساقتهم إلى هذا العذاب » .

والمعروف أن هذه الذنوب ضد الكيان الاجتماعي اليهودي ، وليست ذنوباً ضد الشعوب الأخرى ، لأنها تعد أمجاداً وانتصارات .. ومن ثم انحصرت الذنوب في انتشار الزنى بالأخت وبالأم ، كما انتشر اللواط والمساحقة ومواقعة البهائم ، وخلطوا أفظع الملاذ بالطقوس المقدسة ، وعُدت ضروب البغاء تكريماً لعشتروت ، وعُد الانهماك في السكر على بُسط الأزهار وتحت ظلال الزيتون — كما يقول جوستاف لوبون — نوعاً من العبادة ، يقول أرمياء : (لقد ساد الظلم في كل مكان ، وعم الفسق والفجور ، كما أشبعتهم زنوا ، وفي بيت زانية تزاحموا ، صاروا حصناً ملعونة سائبة ، صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه) .

هو إذن الانكباب على مزيد من الملاذ ، وصدق الله سبحانه ، معبراً عن هذه الحقيقة الكونية : ﴿ **وإذا أردنا إن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ، وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح** ﴾ (الإسراء ١٦ — ١٧) دون أن يتعظ قرن بآخر ، ودون أن تعتبر أمة بأخرى ، وما أخطر العظات والعبر في أرضنا العربية ، ولا من سميع أو بصير !!

●● طال الأسر باليهود في بابل ستين عاماً ، مما ساعد على الاختلاط بحضارة جديدة غالبة ضيعت ما بقي من (أصالة) العبريين .. وصار الدين اليهودي غير خاص باليهود ، نتيجة غلبة الثقافة الكلدانية ، والتزاوج بين الأسرى والمجتمع الجديد ، والرغبة في تدعيم الكيان اليهودي بقوة

المنتصرين .. ومع هذا فقد كان الإحساس بالضياع يزداد عمقاً ، وتتسع آماده ، وكان لابد من الحفاظ على ما بقي من (الوجود) اليهودي ، فالتف الأسرى حول النبي (حزقيال) .

ولما كان سقوط الدولة الكلدانية تحت أيدي الفرس سنة ٥٣٨ ق. م. أخذ اليهود يحتلون الوظائف العالية في الدولة الفارسية ، بما جبلوا عليه من التدني والترخص في سبيل الهدف الذي ينشدونه .. وصارت (أستير) ملكة بفضل ابن عمها (مردخاي) وتسلطت أستير الجميلة على الملك (أحشويرش) فصلب وزيره هامان وبنيه العشرة ، لأنه كاد يفتك بمردخاي وعشيرته ، ويكشف أمر (أستير) ، وكان أن أعطى الملكُ اليهود مدينة فمدينة ، أن يجتمعوا ويقفوا لأجل أنفسهم ، ويهلكوا ويقتلوا ويبيدوا قوة كل شعب وكورة تضادهم حتى الأطفال والنساء وأن يسلبوا غنيمتهم ، فكان (كثير من شعوب الأرض تهودوا ، لأن رعب اليهود وقع عليهم) إذ قتلوا من مُبْغضيهم أكثر من خمسة وخمسين ألفاً[1] (سفر أستير) .

●● هكذا جرت أحداث القصة في العهد القديم ، وعلى أقلام بعض المؤرخين ، لكن الدكتور فؤاد حسنين علي ـــ وهو الحجة الثبت ـــ يرى أن هذه القصة ليست عبرية الأصل ، فهي تصور ملحمة حربية بين الآلهة البابليين والعيلميين ، إذ إن استير في الواقع هي عشتر ، وهامان هو إله العيلميين ، ومردخاي هو مردوك .. ولهذا عارض الكثيرون من اليهود إقحامها على العهد القديم ، لكنها لاتزال أحد الأسفار الهامة في العهد القديم ، تغذي طموحات هذا الشعب العنيد ، وتقوي إرادة الانتصار ، بالرغم من أن أحداث القصة تثير تساؤلات ، فالشاة يبدو موافقاً على ما اتخذه هامان من إجراءات ، وفي موضع آخر يبدو كارهاً أسفاً ، دون سبب ، ثم إنه ليس من المعقول أن تخفي العلاقة بين مردخاي وأستير ، حتى يتمكنا من الملك ، مع أنه هو الوزير المتصرف ، هذا إلي أن التاريخ الإيراني لايعرف ملكة باسم فشنى (وشنى زوجة أحشويرش) أو أستير ـــ راجع التوراة الهيروغليفية ـــ ص ١٨٢ ـــ ١٨٤ .

(١) يجرى احتفال (عيد الفوريم) في ذكرى هذه المذابح يومى ١٤ / ١٥ آذار في التقويم العبرى .

بعدما أخذ قورش بلاد بابل سنة ٥٣٨ ق. م. سمح لليهود بالعودة إلى فلسطين ، لكن شباب اليهود لم يتحمسوا للعودة ، لأن الكثيرين منهم تأقلموا في التربة البابلية ، فترددوا في ترك حقولهم الخصيبة وتجارتهم الرائجة ، ليعودوا إلى القفار الخربة في المدينة المقدسة .

ومرت سنتان بعد مجيء قورش ، قبل أن تبدأ الفصيلة الأولى من اليهود المتحمسين رحلتها الطويلة التي استمرت ثلاثة شهور إلى الأرض التي خرج منها آباؤهم قبل ذلك بمائة عام .

وتتابعت الفصائل بفضل تشجيع قورش وسخائه ، وبفضل تنامي (الوعي) الديني ، حتى بلغ عدد العائدين ـــ ٤٢ ألفاً ، وكان أن رد الملك إليهم الأوعية التي أخذت من معابدهم ، وأضاف إلى كنوز المعبد اليهودي في القدس أموالًا من خزائنة الخاصة .

وقاد اليهود فى عودتهم ــ إبان حكم داريوس ــ ٥٢١ ــ ٤٨٦ ق.م زَربّابل (زيروبابل)[1] .

وعقب العودة بنوا مذبحاً على موقع المعبد ، ولم يتموا بناء المعبد بسبب الحالة الاقتصادية وحاول إتمام البناء النبّيان زكريا وحجاي ، لكن البنيان لم يتم إلا عندما ظهر النّبي (عزرا) الذي ساعده ملك فارس أرتكسيس (أرتحشيش) ٤٦٥ ـــ ٤٢٤ ق. م. الذي أباح لعزرا أن يأخذ معه إلى أورشليم كل يهودي يبغي العودة ، (وطالبه الملك أن يكيف اليهودية حسب كتاب الشريعة الذي بيده)[2] فرحل مع عزرا ستة آلاف يهودي ، بينهم نفر من الكهنة واللاويين ، فغيروا العقيدة اليهودية التي كانت قائمة في فلسطين وقتذاك ، وغذوها بالنبوءات اليهودية الجديدة التي ظهرت في السبي .

وكان أهم حدث في ذلك الحين هو اكتمال كتابة أسفار موسى الخمسة (التوراة) وبهذا بدأ عصر القوة في المعتقد اليهودي ، والتصلب الديني ، إذ صارت الشريعة أضيق رداء شد على جسم الحياة الإنسانية) ـــ كما يقول

(١) من اسمه يتبين أثر الأسْر في التغيير الاجتماعى ، وتقوم الحجة على من يطعنون في عبرانية موسى بسبب اسمه .

(٢) هذه العبارة تبين أن اليهود حريصون على أن يطبعوا بطابعهم كل ما يكسبهم قوة ، وليس ببعيد إشارة بيجن ــ وهو فى ضيافة مصر ــ إلى أن اليهود بناة الأهرام .

رينان ـــ فقد جعلت الطعام والدواء والشئون الصحية الفردية ، وشئون الحيض والولادة ، والشئون الصحية العامة ، والانحراف الجنسي ، والشهوات البهيمية ، من موضوعات الفروض والهداية الإلهية .

واكتسبت (الشريعة) من الديانة الفارسية الإيمان بالبعث والحساب ، وبأن هناك محاكمة قاسية يجريها الخالق ، والمؤمنون يذهبون إلى الجنة .. وصاروا يؤمنون بوجود قوة الشر ، سموها الشيطان الذي يغري بالعصيان ، كما صاروا يؤمنون بالملائكة والجن .. وكانوا ينظرون إلى (قورش) على أنه (المخلّص) الذي كانوا ينتظرونه ليعيد مملكة يهوذا .

●● وفي سنة ٣٣٢ ق. م. دخل الاسكندر المقدوني فلسطين ، واحتل القدس ، فخرج إليه اليهود فرحين داعين أن يخلصهم من نير الفرس وطغيانهم ، جاحدين فضل قورش وأرتحشيش .

وبعد وفاة الاسكندر سنة ٣٢٣ ق. م. صارت فلسطين في أيدي السلوقيين ، وظلت مسرحاً للاضطرابات يتداولها السلوقيون والبطالسة .

وقد تأثرت البلاد بالحضارة الهلينية ، فأقيمت الملاعب ، وترك الكثيرون عادة الختان ، وصاروا يأكلون لحم الخنزير ، ويذبحونه داخل المعبد .

وهاجر بعض المثقفين إلى الاسكندرية ، ودرسوا الفلسفة اليونانية ، وتم التزاوج بين الفكر اليوناني والديانة اليهودية .

وتمتع اليهود بحرية مباشرة طقوس دينهم حتى كان (أنطيوخوس أبيفانوس ١٧٥ ـــ ١٦٤ ق.م.) فحاول نشر الثقافة الهيلينية بطريقة أثارت اليهود ، فانتقم منهم أشد انتقام ، وحول المعبد اليهودي داراً لعبادة (زوس) كما حرم تقديس يوم السبت ، والاحتفال بالأعياد ومنع الختان ، وحرم حيازة التوراة ، وجعل عذاب المخالفين الإعدام ، وأقام كثيراً من المعابد الوثنية ، وأجبر اليهود على تقديم القرابين لها .

ونتيجة هذا الامتهان العقائدي ثار الكاهن (ميتاس) والتف حوله كثير من اليهود ، لكن الحركة انتهت فى أحد أيام السبت بفتك ذريع باليهود ، مما حدا بالحاخامات إلى الإفتاء بالدفاع عن النفس فى هذا اليوم .

وتجددت الثورات بقيادة أبناء (ميتاس) لتحرير الأرض ، وكان أهمها تلك التي كانت بقيادة (يهوذا بن ميتاس) جوداس المكابي ، فأحرز انتصاراً على الملك السلوقي ، وحرر القدس ، واستعاد المعبد سنة ١٦٥ ق. م. وحصل اليهود على الحرية الكاملة في تأدية شعائرهم الدينية ، وطمحوا إلى تحقيق الحرية السياسية ، فاستمرَّ القتال ، حتى قتل يهوذا المكابي ، سنة ١٦٠ ق.م. وخلفه أخوه (يوناثان) وقتل عام ١٤٤ ق. م. وجاء بعده أخوه (سمعان) فكتب له التوفيق ، حتى منحه الشعب اليهودي لقب الإمارة والقيادة ورئاسة الحاخامين سنة ١٤٠ ق. م.

* * *

بعد أن وقعت البلاد في أيدي الرومان ، عقد اليهود مع السلطات الرومانية الحاكمة صلحاً ، منحوا بموجبه حرية العبادة ، لكن بعد حريق روما أراد نيرون أن يمتص غضب الجماهير فألصق الاتهام بالمسيحيين واليهود ، وأنزل بهم أقسى ألوان القتل والتعذيب والتشريد .

ثار اليهود سنة ٧٠ .ق م. ضد الرومان ، إلا أن القائد الروماني (تيتوس) دمر أورشليم ، وحرق الهيكل ، وبنى معبداً للإله (جوبيتر) وقتل عدداً كبيراً ، وساق إلى الأسر مئات المئات ، واختص (تيتوس) صديقه (فرونتو) بيهود أورشليم ، فأعمل فيهم الصلب والتعذيب ، كما أرسل الأقوياء منهم إلى مصر ليعملوا في مناجمها ، أما الأطفال والنساء فقد بيعوا في مختلف أسواق الامبراطورية الرومانية بأبخس الأثمان ، حتى كانت أمنية اليهودى أن يقع في أيـد رحيمة تعطف عليه خوفاً من أن يقع في حلبة مصارعة الثيران ، وكان أن تشرد الكثيرون في بقاع الأرض ، وبخاصة في بلاد ما بين النهرين والجزيرة العربية ومصر وبرقة ، ويقدر (يوسيفوس) عدد من هلك من اليهود في تلك الأحداث بمليون ومائة وسبعة وتسعين ألفاً ، أما (تاستُس) فيقدرهم بستمائة ألف .

حاول اليهود الثورة في عهد تراجان ، سنة ١١٦ م تقريباً ، لكن ثورتهم باءت بالفشل ، وأخذ تراجان ـــ بعد أن أصاب منهم قتلًا وتعذيباً ـــ عدداً من الأسرى إلى روما ، شكلوا مع من سبقوهم جالية يهودية كبيرة ، نشطت في التبشير باليهودية .

وجاء هادريان ، فأعلن سنة ١٣٠ م أنه يعتزم بناء معبد لجوبتر في مكان الهيكل ، وأصدر سنة ١٣١ م مرسوماً بتحريم الختان وتعليم الشريعة اليهودية علناً ، وحرم الأسبات والاحتفال بأي عيد يهودي ، أو إقامة أية طقوس دينية علناً ، وفرض ضريبة شخصية كبيرة ، فعجل بثورة (باركوشيبا) التي استمرت ثلاث سنوات ، دمر الرومان خلالها ٩٨٥ مدينة وقرية في فلسطين ، وذبحوا ثمانين ألف يهودي ، وسقط (باركوشيبا) نفسه صريعاً .

ونتيجة قسوة نيرون وتراجان وهادريان هدأت ثورات اليهود ، وتفرغ أحبارهم لكتابة الكتب الدينية ، فكان التلمود البابلي والفلسطيني .

* * *

بعد إعلان دقلديانوس (٢٨٢ ـــ ٣٠٥ م) المسيحية ديناً رسمياً للبلاد ، أصبحت القدس عاصمة مسيحية ، وأصبحت اليهودية بدعة ، اعتناقها جريمة ، ولقي اليهود من الاضطهاد على يد المسيحيين مالم يلاقوا في كل العصور ، وبخاصة بعدما انتشرت المسيحية في أوربا .

وفي القرن الرابع الميلادي عقد صلح بين الكنيسة والدولة الرومانية نص على اعتبار اليهودية العدو الأول للمسيحية عقائدياً وسياسياً ، فصدرت مجموعة القوانين المعروفة باسم قوانين قسطنطين ، وصدر القرار التالي في ١٨ أكتوبر سنة ٣١٥ م .

(ليعلم اليهود عامة أنه بعد صدور هذا القانون يعاقب كل يهودي ـــ يتعرض ليهودي آخر ترك ملته إلى المسيحية ـــ بالإعدام حرقاً هو ومن يعاونه ، أو يحرضه ، ويعاقب بنفس العقوبة كل مسيحي منحرف ، أو أي فرد من أفراد الشعب يعتنق اليهودية الدنيئة) .

وخطورة هذا القرار في تنفيذه ، بدون ضمانات تمنع التجاوز ، لأن حدود (التعرض والمعاونة والتحريض والانحراف) تخضع للاتهامات العشوائية والبلاغات الكاذبة ، وبخاصة في ظل حكومة (منحازة) تقدم السيف على السوط .

وجاء (جستنيان) فحرم عليهم إقامة الصلوات وقراءة الكتاب المقدس باللغة العبرية ، وطالبهم باستخدام ترجمة يونانية .

وتتابعت القوانين القيصرية الخاصة بإنزال العقوبات بهم ، وظل هذا حالهم حتى ظهر الملك الفارسي خسرو الثاني ، وانقض على أملاك الروم ، وسقطت في يده أورشليم ، فما كان من اليهود إلا أن اشتركوا مع الفرس في التنكيل بالمسيحيين ، وخربوا الأديرة والكنائس ، واضطروا عدداً كبيراً من المسيحيين إلى اعتناق اليهودية ، ثم عاد اليهود وخانوا الفرس ، مما دفع القائد الفارسي إلى التنكيل بهم ، وسبى عدداً كبيراً منهم ، وأرسلهم إلى فارس .

بعد ذلك أخذ اليهود يتوددون إلى القيصر (هيرقليدس) فاستجاب لهم رغبة في الانتقام من الفرس ، ولما انتصر على الفرس ، واستعاد أورشليم ، ثأر للمسيحيين من اليهود ، ونكّل بهم شر تنكيل .

وفي سنة ٤٣٩ م صدر تشريع ينص على أنه لايجوز لليهودي أن يتقلد مناصب ، أو يحمل أنواط شرف ، كما لايجوز تعيينه في عمل يتصل بالإدارة أو الدفاع عن اليهود .

وأصبح (يزد جرد) الثانى سنة ٤٣٨ م في العراق جلاداً لليهود ، بتحريض من (مزدك) ، فاضطهدهم ، وأغلق معاهدهم ، وطاردهم .

وهكذا ...

استمر اليهود طيلة فترات التاريخ يلاقون الاضطهاد والقسوة ، ولم يتنفسوا الصعداء إلا في ظل الإسلام حيث وفر لهم الحرية والأمان .

اليهود فى ظل دولة الإسلام

نتيجة كل من الغزو البابلي والغزو الروماني وما لحق أورشليم من تخريب وتدمير ، وما أصاب الشعب الإسرائيلي من تمزق أدى إلى هجرات كثيرة ـ استقرت جموع من المهاجرين اليهود شمالي الحجاز ، وكانت منهم بطون بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع وبني المصطلق .

وتُجمع المصادر التي وصلتنا على أن هؤلاء اليهود وجدوا بين القبائل العربية الأمن والسلام ، وجادت العروبة على اليهود باللغة ، فأجادوها ، وصار منهم الشعراء والخطباء والحكماء ، واكتسبوا بعض الخلال العربية ، ونعموا بالحرية المفقودة أجيالًا ، وبالرجولة الضائعة قروناً ، وبالفطرة العربية التي أكسبتهم إياها البيئة والمخالطة والمنافسة .

كانوا يشتغلون بالزراعة وتربية الماشية ، وأنشئوا لهم مزارع فى خيبر ووادى القرى وتيماء . واشتغلوا بالتجارة والربا ، وأكلوا أموال الناس بالباطل .

واشتهر بنو قينقاع بصناعة السيوف والدروع والآلات الحديدية .

واستوطن بعضهم بلاد اليمن في العصر الحميري الثاني — ٣٠٠ / ٥٢٥ م — حيث وجدت دياناتهم أرضاً خصيبة ، فاعتنقها بنو حمير ، وبطون من كنانة وكندة وبني الحارث ، تدعيماً لهم في وجه المطامع الحبشية ، وخوفاً من سيطرة الدولة الرومانية الشرقية .

وصارت اليهودية في نظر معتنقيها اليمنيين تمثل الروح القومية ، على حين صارت المسيحية رمز التدخل الأجنبي ، وأثراً من آثارة ، لهذا كان الصراع بين الدولتين محتمل الوقوع بين حين وآخر .

وانفجر الصراع بمذبحة كبرى أوقعها اليهود بمسيحيِّي نجْران سنة ٥٢٣ م ، فاستنجد من أفلت منهم بالبيزنطيين ، فأرسل الامبراطور جستين الأول — ٥١٨ / ٥٢٧ م إلى ملك الحبشة يدعوه إلى أن يضع حداً لعدوان اليهود في اليمن ، واستطاع أبرهة أن يهزم ذانواس اليهودي سنة ٥٢٥ م .

بهذا سقطت دولة حمير في يد الأحباش ، وقضى على جميع آثار دولتهم السياسية والدينية ، ووقع اليهود في قبضة العناصر النصرانية ، وفر منهم من فر إلى شمالي الجزيرة ، أو إلى بلاد فارس .

وتبع هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب أن صار وفاق بين العرب واليهود ، بسبب أن العرب كانوا شركاء اليهود في عداوة الرومان ، أو لأن العرب كانوا سوقاً جديدة للمنتجات اليهودية ، لكن سرعان ما تعرف العرب على المطامع اليهودية ، وعلى ما يتصفون به من اللؤم والغدر والخداع — فدب بينهم الخلاف الذي كان يصل إلى حد الحروب ، وكان اليهود يخشون التمادي في العداوة خوفاً على مصالحهم الاقتصادية ، وتحسُّباً للوجود الروماني في الشمال والجنوب .

وكان اتصال بين الغساسنة وعرب الأوس والخزرج ، فازداد خوف اليهود ، وعملوا على الوقيعة بين القبيلتين ، وناصروا فريقاً ضد فريق ، حتى كان يوم (بعاث) المشهور .

ومع ظهور الإسلام أخذ اليهود يتتبعون أخبار الدعوة الجديدة ، ووقفوا منها موقف المستطلع ، قبل أن يميلوا معها أو عليها .

جاءهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط يسألان وسيلة لإحراج (محمد) وكشف دعواه ، فقال أحبارهم : (سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، بم كانت نبوءته ، وسلوه عن الروح ، ما هي ، فإن أخبركم بذلك فاتبعوه ، فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول ، فاصنعوا به ما بدا لكم) .

وبعد أن تمت بيعة العقبة الأولى أخذ اليهود يحسون بخطر الإسلام ، وكان عندهم أمل في أن يلتقوا بالرسول ﷺ ويؤثروا عليه ، فيدخل دينهم ، أو يلتقي معهم على طريق .

كان النبي -عليه الصلاة والسلام — يرغب في لقاء اليهود ، على أساس أنهم أهل كتاب بشّر بمقدمه ، عساهم يدخلون دينه ، أو يصدقون به .

وما إن هاجر الرسول إلى يثرب حتى بادر اليهود بحسن استقباله ، وازداد رجاء الرسول فيهم ، فوثق صلاته بهم ، وتقرب من كبارهم ، وعقد معهم معاهدة صداقة ومودة .. وكان الهدف من وراء هذه المعاهدة أن يجمع الرسول شمل المهاجرين والأنصار مع اليهود في مواجهة

المشركين .. أو أنْ يؤمّن ظهر المسلمين في مواجهة المشركين .. وكانت بيعة العقبة الثانية قد أزالت ما بين الأوس والخزرج من أسباب المشاحنة .

لكن ، ما لبث اليهود أن أخذوا يثيرون الفتن بين الأوس والخزرج ، ويدسون للمسلمين ، حتى قال الله فيهم : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله ، وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم** ﴾ ـــ آل عمران : ١٠٠ ، ١٠١ .

وتتبع اليهود رسول الله بالأسئلة ليحرجوه ، وطلبوا إليه كتاباً من السماء ، وقد هوّن الله أمرهم على رسوله ، فقال ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم** ﴾ ـــ النساء ـــ ١٥٣ .

ولما كان فشلهم في إثارة الفتنة لايزيدهم إلا عناداً وكفراً ، فقد لبس بعضهم ثوب الإسلام ، ليطعنوا الإسلام باسم المسلمين : ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ، واكفروا آخره ، لعلهم يرجعون** ﴾ ـــ آل عمران ـــ ٧٢ ، ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون** ﴾ ـــ البقرة ـــ ١٤ .

واتخذوا المسجد وحلقات العلم مجلساً ، ليتسقطوا أخبار المسلمين ، وليطلعوا على أحوالهم ، وينقلوا ذلك إلى اليهود وحلفائهم من المشركين .

فلما حدثت موقعة بدر ، لم يشتركوا مع الرسول ، تطبيقاً لنصوص المعاهدة ، وأشاعوا هزيمة المسلمين وقتل الرسول .

ثم سخر بنو قينقاع من امرأة مسلمة ، فوقع الشر بين المسلمين وبينهم ، ولولا أن الرسول تدارك الأمر لنشبت الحرب ، لكن بني قينقاع لم يرعووا ، واغتروا بقوتهم ، وعرّضوا بالمسلمين فحاصرهم الرسول في ديارهم خمسة عشر يوماً حتى استسلموا ، ورضوا بالجلاء عن المدينة إلى أذرعات في حدود الشام .

ولم يشترك اليهود في موقعة أحد ، بقصد تخذيل المسلمين ، وزادوا فدبر

يهود بني النضير كميناً لأربعين مسلماً ذهبوا يعلّمون قبائل نجدية أمور الدين ، وقتلوهم عن آخرهم ، ما عدا رجلًا أخبر بما حدث ، فذهب إليهم الرسول وصاحباه أبو بكر وعمر ، ليتحدث بشأن ما جرى ، فكادوا ليقتلوه بصخرة تلقى من فوق جدار ، فما كان من الرسول إلا أن أنذرهم بالخروج قبل عشرة أيام ، فمن بقي بعدها ضرب عنقه ، لكن المنافقين أغروهم بالبقاء ، ووعدوهم بالقتال إلى جانبهم ، فحاصرهم الرسول حتى استسلموا ، وتم جلاؤهم ، فريق إلى الشام ، وفريق إلى خيبر .

وأما بنو قريظة فقد تعاونوا مع قريش وغطفان في معركة الخندق ، وصاروا يثبطون همم المسلمين بما يشيعون من شائعات ، ويتجسسون عليهم ، وائتمروا بفتح ثغرة في حصونهم ينفذ منها المشركون .

وكفى الله المؤمنين شر الأحزاب ، فسار الرسول إلى حصون بني قريظة ، وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة ، فانهاروا ، وصاروا ﴿ **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين** ﴾ .. وطلبوا تحكيم سعد بن معاذ ، فحكم بقتل الرجال ، وسبى النساء ، وتقسيم الأموال ، وقُتل منهم إذ ذاك ما يقرب من التسعمائة .

ولما وصلت هذه الأخبار إلى يهود خيبر ، خافوا ، وتحالفوا مع يهود وادى القرى ليزحفوا على يثرب ، وأخذوا يرسلون رجالًا بالأموال ليؤلبوا العرب ، وليوقعوا بين المسلمين .

انتظر الرسول حتى فرغ من قريش بمعاهدة الحديبية ، واتجه إلى خيبر ، وافتتحها حصناً حصناً .

ولما طلبوا من الرسول حقن الدماء أجابهم إلى طلبهم ، ورد إليهم صحائف من التوراة وقعت في أيدي المسلمين ، وصاهرهم ، ومع هذا أرادوا قتل الرسول بإهدائه شاة مسمومة .

بعد هذا لم تعد لليهود شوكة في أرض المسلمين ، فمن بقي تحت الحكم الإسلامي ــ كبني غادية وبني حنينة ــ ظلوا على حالهم في عهد الرسول وعهد أبي بكر .

وفي عهد عمر علم أن رسول الله ﷺ قال فى فراش موته : « لا يجتمع

بجزيرة العرب دينان » فأجلى من ليس له عهد مع رسول الله .

وحين تسلم عمر بيت المقدس من البطريك صفرونيوس سنة ٦٣٦ م اشترط البطريك ــ في معاهدة عمر ــ منع اليهود من الإقامة في المدينة المقدسة .. ولكن ما كاد المسلمون يتسلمون مقاليد الأمور في البلاد حتى قضوا على استبداد المسيحيين باليهود ، وما لبث اليهود أن استعادوا نشاطهم العلمي ، وظهرت في طبرية نهضة علمية مرموقة .

وفي عهد عثمان نشط اليهود الذين لبسوا ثوب الإسلام بقيادة عبد الله بن سبأ ، وظلوا يؤلبون المسلمين على عثمان ، بدعوى أنه ليس أحق بالخلافة ، وأن من اختاروه لها جماعة من الطغاة الخارجين على الدين ، وأن انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى نقل شخصيته إلى علي ، كما انتقلت شخصية موسى إلى يوشع .. وطورد هذا الرجل من البصرة إلى الكوفة إلى مصر ، وكانت دعواه من عوامل قتل عثمان ، رضي الله عنه وظهور الفتنة الكبرى في التاريخ الإسلامي .

زمن الفتوح الإسلامية :

تم فتح كثير من الأمصار في عهد عمر وعثمان ، أبرزها بلاد العراق والشام ومصر .

وقد رحب أكثر أهل الذمة النصارى واليهود بالفتح الإسلامي ، خلاصاً من الاضطهاد الروماني والفارسي ، ومن الصراع الطائفي ، ولإعفائهم من الخدمة العسكرية ، وتمتعهم بالحرية الدينية في ظل الإسلام ، وفي ظل المبادىء الإنسانية السامية التي أعلنها أبو بكر في وصيته لقادته : (لاتخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولاتذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً ، إلا لمأكل ، وسوف تمرون بأناس قد فرغوا بأنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له) .

وعاش اليهود متمتعين بكل الحقوق الدينية والاجتماعية التي كفلها الإسلام ، خلال عهود الخلفاء الراشدين وبني أمية .

وفي العصر العباسي تمتعوا بحياة أكثر يسراً ورحابة ، فوجدوا المجال

مفتوحاً أمام مواهبهم وقدراتهم العلمية ومهاراتهم الذاتية ، حتى أصبح لهم في بغداد أكثر من دَوْر شجع عليه الخلفاء والأمراء والعمال والعلماء .

احترف اليهود عدداً من الحرف ، كالصباغة والنسيج وصناعة الزجاج وإدارة السفن ، وتولوا كثيراً من المناصب العامة ، وسافر تجارهم إلى بلاد المشرق والمغرب ، وعادوا بوفير الكسب ، كان منهم معظم الصيارفة ، كما كان لهم من يدير شئونهم الدينية ، ويتولى أمور القضاء منهم .

وفي هذا العصر ترجمت التوراة والتلمود إلى العربية .

وبلغ عدد اليهود في العراق ستمائة ألف ، أنشئوا ببغداد مستعمرة كبيرة ظلت قائمة حتى سقطت المدينة في أيدي المغول .. كان بالمستعمرة عشر مدارس ربانية ، وثلاثة وعشرين كنيساً ، وكان المعبد الرئيسي مبنياً بالرخام المختلف الألوان ، مزداناً بزينة الذهب والفضة .

وكانت لليهود في الأقطار الإسلامية روابط واتصالات دينية ، حتى كان رئيس يهود الفسطاط عراقياً .

ولما قامت الفتنة بين الأمين والمأمون ركبوا ظهرها ، فأصابهم منها ما أصابهم .

ولم يكن لليهود تأثير على بغداد فحسب .

صرح بعض المؤرخين أن معظم التجار بمدينة (تُسْتَر) كانوا يهوداً ، وكانت تستر أكبر مركز لصناعة البسط الفارسية ، وكان الذي يسيطر على ما يستخرج من اللؤلؤ في شواطىء جزيرة العرب رجلًا من اليهود .

وكانت بلاد كشمير مغلقة أبوابها في وجه جميع التجار الأجانب ، ولم يكن يدخلها إلا قليل منهم ، وخصوصاً اليهود .

وكانت الحرفة التي اختص بها اليهود في الشرق أيضاً الاتجار بالعملة ، ويذكر أنه لما فرضت الحكومة على بطريك الاسكندرية جزية باهظة ، أواخر القرن الثالث الهجري ، حصل على المال اللازم بأن باع إلى اليهود أملاك الكنيسة وجزءاً من الكنيسة المعلقة .

وكان اليهود بين الصيارفة بقصبة مصر ، حتى إنه في عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م عزر المحتسب طائفة منهم ، فشغبوا ، فأمر (جوهر) ألا يظهر يهودي إلا بثوب مميز .

وحكى ناصر خسرو أن بمصر رجلًا يهودياً غنياً ، يسمى أبا سعيد ، له مال كثير ، وأنه كان على سقف سرايه ثلاثمائة جرة من الفضة ، في كل واحدة منها شجرة مثمرة محملة .. أما في العراق فإنا نسمع عن رجلين من جهابذة اليهود ، وهما يوسف بن فنحاس وهرون بن عمران ، ومنهما اقترض الوزير عشرة آلاف دينار في أوائل القرن الرابع الهجري ، ويظهر أن هذين الرجلين كان لهما شبه بنك أو شركة ، لأنه لما خلع الوزير على بن الفرات عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م وطولب بالمال ، أقر بأن له عندهما سبعمائة ألف دينار ، وكان يوسف جهبذ الأهواز ، أعنى أنه كان يقدم للدولة مالا معجلًا ينتظر سداده من خراج الأهواز ، وكان إذا أحضر لتعجيل المال يعتذر عادة بكثرة الأموال التي يلزمه تعجيلها ، وأنه لايتمكن من الدفع [1] .

● ● وتمتع اليهود فى الأندلس بحرية أكبر ، وانتشروا فى جميع ميادين الزراعة والصناعة والمال والمناصب العامة ، ولبسوا ثياب العرب ، وتكلموا لغتهم ، واعتادوا عاداتهم .

وكان (حسداي بن شيروط) اليهودي يتولى استقبال سفراء الدول الذين كانوا يفدون على البلاط الأموي ، في عهد عبد الرحمن الناصر .

وبسبب الحرية الدينية والعلمية التي نعموا بها جعلوا ينشئون المجامع في قرطبة وطليطلة وبرشلونة وغرناطة وغيرها .

وفي بعض الأوقات صارت حرفة الطب وقفاً عليهم تقريباً .

وفي أشبيلية دعا المعتمد بن عباد إلى بلاطه إسحق بن بروك العالم لفلكي ، ومنحه لقب أمير ، وجعله حاخام كل المجامع اليهودية .

وفي غرناطة صار (شمويل هلاوي بن نجرلّه) وزيراً يهودياً في دولة سلامية . ولما مات خلفه ابنه يوسف ، الذي غلبت عليه طبيعة الكبر

---

(١) آدم متز ـ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ط ٣ سنة ١٩٥٧ ـ ج ٢ ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .

والغطرسة والتعصب ، فجرؤ على القول في القرآن ساخراً مستخفاً ، فثار سكان البلاد وصلبوه ، وذبحوا أربعة آلاف يهودي ، وأرغم الباقون على مغادرة البلاد .

ولما كان عهد المرابطين ضيقوا على اليهود الخناق .

وجاء الموحدون فخيروهم بين الإسلام والخروج من البلاد ، فخرج الكثيرون ، وتظاهرت البقية بالإسلام .

والسر في قسوة المرابطين والموحدين أنهما دولتان قامتا على أنقاض فساد وتآمر وانهزامية في صفوف المسلمين ، وتسلل نصراني يهودي في عروق الدولة المختلفة ، وفي أجهزتها الإدارية الرئيسية .. وكأنما أحسّ اليهود بأن السفينة تغرق ، فعجلوا بإغراقها ، لتكون لهم الحُظْوة في دولة الأسبان .

●● وفي مصر أدى تعريب الدواوين إلى انتشار اللغة العربية بين أهل الذمة ، وأصبح الجميع يتكلمون لغة واحدة ، مما أدى إلي نوع من الوحدة الاجتماعية والتقارب الفكري .

وانتشر الإسلام بين أهل الكتاب على نطاق واسع ، في العصر الطولوني .

وفي العصر الإخشيدي كان لليهود محاكمهم الخاصة .

وبلغ عدد الذميين في العصر الفاطمي خمسة ملايين نسمة ، مما يوحي بالاستقرار والخير الذي كانوا ينعمون به .. وقد تولى (ابن سعيد التتري) اليهودي نظارة الخاصة لأم المستنصر الخليفة .

وكان من جراء سيطرة اليهود على كثير من مقاليد البلاد أن قال فيهم الشاعر المصري الحسن بن خاقان :

يهود هذا الزمان قد بلغوا   غاية آمالهم ، وقد ملكوا
العز فيهم ، والمال عندهم   ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم   تهوَّدوا ، قد تهود الملك

ولم تكتف الدولة الفاطمية بإباحة ممارسة الشعائر الدينية لليهود ، بل شاركت في أعيادهم الدينية بإغلاق الدواوين ، وتوزيع الهدايا والحلوى .

وفي العصر الأيوبي توسط لدى صلاح الدين طبيبه الخاص (موسى بن ميمون ١١٣٥ / ١٢٠٤ م) فتدفق اليهود من بلدان أوربا إلى فلسطين ومصر .. وفي ظل بيت صلاح الدين عومل اليهود معاملة خاصة ، وتلقوا كل حماية ممكنة .

وجاء العثمانيون ففتحـوا لهم أبواب الوظائف الحكومية والمهن الحرة ، حتى وصلوا إلى أعلي المراتب ، وكان أطباء سلاطين آل عثمان يهوداً ، وصارت لهم المزارع والمتاجر والمصانع ، وكثرت دور العبادة .. وزحفوا إلى البلقان التي سبق أن طاردتهم ، واستعادوا وجودهم في قلب أوربا .

ومع ذلك ، فقد سجل التاريخ أن اليهود لم يكن منهم سنة ١٢٦٧ م بمدينة القدس إلا أخوان اثنان ، وفي عام ١٣٢٧ م توطنت فيها طائفة صغيرة تشتغل بالصياغة ، وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تراوح عددهم بين ٢٥٠ و ١٥٠٠ ، لعل ذلك يرجع إلى استمرار الأخذ باتفاقية (عمر ــ صفرونيوس) مع الحرص على حماية الأماكن المقدسة ، إسلامية ومسيحية .

في مصر الحديثة :

حظى اليهود ــ في عصرنا هذا ، على مستوى العالم العربي ــ بأكثر مما حظى به كثيرون من أبناء العرب بل إنهم كانوا يمارسون حرية العمل ضد أصحاب البلاد أنفسهم .

فإذا أخذنا مصر مثلًا نجد أنه بينما كانت قضية الضابط اليهودي (دريفوس) تهز المجتمع اليهودي في أوربا ، كان الكاتب والمفكر اليهودي يعقوب صنوع (أبو نضارة) يصدر جريدته (التنكيت والتبكيت) مسهماً في إنهاض الحركة الوطنية ، عن طريق الصحافة والمسرح .. فلما اشتد الاضطهاد الأوربي لليهود نجد حكومة حسين رشدي ــ في عهد السلطان حسين ــ تسارع إلى استضافة المهاجرين اليهود من روسيا وبولندا

ومن فلسطين ذاتها ــ إبان الحرب العالمية الأولى ــ وتنظم عملية الغوث لهم ، وتعيد الأمان إلى نفوسهم ، وتفتح لهم الاسكندرية مناطق القباري والبلدية ومبني الحجر الصحي ومحطة الورديان ودار المحافظة ، من دور الحكومة .. كما أمر السلطان حسين بأن تصرف لهم إعانة يومية قدرها ثمانون جنيهاً ، زيدت إلى مائة ، وهو مبلغ غير ضئيل في ذلك الحين ، بالإضافة إلى تبرع أثرياء اليهود وغيرهم .

جاء في صحيفة (مصر) الإسرائيلية (٣١ يناير سنة ١٩١٥ م) أنه كان (يعيش في منطقة القباري نحو ١٦٠٠ نسمة ، يتكلمون اربع عشرة لغة ، وتستخدم اللغة العبرية وسيلة للتفاهم بينهم ، والمكان يشبه قرية مستديرة الشكل ، وهي مسورة ضماناً للأمن) ، وقد بني لهم المصريون (معبداً ومستشفى ، فضلًا عن أن المكان نفسه صحي وملائم للمعيشة ، وبه حدائق خضراء وطرقات مرصوفة ونافورات مياه) .

كتب إدجار ساويرس رئيسهم بمدينة الاسكندرية ، شاكراً حسين رشدي باشا ، يقول : (لقد أثبتم مرة أخرى تحرر هذا البلد وضيافته الكريمة ، وإن طائفتنا لعلى ثقة ــ في هذه المناسبة ــ بأنها تعبر عن عرفان يهود العالم للحكومة المصرية ، على الإجراءات السريعة الفعالة التي اتخذتها لمساعدة هؤلاء المطرودين البؤساء) .

وفي مارس ١٩١٥ م دعت لجنة اللاجئين بالإسكندرية إلى اجتماع حضره نحو مائتي شاب ، وناقش الحاضرون أمر تكوين فرقة يهودية تنضم للقوات البريطانية ، شريطة أن تحارب في الجبهة الفلسطينية ، لتمكين الوجود اليهودي في فلسطين ، دون أدنى رعاية وتقدير للأرض التي فتحت ذراعيها لاحتضانهم .

وتألفت على الفور في الإسكندرية فرقة تضم ٥٠٠ متطوع ، ٣٥٠ من اللاجئين و ١٥٠ من يهود الإسكندرية ، وسميت هذه الفرقة(فرقة راكبي البغال) التي أدت للإنجليز ــ أثناء حملة غاليبولي ــ خدمات كثيرة ، حتى صدر الأمر بتسريحها في مارس سنة ١٩١٦ م .

كان جنود الفرقة يلبسون قبعات عليها نجمة داود ، لها علم مرسوم عليه

هذه النجمة ، وقد باركها الحاخام اليهودي الأكبر (ديللا برجولا) ووزع على أفرادها كتيبات باللغة العبرية ، تحتوى على التعاليم الداعية إلى التمسك بالعقيدة والواجبات العسكرية .

بعد حل هذه الفرقة تكون في لندن (الفيلق اليهودي) في ٥ أغسطس سنة ١٩١٧ م ، بقيادة الكولونيل باترسون للمساهمة في العمليات الحربية في فلسطين ، واستقبل هذا الفيلق أثناء مروره بالإسكندرية استقبالًا حافلًا من يهود المدينة .

وقد رأى اليهود في هذا الفيلق (نواه لجيش يهودي ، يقوم ــ حين يكسبون الحرب ــ بتوزيع فصائله في فلسطين ، لكي يلزم العرب دائماً حدود النظام) !!

في عهد الملك فؤاد (١٩١٧ ــ ١٩٣٦) رسخت أقدام اليهود في البلاد ، وتفتحت أمامهم الأبواب الواسعة في كل مجال ، حتي عرفت مصر وزير ماليتها اليهودي يوسف قطاوي باشا ، وكان تعيينه تقديراً أدبياً وتكريماً للطائفة اليهودية ، واحتل عدد من اليهود مقاعد في مجلس الشيوخ والنواب .

وتأسست المحافل اليهودية في القاهرة والإسكندرية وعواصم الأقاليم المختلفة ، وساهمت المحافل في مساعدة اليهود اللاجئين ، وكان من أشهرها محفل (ابن ميمون) الذي افتتح في ١٦ يناير سنة ١٨٨٧ ، وظل يمارس ألوان النشاط ، فلما كان عام ١٩٤٤ اختير حاييم وايزمان ، رئيس المنظمة الصهيونية ، رئيساً شرفياً له .. وإلى جوار هذا المحفل الكبير كان محفل (الياهو جنابي) بالاسكندرية ، ومحفل (بناي بريث) بالقاهرة ، ومحفل (ماجن ديفيد) بالمنصورة ، ومحفل (أوهيل) بطنطا ، ومحفل (إسرائيل) ببور سعيد .

وبلغ عدد المعابد في القاهرة ــ خلال النصف الأول من القرن العشرين ــ حوالي ٢٩ معبداً ، وفي الإسكندرية ٢٠ معبداً ، بالإضافة إلى عدد من المعابد في بور سعيد ودمنهور وكفر الزيات وطنطا والزقازيق والمنصورة وميت غمر والمحلة الكبرى .

إلى جانب نشاط المحافل والمعابد في الميادين الثقافية والاجتماعية والسياسية ، تأسست جمعيات كثيرة تمارس مختلف ألوان النشاط ، منها جمعية مصر للدراسات التاريخية اليهودية (١٩٢٥) وكان يرأسها يوسف قطاوي باشا ، والجماعة الفنية اليهودية بالقاهرة (١٩١٢) وجمعية بخور حوليم (١٩٠٩) ، والاتحاد الاسرائيلي بهليوبوليس (١٩٢٢) ، واتحاد الشبيبة اليهودية (١٩٣٥) ، والجمعية الخيرية الإسرائيلية بالاسكندرية (١٨٨٥) والمبرة الإسرائيلية للمساعدات المدرسية للغذاء والكساء (١٨٩٤) وجمعية المكابي الرياضية (١٩١٠) .

●● وفي سنة ١٩١٧ أسست الجالية اليهودية جريدة (النهضة اليهودية) بالفرنسية ، وحلت محلها ـــ بعد خمس سنوات ـــ (المجلة الصهيونية) .. وفي سنة ١٩٢٠ صدرت (مجلة إسرائيل) في ثلاث طبعات ، العبرية والفرنسية والعربية ، وظلت تصدر حتى سنة ١٩٤٠ فلما مات صاحبها سنة ١٩٣٣ تولت زوجته الإشراف عليها ، وكتبت في نوفمبر من نفس العام تستحث يهود مصر على المشاركة في تمويل الصحيفة تقول : (لقد قمنا بنشر الدعوة الصهيونية طيلة هذه المدة ، والتبشير بالمبادىء الصهيونية ، والدفاع عنها ، ورد حملات خصومها عليها ، وكم من مرة لفتنا نظر كبار رجال الصهيونية في الشرق إلى أن وجود جريدة يهودية بلسان عربي في مصر ، تتولى الدفاع عن الصهيونية ، وتنشر الدعوة لها ، فهي على جانب عظيم من الأهمية ، وحذرت اليهود في الشرق ومصر بأنهم إذا لم يبادروا إلى معونة الصحيفة فإنها ستتعطل) وصدرت مجلة (الفجر) بالقاهرة سنة ١٩٢٤ وكان أول صدورها باستانبول سنة ١٩٠٨ ، وتوقفت سنة ١٩١٩ ، لكن محفل بناي بريث شكل لجنة برئاسة سيمون ماني لدعمها مادياً وأدبياً ، واتخذتها عصبة معاداة اللاسامية منبراً لها طوال الأربعينات .. وصدرت مجلة (كاديما) الأسبوعية سنة ١٩٣٥ ، وفي الإسكندرية صدرت (الرسول الصهيوني) بالفرنسية سنة ١٩٠١ ، وفي سنة ١٩١٢ صدرت (مجلة مصر) الإسرائيلية با لفرنسية ، وصدرت مجلة (الشمس) بالعربية سنة ١٩٣٤ وكان لها اتجاه صهيوني بارز ، جاء في عددها الصادر في ١١ يناير ١٩٣٥ نداء يقول :

(إخواني الإسرائيليين .. إن فلسطين تناديكم بأعلى صوتها ، طالبة منكم ـــ أنتم أبناؤها الأبرار ـــ أن تشتروا كل واحد منكم قطعة أرض ، بالنقد أو بالتقسيط ، ذلك بواسطة البنك ، على يد الوكيل الوحيد بالقطر المصري ، مع التسهيلات في الدفع ، وفي زيارة واحدة لمنزله تشهدوا بصدق قولنا وأمانتنا ، فهيا اذهبوا إلى شارع عبد العزيز رقم ١١ شقة رقم ١٨ بالدور الرابع ، عجلوا ولا تتأخروا ، إذ الأراضي يزيد ثمنها من يوم إلي يوم ، والمسألة فرصة عظيمة .

الوكيل الوحيد : إبراهيم يعقوب سبربيل

المقابلة من الساعة ٣٠ر١ إلى الساعة ٣٠ر٣ بعد ظهر كل يوم) .

وصدرت جريدة (المنبر اليهودي) سنة ١٩٣٦ لسان حال الحركة الصهيونية ، تحت إشراف جاك رابان الذي كان يتسم بنشاط وحماسة صهيونية عالية ، وأسهم في الكتابة بمعظم الصحف الصهيونية والأجنبية ذات الميول الصهيونية كالبورص إجبشيان ، وجريدة الأحد ، كما ساهم في إنشاء نقابة الصحيفيين المصرية ، وقد جاء في عدد (المنبر اليهودي) الصادر في ٢٥ مارس ١٩٤٢ بقلم المحامي فيلكس بنزاقين عضو المنظمة الصهيونية الجديدة ، بعد زيارة القدس :

(يايهود مصر ، إن الشعلة عالية على جبل المكبر ، وقد أضاءت روحي ، ويجب أن تضيء أرواحكم .. إن الجامعة العبرية توجه إليكم نداء عاجلًا لمدها بمعونتكم ، فلا تترددوا في تقديم العون لها دون تحفظ ، فأنتم بهذا إنما تقومون بأوجب الواجبات وأعظمها) .

●● وسيطرت على الاقتصاد المصري – خلال الفترة ١٨٩٧ / ١٩٤٧ – عائلات رولو وموصيري وعاداه وعدس وقطاوي وشيكوريل وجاتينيو وجرين ومنشه ومزراحي وغيرها من العائلات اليهودية .

وإذا كان يوسف قطاوي باشا قد تولى وزارة المالية ، فقد كان ابنه أصلان قطاوي بك سكرتيراً عاماً لمصلحة الأملاك الأميرية ، ومندوباً عن مصر في شركة قنال السويس ، ومندوب الحكومة في البنك الأهلي

المصري ، وتولى رئاسة (لجنة مدارس الطائفة اليهودية) وكان عضو المحافل والمؤسسات الدينية اليهودية .. وشغل الابن الثاني رينيه قطاوي بك مناصب في كثير من الشركات ، وكان عضواً بمجلس النواب عن دائرة كوم امبو ، وعضواً بالجمعية الزراعية الملكية ، وعضواً بمجلس الطائفة وبلجنة مدارسها ، كما كان من مؤسسي جمعية مصر للدراسات التاريخيه اليهودية .

وسيطر جوزيف موصيري على معظم دور السينما في القاهرة والإسكندرية والسويس وبور سعيد ، واحتكر استيراد الأفلام الخام وبيعها وطبع الترجمة على الأفلام الأجنبية .

وكان سلفاتور شيكوريل بك رئيساً لمجلس إدارة مؤسسة شيكوريل ، وعضواً بمجلس الغرفة التجارية العبرية ، وعضواً لبعثة الإقتصاد المصرية التي سافرت إلى السودان لفتح مجالات أمام رءوس الأموال المصرية ، كما كان من مؤسسي جماعة أصدقاء الجامعة العبرية .

وفيكتور هراري صار مدير الحسابات المركزية ، ومندوب الحكومة المصرية في لجنه إصلاح ميزانية الأوقاف ، كما كان رئيس الجمعية المصرية للدائرة السنية ، وكان رئيساً وعضواً بمجالس إدارة عدد من البنوك والشركات .

وإدوين جعار كان رئيس جمعية التجار المصدرين بالإسكندرية ، ولجنة بذرة القطن ، ولجنه بورصة مينا البصل ، وفي الوقت نفسه كان نائب رئيس الطائفة الإسرائيلية بالإسكندرية ، وتولى أمانة الصندوق الدولي لحماية المرأة والفتاة لمدة ١٥ سنة .

وفي سنة ١٩٤٢ م ــ حين كان العداء للسامية على أشده ــ كان اليهود في مصر يسهمون في إدارة وتوجيه ١٠٣ شركات من مجموع الشركات البالغ عددها وقتئذ ٣٠٨ ، فضلًا عن الإسهام في إنشاء عدد كبير من المصارف والشركات المالية والائتمانية التي كانت تتولى تقديم القروض ، وبيع وشراء الأوراق المالية والمستندات ، وتتاجر في العقارات والأراضي الزراعية ، وتمول المشروعات الصناعية والتجارية .. وأسهم الرأسماليون اليهود في إنشاء عدد من شركات النقل البري والبحري ، وأسهموا في

الصناعات الزراعية وفي صناعة البناء ، وإنتاج مواده ، واستغلال المحاجر .

وبرز عدد من اليهود في ميادين الهندسة والطب والعلوم والزراعة ، ونالوا شهرة واسعة ، وحصلوا أموالًا وفيرة ، وظل حاخام يهود مصر (دافيد ناحوم) عضواً بالمجمع اللغوي في مصر حتى وفاته سنة ١٩٥٠ .

●● استغل اليهود هذه السماحة المصرية لصالح الأطماع الصهيونية ، فأسست جمعية (بني صهيون) سنة ١٩٠٨ ، التي اندمجت في جمعية (زئير زيون) سنة ١٩٠٩ بالإسكندرية ، وقد شاركت هذه الجمعية بمجهود كبير في تكوين (فرقة راكبي البغال)، وأنشأت مكتباً للاستعلامات ، مهمته توطين اليهود في فلسطين ، والدعوة إلى الهجرة اليهودية ، وتسهيل مهمة المهاجرين ، أثناء مرورهم بمصر إلى فلسطين .

وفي ١٢ أغسطس ١٩١٨ أعلن البارون منشه وجوب تكوين لجنة تعمل على لمّ شمل كافة الجمعيات اليهودية ، من أجل الاهتمام بكل ماله صلة بفلسطين ، وتدعيم الجامعة العبرية في فلسطين ، والمساعدة على توطين اليهود ، وإنشاء المستشفيات والجمعيات الخيرية .. وفي ١٤ أغسطس ١٩١٨ دعت اللجنة حايم وايزمان أثناء مروره بالإسكندرية ، ليلقي كلمة يشرح فيها المتطلبات العاجلة للقضية الصهيونية ، فبين موقف المنظمة العالمية سياسياً واقتصادياً وعقائدياً ، وكشف عن عدم كفاية التنظيمات القائمة على تحقيق الهدف ، وأوضح الوسائل الكفيلة بعلاج ذلك .. وعقب هذا أطلقت اللجنة على نفسها (لجنة المشايعة لفلسطين) ، ودعت إلى الاكتتاب ، فسارع عدد كبير من يهود الاسكندرية إلى التبرع ، وبلغت الاكتتابات الأولى في بضعة أيام ١٠٠١٩ جنيهاً ، وقيمتها اليوم تتجاوز المليون .

وفي نفس الوقت أسس (ليون كاسترو) أول فرع للمنظمة الصهيونية في مصر ، وأصبحت جمعية (زئير زيون) سنة ١٩١٨ فرع المنظمة الصهيونية العالمية في الإسكندرية ، ثم انضم أعضاء (اللجنة المشايعة لفلسطين) ،وأقامت المنظمة فرعاً لها في بور سعيد ، وفي القاهرة اتخذت مقراً لها بشارع أبو السباع (جواد حسني الآن) وأعلنت صراحة أن

هدفها نشر الدعوة الصهيونية بين جماهير اليهود ، والمساعدة على تأسيس الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، وسارع (ليون كاسترو) إلى اصدار (المجلة الصهيونية) سنة ١٩١٨ لتكون لسان خال المنظمة .. وأنشأ فرع المنظمة في مصر ـــ بكل من القاهرة والإسكندرية وبور سعيد ـــ فروعاً للصندوق القومي اليهودي (كيرن كايميت) تجمع تبرعات اليهود لشراء الأراضي في فلسطين ، ويساعد على توطين العمال اليهود بها .

وتأسست سنة ١٩٣٢ الجمعية المصرية لأصدقاء الدراسات العبرية ، برئاسة رودولف شالوم ، لتكوين العناصر القادرة على نشر الثقافة العبرية بين أبناء الطائفة ، وتزويدهم بالفكر الصهيوني .

وأصبحت (المحافل اليهودية) منبراً صريحاً للدعوة الصهيونية ، فيها تنظم اللقاءات ، وتلقى المحاضرات ، وتدبر المؤامرات .

وفي سنة ١٩٤١ تأسست (اللجنة اليهودية للترفيه عن البحارة والجنود والطيارين) لإقامة النوادي الترفيهية للجنود اليهود ، وتقديم المساعدات الدينية والمادية .

وفي أواخر مارس ١٩٤٢ حضر إلى مصر اسحق زيفي ـــ الذي صار رئيساً لجمهورية إسرائيل فيما بعد ـــ وكان وقتئذ رئيساً للمجلس الوطني اليهودي في فلسطين ، وزاره الحاخام الأكبر وكبار أبناء الطائفة ، وعقد اجتماعاً خاصاً مع أعضاء المجلس الأعلى للطائفة برئاسة يوسف قطاوي باشا ، وناقش معهم جوانب المشكلة الفلسطينية ، وبين وجهة نظر المجلس الوطني اليهودي .

وفي سنة ١٩٤٣ قرر ليون كاسترو أن يعيد تشكيل فرع المنظمة الصهيونية ، تحت اسم (الاتحاد الصهيوني المصري) : واتخذ مقراً له رقم ١١٦ شارع عماد الدين ، وعندما انعقدت الجمعية العمومية للاتحاد الصهيوني في ٣ ديسمبر ١٩٤٤ ـــ بعد مقتل اللورد موين ـــ ألقى كاسترو كلمة أكد فيها أن يهود الولايات المتحدة أصبحوا يعترفون بأنه لم يعد هناك ملجأ للشعب اليهودي إلا ما حدده هرتزل ، ووجه نداء ليهود مصر أن يضاعفوا جهودهم من أجل الوصول إلى هذا الهدف .

* * *

بعدما استقال جابوتنسكي من الهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية ـــ يناير ١٩٢٣ ـــ احتجاجاً على سياسة (الكتاب الأبيض) الذي صدر سنة ١٩٢٢ ، متهماً زملاءه في المنظمة بفقدانهم الواقعية السياسية ، لأنهم يسايرون بريطانيا ، مع أنها تُسوّف في تنفيذ وعد بلفور ـــ عاد ألبير ستراسلكي إلى مصر عام ١٩٢٩ ، ليؤسس فرعاً لحزب (التصحيحيين) يبشر بدعوته المتطرفة ، ويحمل لواء المعارضة في صفوف فرع المنظمة الصهيونية بمصر ، وأصدر جريدة سياسية أسبوعية باسم (الصوت اليهودي) بالقاهرة ، واتخذ مقرها منتدى للاجتماعات السياسية الصهيونية .

ولم يمض عام ١٩٣٦ حتى أنشأ (ستراسلسكي) فرعا آخر للمنظمة الجديدة بالإسكندرية ، وفرعاً ثالثاً في بور سعيد ، وشهد عام ١٩٣٧ نشاطاً كبيراً ، على أثر نشر تقرير (لجنة بيل الملكية) بشأن العلاقات العربية اليهودية في فلسطين ، إذ مر جابوتنسكي بالإسكندرية ، واجتمع بأعضاء المنظمة الجديدة ، وعقد مؤتمراً صحفياً بفندق سيسيل في ٥ يولية ١٩٣٧ ، تناول فيه المشكلة الفلسطينية ، وأعلن استنكاره فكرة التقسيم ، وإصرار المنظمة على إقامة دولة يهودية في الحدود التاريخية لإسرائيل ، وضرورة تنظيم الهجرة على نطاق واسع ، وأكد أنه لايمكن الحصول على موافقة العرب إلا بعد إقامة الدولة الصهيونية قسراً وجبراً ، وفرضها على معارضيها .

وافتتح (جاك سيد) مكتباً عقارياً بالإسكندرية ، وكيلًا عن عدد من المؤسسات اليهودية في فلسطين ، في محاولة لتجريد العرب من أراضيهم .

وبعد أن أصبح فرع المنظمة في مصر تابعاً من الناحية التنظيمية لمكتب القدس ، وللتوجيه الشخصي من رئيسه (الثمان) حضر الثمان سنة ١٩٤٢ إلى القاهرة ، وعقد اجتماعاً بمنزل سيمون يانكوفيتش بشارع نوبار باشا ، وناقش المشكلة الفلسطينية ، وخطة المستقبل بالنسبة للوطن القومي اليهودي ، ومصير الجنود بعد تسريحهم من جيوش الحلفاء .. وفي سنة ١٩٤٣ ألقى الثمان ـــ في مكتب الاستعلامات الصهيوني التابع للوكالة اليهودية في الإسكندرية ـــ محاضرة عن مركز اليهود في ألمانيا ودول

البلقان ، مطالباً بالعمل على تحرير اليهود في ألمانيا ودول البلقان ، وجمع آلاف الجنيهات من أثرياء اليهود في مصر .. وفي فبراير ١٩٤٤ عقد التمان مؤتمراً صهيونياً كبيراً في منزل المسيو روسانو بالإسكندرية ،أكد فيه أنه في حالة فشل الصهيونية في الحصول على مطالبهم بالوسائل السلمية فإنهم سيضطرون إلى العنف وحمل السلاح .. وفي ١٩ إبريل ١٩٤٤ اجتمع التمان بجورج جيز باشا وكيل حكمدارية الإسكندرية ، وهدد بأنه إذا لم تستجب الحكومة البريطانية لإنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين — فإن الصهيونيين سيتكفلون بتحقيقها بوسائلهم الخاصة ، وأنه هو شخصياً سيتقدم الصفوف ، ولم يملك جيز إلا أن يقول : إنه لايعنيه إلا الابتعاد بيهود مصر عن التورط في مشاكل اليهود الفلسطينين ، حتى لايؤثر ذلك على علاقتهم بالشعب المصري وحكومته .

ولما كانت تطورات الحرب العالمية في بداية ١٩٤٤ تشير إلى انتصار الحلفاء ، أخذت المنظمة الصهيونية الجديدة تتحرك بدرجة عالية من التنظيم والتكتيك ، لاتخاذ الخطوات الكفيلة بإعلان الوطن القومي اليهودي غداة انتهاء الحرب .

وعمد (ستراسلسكي) إلى إعادة تشكيل فرع الحزب بالقاهرة ، باعتباره قومسييراً عاماً ، وزعيماً للجماعة في مصر ، ودعا إلى اجتماع في مكتبه في ٢٥ يونيه ١٩٤٤ اقترح فيه تكوين هيئة الفرع ، وحرر محضراً بهذا الاجتماع إلى الحاكم العسكري في مصر يطلب موافقته على تكوين الفرع .

وظل النشاط الصهيوني على أشدة حتى مارس ١٩٤٥ ، حين ألقى القبض على روفائيل سادوفسكي ، الذي كان أميناً عاماً للمنظمة الصهيونية الجديدة ، وفي نفس الوقت كان أحد أعضاء الجماعة الإرهابية (شترن) .

وبدأت خيوط التنظيم الصهيوني في مصر تتكشف ، بعد أن اعترف سادوفسكي بأن ستراسلسكي سجل دفاع قاتلي اللورد موين في جلسات المحاكمة — وهو الدفاع الذي منعت الحكومة إذاعته — وأعطاه لأحد ارهابيّ (شترن) بنيامين جبنر ، لتوصيله إلى مركز العصابة في فلسطين .

وظل ستراسلكي ــ بصفته القومسيير العام للجماعة الصهيونية ــ يخاطب السفارات والمفوضيات ورؤساء الجاليات والمحافل الماسونية فترة طويلة ، حتى تم طرده من البلاد في ٢٨ مايو ١٩٤٥ .

* * *

هذا مجمل النشاط اليهودي الصهيوني في مصر ، التي كان يبلغ تعداد اليهود بها ٧٥ ألفاً ، حتى سنة ١٩٥٠ ، فكيف بالمغرب التي كان بها ٢٢٥ ألفاً ، وفي كل من العراق والجزائر ١٢٠ ألفاً ، وفي تونس ١٠٠ ألف ؟!

لقد حصلت الجمعية الصهيونية بالعراق سنة ١٩٢١ على اعتراف قانوني بها من حكومة الانتداب البريطاني ، وكان أهارون ساسون سنة ١٩١٩ قد أسس في بغداد (اللجنة الصهيونية) التي صار لها ١٦ فرعاً في المدن العراقية ، وقامت بتنظيم جماعات شبابية لإعداد المهاجرين ، كما قامت بطبع عدة نشرات شهرية بالعبرية والعربية ، وأسست مكتبة صهيونية ، واعتدت على بعض المعابد اليهودية لحمل اليهود على الهجرة .

وفي سنة ١٩٤٢ تأسست (حركة الرواد البابليين) وأخذت في تعليم الشباب اليهود كيفية استخدام الأسلحة النارية ، وتصنيع المتفجرات ، وكونت جهازاً خطيراً له أسلحته ومجندوه .. وفي سنة ١٩٥٠ ألقت شحنة متفجرات على مقهى يرتاده المثقفون اليهود لحملهم على الهجرة ، كما ألقت قنابل على المركز الإعلامي الأمريكي ، وعلى معبد (ماسودا شيمتوف) لنفس الهدف .

وحصل اتحاد تونس الصهيوني على الاعتراف القانوني من السلطات الفرنسية سنة ١٩٢٢ ، وفي نفس العام قام الصهاينة التونسيون بتنظيم حركة احتجاج على الثورة الفلسطينية ، وطبع الاتحاد الصهيوني منشورات باللغة العربية تم توزيعها على النوادي الصهيونية في جميع أنحاء العالم العربي .

ونظمت اللجان الصهيونية في الجزائر حملات لتجنيد المهاجرين المستوطنين فلسطين ، وأقيم معسكر في الخمسينات لاستقبال المهاجرين ، وبعد العدوان الثلاثي على مصر احتفل يهود الجزائر بالذكرى العاشرة لقيام إسرائيل ، كما احتفلوا سنة ١٩٦٠ بذكرى ميلاد هرتزل .

وقام الشباب اليهودي في المغرب بمظاهرة ارتدوا أثناءها قبعات بيضاء محلاة بنجمة داود الزرقاء ، ورددوا هتافات ضد الرئيس عبد الناصر خلال زيارته المغرب .

وفي سنة ١٩٥٥ قام ٦٣ يهودياً مصرياً ــ بناء على تعليمات إسرائيلية ــ بوضع متفجرات في مكتبة المركز الاعلامي الأمريكي في القاهرة ، وفي منشآت أخرى أمريكية وبريطانية بالقاهرة والإسكندرية ، لتمكين العناصر الاستعمارية في البرلمان البريطاني (من منع إبرام اتفاقية تنص على الجلاء عن قواعد السويس) ولإضعاف وتشويه صورة نظام الحكم الثوري الجديد في مصر ، ولحمل السياسة الأمريكية على اتخاذ موقف معاد له .

ومع هذا زار مصر في أبريل ١٩٥٥ الحاخام اليهودي المربرجر ، المدير التنفيذي للمجلس الأمريكي اليهودي ، فشهد أحسن حال لليهود في مصر ، برغم الصعوبات والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت البلاد تعاني منها ، وقال : إنه كان الأجدر بالأمريكيين أن يأتوا ليروا كيف يعيش ٥٠ ألف يهودى، لهم ارتباطاتهم الإنسانية والوطنية والتقليدية بمصر وتاريخها .

* * *

اليهــود فى أوربا

لم يكن المجتمع المسيحي ليسمح لليهود بالاستقرار ، بسبب سوء الأخلاق اليهودية ، وحرص اليهود على امتصاص عرق الكادحين ، وعزلة اليهود المريبة في (الجيتو)،ولما بين اليهودية والمسيحية من صراع عقائدي ودموى منذ تآمر اليهود على المسيح .

لذلك ما ونيت الإمارات المسيحية في الجنوب والغرب الأوربي عن ملاحقة اليهود ، ومطاردتهم في اتجاه الشرق والغرب .

ويمكن تعليل ظاهرة (الكراهية) والعداء للسامية بالظروف الصعبة التي أحاطت باليهودي في (تيه) سيناء ، وفي أسر بابل ، وفي شوارع روما القيصرية ، حتى أصابه القلق الدائم ، والخوف من المجهول ، والاستعداد للرحيل الذي يمكن أن يفرض عليه في أي لحظة .

وقد أدى الشعور بالقهر والاغتراب وعداء الآخرين إلى انطواء اليهودى على نفسه ، والنمو فى داخله ، أو داخل حارة اليهود ، وألا يؤمن بأى شىء له (قيمة)، بل بكل شىء له ثمن ، لأن (القيمة) ثمرة اجتماعية ، وما له قيمة فى مجتمع قد لا تكون له قيمة فى مجتمع آخر ، أما (الثمن) فهو وسيلة التعامل فى جميع المجتمعات المنفتحة والمنغلقة ، مجتمع السادة ومجتمع اللصوص ، ومن ثم كان تعامل اليهود بالمال ، فى التجارة وفى الربا ، وفى الخمور ، وفى الرقيق ، (كان أغلب تجار الرقيق فى أوربا ـ كما يقول آدم متز ـ من اليهود ، وكان الرقيق يجلب كله تقريباً من الشرق الأوربى ، كما هو الحال اليوم فى تجارة النساء ، ومن الجلى أن استقرار جاليات يهودية فى مدن مقاطعة سكسونيا الشرقية ، مثل مدينة مجديبورج ومرزيبورج، كان راجعاً إلى تجارة الرقيق) ، وكان كل من الأمراء والإقطاعيين يلجئون إلى اليهود فى طلب المال قرضاً بالربا أو غصباً ، ومن هنا صار اليهودى يمثل الوجه القبيح ، مع شدة الحاجة إليه ، مما زاد فى تشويه صورته .

وقد تشارك اليهود قبائلُ (النوَّر) فى بعض سمات الانعزال ، وبخاصة فى

خضوعهم لتقاليد ولغة عرفوا بها ، ولكنها لم تمتص عرق الكادحين ، ولم تعتد على عرض أو تاريخ ، ولم تتحكم فى اقتصاد ، إنها مجرد ظل عابر ، على هامش حياة الآخرين ، وليست جراثيم متحوصلة فى أخطر المواطن حساسية . من أجل هذا كانت المجتمعات الأوربية تضيق باليهود ، وبخاصة إبان الاضطرابات العامة والتحولات الاقتصادية والسياسية .

ومما زاد الأمر سوءاً هذه الشارة الصفراءالتي كانت تميزهم عن المجتمعات التي يعيشون فيها ، وبمعزل منها ، وكانت العاهرات يلبسن هذه الشارة نفسها في كثير من الأحيان ، وكن يمارسن مهنتهن داخل الجيتو كنوع من التجارة .

ولعل للحاخامات دوراً هاماً في هذا الانعزال ، لأن تعاليم الحاخامات التلمودية كانت تكبل حركة اليهودي في طعامه وشرابه ، في بيته ومتجره ومزرعته ومصنعه ، في غدوه ورواحه ، في علاقته بزوجته وأبويه وأولاده وأقربائه ، وبالأغيار ، في علاقته بالله وبالمعبد ، فيما يتعلم ، وفي المدارس التي يتعلم بها ، إنه يتحرك بإشارة الحاخام ، وفي إطار النسيج العنكبوتي الحاخامي .

ثم إن انتظار (الماشيح) الذي يجمع شتات اليهود (المنفيين) ويعود بهم إلى الأرض المقدسة ، ويحطم أعداء إسرائيل ـــ أضعف انتماء اليهود لأي حضارة ، وألغى الإحساس بالانتماء الاجتماعي والتاريخي .

كل هذا ساعد على تغليف اليهودي ، وعلى تعفنه من الداخل ، وعلى نشر رائحة بغيضة في المجتمع من حوله .

ومن هنا صار الجيتو سجناً ، بعد أن كان حصناً ، وكان رد الفعل العنيف منهم ومن المجتمع من حولهم ، لأنهم رأوا في المجتمع سجناً ، ورأي فيهم المجتمع مجرمين ، ومن ثم لم يكن الجيتو يجد متسعاً فيما حوله ، فكان يضيق بساكنيه ، ولم تكن حيلة إلا أن يرتفعوا بالبناء ، وإلا أن تتزاحم الأبنية وتتلاصق ، وتتراكم القاذورات ، والمحن النفسية ، والتجاوزات ، حتى كان قرف اليهود من اليهود .. يقول كلاتزكين : إنهم شعب (قلق ، بلا جذور ، يعيش حياة زائفة وفاسدة)؛ويقول اسرائيل سنجر الكاتب

الصهيوني : إنهم شعب (منحط ، قانط ، يحيا في القذارة) .. ويقول فريشمان : (حياة اليهود حياة كلاب تثير الاشمئزاز) .. ويقول برنر : (غجر ، كلاب قذرة) ويقول شوادرون : (أحط أنواع القذارة ، ديدان وطفيليات بلا جذور) .

وكان لابد أن يفيض هذا كله على ما حولهم ، فيكون الصدام الذي لارحمة معه ، والصدام يدفع إلى الانتقام ، والانتقام يورث الثأر ، وتظل الدائرة تدور .

● ● إبان الحروب الصليبية ، وتأريث الحماسة الدينية ، ذبح عدد كبير من اليهود ، وبخاصة عقب سقوط القدس في أيدي الصليبيين ، إذ يقدر عدد الذين ذبحوا في المدينة المقدسة من المسلمين واليهود سبعين ألفاً ،فضلًا عمن ذبحوا في أنحاء أوربا.

يضيف بعض المؤرخين أن الصليبيين استعدوا لواجبهم (المقدس)خلال مسيرتهم عبر أوربا ، بأن ذبحوا اليهود في كل مدينة مروا بها ، وأحرقوا بيوتهم ، فلما سقطت القدس ساقوا اليهود إلى كنيسهم حيث أحرقوا ، على حين كان اليهود الأوربيون من وراء الحملات الصليبية بالمال وتأريث روح العداء ضد الإسلام والمسلمين ، سواء كان الدافع أصيلاً أو تقة ونفاقاً .

وليت رجال التاريخ يقارنون بين دخول المسلمين القدس في عهد عمر ، ودخول هؤلاء الذين يحملون راية المسيح !!

في سنة ١٢٩٠ م قضى الإنجليز على اليهود جميعاً بالنفي ، وتبعهم في ذلك الفرنسيون ، وسرت العدوى إلى شعوب أوربا الوسطى .. وبلغ الاضطهاد أَشُدَّه في العقد الأخير من القرن الخامس عشر بأسبانيا والبرتغال ، ولم ينج من هذا الاضطهاد الجماعي والملاحقة الشرسة سوى الجماعات الصغيرة في إيطاليا .

كان تصوير الكنيسة لليهود في أبشع صورة ذا أثر كبير ، في إثارة العوام ضد اليهود .

وفي عامي ١٣٤٨ / ١٣٤٩ انتشر الموت الأسود في أوربا ، فاتّهم اليهود

بأنهم سمموا الآبار ومجاري المياه ، فاشتدت حملة القتل والتنكيل والتشريد ، بالرغم من محاولة البابا (كليمنس السادس) الدفاع عن اليهود ، بحجة أن الوباء من الله،وأنه أصاب اليهود كما أصاب غيرهم .

يقول المؤرخ اليهودي الفرنسي جول إيزاك : إنه من المألوف ، إذا طلب طفل يهودي في المدرسة من طفل مسيحي ان يلعب معه — أن يرد عليه الطفل المسيحي قائلًا : كلا ، إنكم قتلتم المسيح .

وهذا يعني أن المسيحيين أرضعوا أبناءهم الكراهية والحقد والرغبة في الثأر من اليهود .

لهذا يروى المؤرخ ذاته أن أسرة مسيحية إيطالية كانت تحذر ابنها بقولها له : إياك أن تعرف سكان الدور الأول — اليهود — أو تدخل شقتهم وإلا خطفوك وذبحوك كما فعلوا بالمسيح .

وقد تفنن الألمان في تعذيب اليهود ، فكانوا يجردونهم من ملابسهم ، ويخزونهم بالشوك ، ثم يسوقونهم جماعات إلى حفر ، يحشرونهم فيها ، ويغطونهم بالحطب ، ويشعلون النار .

وحُرم على المسيحي طعام اليهودي ، ولم يكن يجوز لليهود فتح أبواب مساكنهم ونوافذها ، كما لايجوز لهم السير في الطرقات أيام الأعياد المسيحية ، ويجب على اليهودي أن يغطي رأسه بقبعة مدببة من أعلى ، تمييزاً له .

●● ظل اليهود عرضة للتقتيل والحرق والتشريد ، حتى جاء فريدريش الثالث (١٤٤٠ — ١٤٩٣) فشعر بعبء الضائقة المالية التي تعانيها البلاد ، بسبب القيود التي فرضتها الكنيسة والرأسماليون من المسيحيين ، فأعلن حمايته لليهود ، ومنحهم كثيراً من الأمان ، ولكن ما لبث أن وُجد طفل لم يتجاوز الثانية قتيلًا بإيطاليا سنة ١٤٤٥ واتهم اليهود بقتله ، فانقض المسيحيون عليهم تقتيلًا وتنكيلًا .

وحدث أن مجلس مدينة نورمبرج تقدم في سنة ١٤٧٣ برجاء إلى القيصر فريدريش الثالث أن يطرد جميع اليهود من مدينتهم ، فأهمل القيصر الرجاء ، فلما جاء مكميلان الأول (١٤٩٣ — ١٥١٩) أصدر في يوليه ١٤٩٨ قراراً بإجابة هذه الرغبة ، وطرد اليهود نساءً ورجالًا عن المدينة ، وأخذت

المدن الأخرى تتسابق في التخلص منهم .

وفي ٣١ مارس ١٤٩٣ أصدر فرديناند وإيزابيلا بأسبانيا مرسومهما الشهير الذي يعد بحق وثيقة الوحشية والهمجية ، ففتكوا بالمسلمين واليهود فتكاً ذريعاً ، فهام اليهود على وجوههم ، تاركين وراءهم كل ما يملكون ، وعادوا من حيث أتوا إلى أحضان الإسلام في المشرق العربي .

واستمرت الحملات العدائية بين مد وجزر ، حتى ظهرت في ألمانيا سنة ١٨١٩ جمعية (هب هب) تهاجم اليهود (ملوك العصر) الذين اعتصروا ثروات الشعوب ، وامتصوا دماء الأبرياء .

وفي سنة ١٨٨١ كانت رائحة الدخان تنتشر في البحر الأسود إلى بحر البلطيق ، إذ كانوا يحرقون اليهود ، وبيوتهم ، وكتبهم ، وحددت لهم روسيا مناطق لايخرجون منها ، وألزمتهم الخدمة العسكرية خمسة وعشرين عاماً .

وفي الوقت الذي كان فيه القيصر يضطهد يهود روسيا كان يمالىء يهود بولندا ، ويمنحهم الامتيازات ، على أساس أنهم خطر على الأرض المعادية ، وأنهم أقدر على العمل ضد هذا الشعب الذي يطمع القيصر في اغتصاب أرضه ، مما يؤيد التصور العام للخطر اليهودي ، وعدم ولائهم لمن يعيشون بينهم .

يقول باركس : لقد كان معتقداً أن اليهودي يطلب دم المسيحي لأغراض الطقوس الدينية ، وأنه يسرق أطفال المسيحيين ، ويسمم الآبار ، وينشر الأمراض ، وكان في ذاكرة عامة أوربا أن اليهود يمتصون جهود البلاد الاقتصادية ، ويمثلون الطرف الخبيث الخطر الذي يسعى أبد الدهر لتحطيم المسيحية .

ويقول توينبي : لقد أصدر مجمع طليطلة الكنسي المنعقد بأمر من الملكة إيفيكا سنة ٦٩٤ م (أن جميع اليهود يعتبرون عبيداً لأسيادهم المسيحيين ، وعلى هؤلاء الأسياد أن يمنعوا اليهود من ممارسة أي طقس من الطقوس الدينية ، وتصادر جميع أموال اليهود لصالح خزانة الدولة ، وينتزع منهم أولادهم بعد بلوغهم السابعة من عمرهم ، ويربون تربية مسيحية) .

وهذا يعني أن اليهود كانوا واقعين تحت نير الإدانة على جميع المستويات ، دينياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً .

اليهــود والقــران

مع هذا البون الشاسع بين مالقى اليهود في المجتمع الإسلامي والمجتمع الأوربي ــ فإن طبع اليهود الخبيث أبي إلا أن يكيد للإسلام في مقدساته ما وسعه الكيد .

حاول اليهود تحريف القرآن ، كما حرفوا التوراة والإنجيل ، توصلًا إلى أهداف سياسية دنيئة ، لكن الله صان قرآنه ، بفضل حرص المسلمين على حفظه في الصدور والكتب ، منذ نزول آياته ، وبفضل العناية الكبيرة التي حاطت بالنص القرآني . إقراء وتلاوة ودراسة ، منذ عهد الرسول ﷺ إلى اليوم ، حتى انبثقت عنه معظم العلوم الدينية والعربية ، واتسعت به حضارة كبرى لاتزال تعمل عملها في الحياة الانسانية قاطبة .

وحاولوا تزييف حديث رسول الله ﷺ بافتراء القول على الرسول ، وسيلة لتمييع المفاهيم القرآنية ، وتمزيق وحدة المسلمين ، عن طريق أقوال مفتراة تفضل صحابياً على آخر ، فنهض علماء المسلمين يتحرون الصحيح من الأحاديث ، وينقونها من الأوشاب ، ويبعدون عنها الدخيل ، ولقوا في هذا السبيل ما لقوا من مشاق السفر والاتصال بالرواة العدول ، حتى كانت كتب (الصحاح) وكتب الجرح والتعديل ومعرفة الرحال .

روى عن الإمام البخاري قوله : (حفظت مائتي ألف حديث مكذوبة على رسول الله ، ومائة ألف حديث صحيحة عن رسول الله ، وقد أخذت منها سبعة آلاف حديث فقط ، ورددت الباقي) ، لشبهة في اللفظ أو في المعنى أو في الراوي .

وكان الإمام البخاري لايتلقي إلا بعد أن يصاحب راوي الحديث ،

ليقف على خلقه ومروءته وتدينه ، فإن وجد عنده حدثاً في مروءته أو خلقه أو تدينه انصرف عنه ، ولم يأخذ الحديث .

وما أكثر الإسرائيليات التي تسللت إلى تفسير القرآن ، عن طريق مسلمي اليهود ، بسبب مشاركة القرآن للتوراة في كثير من أخبار السابقين ، لكن ما لبث الوعي الإسلامي أن أدرك هذا الفكر الدخيل ، فنبذه ، وأخذ في تخليص التفسير منه .

وفي السنوات الأخيرة طبعت إسرائيل قرآناً حرفت فيه الآيات التي تتناول اليهود ، على وفق سياستهم الإجرامية ، ووزعته بين شعوب أفريقيا وآسيا وبعض شعوب أوربا .. فنهض العالم الإسلامي كله في وجه هذه المؤامرة الحقيرة بأن :

- أصدر شيخ الأزهر بياناً للعالم كله يندد بهذه الجريمة .
- تم الاتصال بالشعوب الإسلامية ، فجمعت النسخ المحرفة وأحرقت .
- أعدت وزارة الأوقاف المصرية ترجمة دقيقة لمعاني القرآن ، يطلع عليها من شاء من العلماء الأجانب .
- طبعت هيئة الإذاعة المصرية مسجلات صوتية للقرآن الكريم ، لأشهر القراء وأنداهم صوتاً ، ونشرتها بين الإذاعات الإسلامية ، وأنشأت محطة إرسال إذاعة القرآن الكريم طوال النهار وجزءاً كبيراً من الليل .
- قام المجلس الأعلى لرعاية الشئون الإسلامية، بطبع اسطوانات وافرة من المصحف المرتل ، وأهدى نسخة لإذاعات الأقطار الإسلامية .
- قامت (دار القرآن) في مصر بطبع المصحف (تسجيلًا على الاسطوانات والأشرطة والورق) ، وبطبع دراسات قرآنية وتفسير وحديث ، وبإحياء التراث .

وسارت بعض البلاد العربية والإسلامية في هذه الطريق ، مما كشف عن وعي إسلامي قادر على الوقوف في وجه التيارات المعادية .

اليهود والصهيونية

جاء في وثيقة الاستقلال التي أعلنتها إسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨ (أن دولة إسرائيل ستشجع تقدم الدولة ورقيها ، بما فيه صالح كل السكان ، وسيكون أساسها الحرية والعدالة والسلام ، كما جاء في أقوال أنبياء إسرائيل ، وستدعم النظام الاجتماعي والسياسي بالمساواة التامة بين كل المواطنين ، بدون تفرقة بسبب الدين أو العنصر أو الجنس ، وستضمن حرية الأديان والعقائد والتعليم والثقافة ، وستحافظ على الأمن والاستقرار في الأماكن المقدسة لكل الأديان ، وستُخلص في تحقيق أهداف ميثاق الأمم المتحدة) .

وقُبلت إسرائيل في عضوية الأمم المتحدة عام ١٩٤٩ ، بعد أن قطعت على نفسها عهداً بأن تمتثل للقرار رقم ١٩٤ الذي تبنته الجمعية العامة في ديسمبر ١٩٤٨ ، والذي يقضي بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم .

كذلك ، فإن اتفاقية جنيف الرابعة والمتعلقة بمعاملة المدنيين في الأراضي المحتلة ، تمنع إيقاع أية عقوبات جماعية ، فقد نصت المادة ٤٩ من تلك الاتفاقية على أنه لايجوز نقل أو إبعاد الأشخاص من الأراضي المحتلة إلى أي منطقة أخرى ، لأي سبب كان ، كما لايجوز لسلطات الاحتلال أن تنقل أي قسم من سكانها إلى الأراضي المحتلة .

ونصت المادة ٥٣ من الاتفاقية على حَظْر قيام سلطات الاحتلال بتدمير الممتلكات في الأراضي المحتلة ، بأي شكل من الأشكال .

ومع ذلك نتصفح محاضر جلسات الكنيست ، فنجد السيد أسعد قسيس النائب العربي في الكنيست يندد في يوليه ١٩٥٣ بالاستيلاء على أراضي المزارعين العرب ، لصالح مستعمرات الكيبوتز ، والذين بقيت الأرض في أيديهم يصرخون ويستنجدون لتخفيف الضغط الاقتصادي المفروض عليهم .

وفي ١٥ يونية ١٩٦٢ نشرت صحيفة الاتحاد الإسرائيلية أن النائب

الشيوعي أميل حبيبي هاجم في الكنيست سياسة سلب الأراضي من الفلاحين العرب .

ونشرت صحيفة المرصاد الإسرائيلية في ١٢ أكتوبر ١٩٦٢ أن النائب يوسف خميس قدم في الكنيست إلى وزير المعارف استجواباً طالب فيه ببيان الأسباب التي حدت به إلى إقفال مدارس عرب السواعد ، مما يتعارض مع قانون التعليم الإلزامي .

وعمدت دولة إسرائيل — بوسائل مختلفة — إلى القضاء على القومية العربية ، وإذابة العرب في الكيان الإسرائيلي ، أو نبذ العرب عن الكيان الإسرائيلي ، بطريق القتل الجماعي ، والتهجير الجماعي ، والاستيلاء على الأماكن المقدسة ، في القدس والخليل وبيت لحم .. بل وحرق الأماكن المقدسة وتخريبها .

وسنت قوانين ضد الأقلية العربية صاحبة الأرض ، من أجل تضييق الخناق عليها ، واضطرارها إلى الهجرة .

ويلاحظ أن هذه القوانين من جملة التركة التي ورثتها عن حكومة الانتداب البريطانية — (١٩٢٢ / ١٩٤٨) وهذه القوانين وضعت في الأصل لمجابهة المنظمات والأفراد ، يهوداً وعرباً ، ممن كانوا يعارضون الحكم البريطاني .. كانت أولًا لسحق الثورة العربية — (١٩٣٦ — ١٩٣٩) — وجرى تعديلها ، واستخدمت عام ١٩٤٥ ضد المنظمات الإرهابية اليهودية .

هذه القوانين تضم ١٧٠ مادة ، مقسمة إلى ٥٠ فصلًا ، تتركز جميعها على الكيفية التي يمكن بواسطتها التحكم في نشاط السكان العرب في إسرائيل ، وتقضي بفرض القيود علي حرية التنقل داخل البلاد ، وداخل المنطقة الواحدة ، وتخول وزير الدفاع تعيين حكام عسكريين في المناطق التي يختار ، ولهؤلاء العسكريين مطلق الصلاحية لتطبيق جميع القيود ، بالشكل الذي يرونه مناسباً ، وبوسع الحاكم العسكري — بمجرد إصدار أمر إداري — أن يضع أي فرد تحت مراقبة الشرطة ، وأن يحول بينه وبين مباشرة مهنته ، وأن يعتقله بدون إبداء أسباب زمناً غير محدد ، وله أن يبعده

عن البلاد ، وأن يصادر ممتلكاته ، أو ينسف منزله ، إذا ما اشتبه في أن عياراً نارياً أطلق منه .

ويلاحظ أن أحد المحامين اليهود علق في مؤتمر المحامين اليهود المنعقد في تل أبيب سنة ١٩٤٦ على هذه القوانين ، بقوله : (إن هذه الأنظمة والقوانين تناقض المبادىء الأساسية للعدالة والفقة القانوني ، فهي تمنح السلطات الإدارية والعسكرية سلطة إيقاع عقوبات غير قابلة للنقض ، بأي شكل من الأشكال ، إن هذه القوانين تحرم الأفراد جميع حقوقهم ، بينما تمنح السلطة الحاكمة صلاحيات لاحد لها) .

وقال ياكوف شابيرو الذي أصبح وزيراً للعدل بعد ذلك : (إن الوضع الذي نشأ في فلسطين ــ بعد تشريع مجموعة القوانين الدفاعية ليس له مثيل في أي مجتمع متمدين ، إذ لم توجد هذه القوانين حتى في ألمانيا النازية). هذا .. مع أن القوانين ظلت تتطور إلى ما هو أشد خطراً وأعنف جرماً .

وعن طريق هذه القوانين أمكن مصادرة مالا يقل عن مليون دونم من أراضي العرب لصالح اليهود .

قال أحد عرب الجليل : إنهم يستولون على أراضينا ، وعندما نسألهم عن السبب يقولون : لأسباب تتعلق بالأمن ! فإذا قلنا : كيف يمكن أن نكون نحن وأملاكنا ووظائفنا خطراً على الدولة ؟ لايجيبون ، فإذا أنكرنا صمتهم قالوا : إن ذلك لأسباب تتعلق بالأمن .

في سنة ١٩٥٩ أثير جدل حول شرعية القوانين الدفاعية ، وخاصة المادة ١٢٥ المتعلقة بتقييد حرية التنقل ، فأصدرت الجهات المعنية في الدولة بياناً تضمن ما يلي : (في حالة ما إذا أصدر الحاكم العسكري أمراً باعتبار منطقة ما مقفولة ، فهذا الأمر ينطبق من الوجهة النظرية على جميع المواطنين ذكوراً وإناثاً ، سواء كانوا من سكان المنطقة أم لا ، وعلى هذا الأساس فإن أي شخص يدخل أو يغادر منطقة مقفولة ، دون تصريح خطّي ، صادر عن الحاكم العسكري ــ فإنه يعتبر مقترفاً لفعل جرم ، ومن الناحية العملية لايفترض في المواطنين اليهود الحصول على مثل هذه التصاريح ، لذا لايعتبرون مرتكبين لأي فعل جرم ، إذا ما أخلوا بأحكام المادة ١٢٥) .

ولم يقتصر الأمر على هذا التمييز العنصري ، وعلى وسائل الإبادة والتهجير ، فإن اليهود زودوا بمعدات زراعية متقدمة ، وظلت الأموال تتدفق عليهم من أوربا وأمريكا ، فأتاحت لهم استخدام تقنيّات زراعية ، لاقدرة للعرب — الذين فرض عليهم الاستعمار الفقر والجهل — أن ينهضوا لمنافستها .. هذا إلى أن الري توزع مياهه بطريقة ساعدت على زيادة الأرض المروية في القطاع اليهودي — ما بين ١٩٤٨ — ١٩٦٩ — إلى ١٦٤ ألفاً ، بعد أن كانت ٦٩ ألف هكتار ، على حين زادت في القطاع العربي إلى ٤١٠٠ هكتار بعد أن كانت ٢٨٠٠ ، برغم مضاعفة الجهود العربية .

يضاف إلى هذا التفرقة الظالمة في الأجور ،فعند تساوي المؤهلات والجهود يتراوح الفارق بين العامل اليهودي والعامل العربي من ٣٠ إلى ٥٠ في المائة .

ثم إن التضييق في التعليم — كوسيلة للاستعباد والتسخير أو التهجير — يتمثل في قول أورى أوريانى ، مستشار رئيس الوزراء للشئون العربية : (لاريب في أن الأفضل ألا يكون هناك طلاب عرب ، ولكن هناك أشياء لا تتوقف علينا ، ولا نستطيع تجنبها ، وينبغي علينا أن نبحث عن طريقة لتقليل الأضرار) .

فإذا لاحظنا أن ٤٪ فقط من الطلاب المتقدمين لامتحان البكالوريا في إسرائيل يدرسون اللغة العربية كلغة ثانية — عرفنا كيف يعملون على أن يمحوا من أذهان الفلسطينيين أي وجود تراثي أو تاريخي ، فالطلاب العرب يجبرون على دراسة التاريخ اليهودي بصورة أوسع مما يدرسون تاريخهم ، والوقت المخصص لدراسة الكتاب المقدس يبلغ ستة أمثال الوقت المخصص لدراسة القرآن .

ومجمل السياسة الاستعمارية العنصرية القائمة على مبادىء : الأرض عبرية ، والعمل عبري ، والثقافة عبرية ، قد كشف عنه موشى ديان سنة ١٩٦٧ ، حين سئل عن مقدرة إسرائيل على استيعاب السكان العرب في حالة ضم الأراضي المحتلة ، بقوله : (إننا قادرون على ذلك من الناحية الاقتصادية ، لكني أعتقد أن هذا لايتمشى مع خططنا المقبلة .. إن ذلك

يؤدي إلى وجود دولة يهودية مزدوجة القومية ، دولة عربية يهودية ، ونحن نسعى إلى دولة يهودية) .

أي أن الهدف تخليص إسرائيل التي امتدت بامتداد الهزيمة العربية في الخامس من يونية سنة ١٩٦٧ من أي وجود عربي !!

البذور الخبيثة تنمو :

قد نقول إن قيام الدولة الصهيونية ثمرة مشكلات ثلاث واجهت أوربا إبان القرن التاسع عشر :

١ ـــ نمو وتوسع الامبريالية الأوربية ، والعمل علي حماية خطوط المواصلات التجارية والعسكرية .. ودليل هذا حملة نابليون (١٧٩٧ / ١٧٩٩) على مصر والشام ، ووقوف انجلترا في وجه الأسطول الفرنسي ، لأنه يشكل تهديداً في طريق بريطانيا إلى الهند ، ثم خوف أوربا من نشوء دولة مستقلة تضم مصر والمشرق العربي تحت راية محمد علي ، فكان التضامن الأوربي لخنق هذه الدولة الناشئة .

٢ ـــ اقتران فشل الليبرالية الأوربية وأفكار المساواة والديمقراطية في دمج واستيعاب اليهود ، مع أزمة الرأسمالية في أوربا الشرقية ، عقب نشوء النظام الاقتصادي الرأسمالي ، مما نتج عنه فقدان عدد كبير من اليهود مهنهم ، بسبب عجزهم عن التكيف بسهولة مع تغير النظام الاقتصادي الإقطاعي .

٣ ـــ إنتشار النزعة القومية العدوانية التي أكدت على الصفات العنصرية والتفوق القومى والحاجة إلى التوسع عبر البحار ، لزيادة المجال الحيوى ، وتدعيم النفوذ الاستعمارى .

كل ذلك ساعد على خلق فكرة إنشاء دولة تابعة ، يسكنها اليهود في فلسطين ، تكون عائقاً دون وحدة الشعوب العربية ، وتكون عامل امتصاص لقواها .. وقد دعم هذه الفكرة أصحاب الملايين من اليهود الغربيين .

ومن العوامل الثانوية التي روّجت لعودة اليهود إلى فلسطين ذلك الاعتقاد الذي انتشر منذ عصر كروموييل بأن مرور ألف عام على رسالة

المسيح سيضمن إعادة اليهود إلى فلسطين .. ومن ثم كانت الدعوة المسيحية إلى عودة اليهود إلى أرض فلسطين ، حتى يتسنى الإسراع في هدايتهم وتحويلهم إلى المسيحية ، وكان بعض الساسة الأوربيين يرى في عودة اليهود وسيلة لطرد الأتراك من بلاد العرب . .

وأخذت الجريمة طريقها على النحو الآتي :

إبّان حملة نابليون على فلسطين سنة ١٧٩٩ ، وجه القائد الفرنسي نداء لإعادة بناء هيكل القدس ، وعودة اليهود إلى فلسطين .

نشرت (المونتير) الناطقة بلسان الحكومة الفرنسية ـ في الثاني والعشرين من مايو ١٧٩٩ : (لقد أمر نابليون بإصدار منشور يدعو فيه جميع يهود آسيا وأفريقيا إلى الانضمام إلي بيارقه ، من أجل بناء مدينة القدس القديمة ، وقد جند في جيشه عدداً كبيراً منهم ، وها هي كتائبهم تهدد مدينة حلب) .

اتخذ نابليون من دعوة تجميع اليهود وسيلة لتدعيم جيشه ، وتيسير وجوده الاستعماري ، وللتخلص من اليهود المرابين الذين تسلطوا على فلاحي الإلزاس بالرهونات ، مما أدى إلى حرمان اليهودى من الاشتغال بالتجارة إلا بإذن ، وبشرط ألا يمارس الربا ، ولا يقوم بأى أعمال أخرى غير قانونية ، وتحددت إقامة اليهود .

ولم يكن الفرنسيون بدعاً في هذا الموقف ، فالحكومة النمساوية أصدرت براءة التسامح سنة ١٧٨٠ ، فحرمت على اليهود أن يحصلوا على امتيازات جمع الضرائب أو تأجير شيء ، كما حرمت عليهم بيع الخمور ، والسكنى في المناطق الزراعية مالم يعملوا بها ، ومُنعوا من ارتداء أزياء مماثلة ، كما مُنعوا من حق الاشتغال بأي مهنة أو حرفة يختارونها ، وسمح لهم بالاشتغال بالوظائف المدنية والعسكرية ، وبالعمل في الحرف اليدوية ، وبمزاولة تجارة التجزئة ، ومنعوا من تدريس التلمود ، وفتحت أمامهم المدارس والمعاهد العليا ، كل هذا من أجل إدماجهم في المجتمع الأوربي ، وإخراجهم من قوقعة الجيتو ، ومن التقاليد التي اكتسبوها عبر مئات السنين .

وقد حاول قيصر روسيا سنة ١٨٠٤ أن يفرض (دستور اليهود) في محاولة دمج اليهود في المجتمع الروسي ، لكن هذه المحاولات جميعاً لم تكن لتخترق القشرة الصلبة التي غلفت هذا الكيان الانعزالي الواقع تحت سلطان الكهنة والحاخامات ، أو بعبارة أخرى ، كان اليهود مدفوعين بعناصر ذات طبيعة خاصة لرفض هذه المحاولات الإدماجية .

ولما كان القرن التاسع عشر حدثت الهجرة الأوربية الكبرى ، بسبب التطور الصناعي ، وبسبب التنافس الاستعماري من أجل المواد الخام والأسواق الاستهلاكية ، لدرجة أن عدد المهاجرين الأوربيين بلغ في مائة عام ٥٥ مليوناً .

ومن ثم فالهجرة اليهودية لم تكن بسبب الاضطهاد أو العداء للسامية ، في الدرجة الأولى ، وإن كانت هناك عناصر يهودية اصطنعت الأسباب والمواقف ، وروجت لافتراءات ، وتحالفت مع الاستعمار من أجل أهداف محددة .

وعلى هذا يمكن تعليل الموقف البريطاني من (التوجُّهات) الصهيونية الجديدة .

في سنة ١٨٣٨ قرر البريطانيون تعيين مستشار لهم في القدس ، وافتتحوا أول قنصلية في هذه المدينة .

وخلال عشرين عاماً تقريباً وثقت بريطانيا علاقتها باليهود في فلسطين — وكان عددهم حوالي ٩٧٠٠ نسمة — ومع الدروز في لبنان ، ومع الكنائس البروتستانتية حديثة العهد .

ومن ثم ارتبط الوجود البريطاني بتعزيز العلاقة بالأقليات ، إذ يمكن تطويع مآربهم وأطماعهم للأهداف الاستعمارية ، ولهذا أصبحت المصالح اليهودية من المهام الرئيسية للقنصل البريطاني في القدس .

شرح بالمرستون وزير خارجية بريطانيا — في رسالة وجهها إلى السفير البريطاني في القسطنطينية — لماذا ينبغي تشجيع السلطان العثماني هجرة اليهود إلى فلسطين ، بقوله : (إن عودة الشعب اليهودي بموافقة وحماية

ودعوة السلطان سوف تجعله يقف حائلًا دون أية مخططات شيطانية مقبلة لمحمد علي أو لخليفته) ..

استعمل بالمرستون عبارة (الشعب اليهودي) في وقت كان فيه اليهود البارزون أنفسهم يستخدمون عبارة (الجاليات اليهودية) كما استخدم كلمة (عودة) إشارة إلى تاريخ توقف نموه ألفي عام .. ولعل قول إيرل أوف شافتسبري ـــ اليهودي ـــ لبالمرستون : (إن الوزير أرسل من قبل الله لارجاع اليهود إلى فلسطين) يعطي دلاله خاصة ، إذ تذكرنا أن هذا القول كان أثناء حرب انجلترا لمحمد علي سنة ١٨٤٠ .

هذا على حين كان السير موسى مونتفيور ـــ محافظ لندن اليهودي ـــ قد طلب من محمد علي سنة ١٨٢٧ تأسيس شركة ، على (أمل توطين بضعة آلاف من إخوتنا في أرض اسرائيل) .

وكل الطرق توصل إلى (القدس) .

خيوط رفيعة تنمو وتتكاثر لإقامة حاجز بشري ودولة يهودية استيطانية ، يدعمها عدد كبير من الشخصيات البريطانية ، ابتداء من بالمرستون إلى ونستون تشرشل .

وفي ظل شق قناة السويس ، واحتلال بريطانيا قبرص ومصر ، وانتشار النزعة القومية التعصبية في وسط أوربا ، وانتشار معاداة السامية في شرق أوربا ، ثم في غربها ـــ تحركت البذرة في رحم الامبراطورية التي لاتغرب عنها الشمس .

وتحركت منظمات كثيرة تغذي البذرة وترعاها .

من أهم هذه المنظمات : الاتحاد الانجليزي اليهودي ، والجمعية البريطانية والأجنبية للعمل على إعادة الدولة اليهودية في فلسطين ، وجمعية تشجيع الاستيطان اليهودي في فلسطين ، وجمعية تشجيع العمل الزراعي اليهودي في الأراضي المقدسة .

وتأسست (الجويش كرونيكل) لتكون (أداة هامة لنشر فكرة استيطان فلسطين في الأوساط اليهودية) .

وفي عام ١٨٦١ قامت (الجمعية العبرية اللندنية لاستعمار الأراضي المقدسة) بدور بارز ، وأسست مع جمعية (محبو صهيون) بضع مستعمرات يهودية في فلسطين .

ورفعت الجماعات الصهيونية شعاراً مؤداه : (أنه لايمكن ممارسة حياة يهودية صحيحة في أي مجتمع خارج فلسطين) .

وفي أعقاب حرب القرم تجدد الاهتمام ـــ بشكل عام ـــ من أجل مد النفوذ الفرنسي إلى الشرق ، ودعا عدد كبير من كتاب فرنسا لحماية منطقة لبنان المسيحية المستقلة ، وحماية منطقة يهودية مستقلة في فلسطين .

وطن قومي لليهود :

راجت دعوة موريس هيس (١٨١٢ / ١٨٧٥) أن على اليهود أن يتجنبوا الاندماج ، ويؤكدوا تفردهم ، (بإعادة إقامة مركزهم القومي في فلسطين) بسبب ما أصاب اليهود في المجتمعات المسيحية .

ففي سنة ١٨٨١ اغتيل القيصر الروسي اسكندر الثاني ، وتبع ذلك انتشار المذابح المعادية لليهود ، من أجل تحويل نقمة الشعب على الحكم الجائر إلى اليهود .. وقد أدى هذا العدوان إلى هجرة يهودية واسعة إلى أوربا ، فعجلت بانهيار حركة الاندماج [١] ، وحلت محلها حركة (إحياء صهيون) .. فتشكلت في المراكز اليهودية جمعيات أخذت تناقش مسألة توطين اليهود في فلسطين ، كمشروع عاجل يتحقق في المستقبل القريب ، مع بعث اللغة العبرية ، لتكون لسانهم المعبر .

ونهضت عائلة روتشيلد[٢] اليهودية البالغة الثراء بتوفير الدعم المالى من أجل تحويل الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، بدلًا من أوربا ، لتجنب الآثار الوخيمة التي تورث العداء للسامية ، وامتصاص السخط التقليدي على اليهود ، وتحويله إلى عطف وإشفاق ، ولربط اليهود بالمصالح الامبريالية

---

(١) انظر (الإصلاحيون) من الفرق اليهودية .

(٢) يقول هرتزل فى روتشيلد : (إنه أعظم قوة فعالة يمتلكها شعبنا منذ تشرده) .

المتسعة في الشرق الأوسط ، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس .

وكان الزعيم البولندي كاليشير (١٧٩٥ / ١٨٧٤) أول من طلب إلى عميد أسرة روتشيلد في فرنسا أن تعاونه على شراء أرض بالقرب من مدينة حيفا [١] .

وفي عام ١٨٨٢ أقيمت مستعمرة (ريشون ليزيون) بالقرب من يافا .

وفي نفس العام ظهرت في روسيا لأول مرة حركة (حب صهيون chibbath zion) تهدف إلى الهجرة إلى فلسطين ، وتعلم العبرية ، وقد تم الاعتراف بهذه الحركة سنة ١٨٩٠ تحت اسم (جمعية مساعدة الصناع والمزارعين اليهود في سوريا وفلسطين) ، بقيادة ليون بنسكر ، أول من دعا إلى وطن قومي لليهود ، دون التمسك بمكان معين ، ثم جاء أليعازر بن يهوذا ليخرج بهذه النظرية إلى حيز التنفيذ ، فهاجر هو وأسرته إلى فلسطين ، ملتزماً التحدث باللغة العبرية دون غيرها .

وقامت الشركة العالمية اليهودية التي أسسها البارون هيرش سنة ١٨٩١ بإعادة تنظيم المستعمرات التي ينفق عليها البارون إدمون دي روتشيلد بسخاء .

ولم يقف الأمر عند سخاء عائلة روتشيلد ، فقد كان صندوق الجباية الاستعماري اليهودي قد تأسس في انجلترا ، وتلقى في السنة الأولى من إنشائه ربع مليون جنيه ، وكان الصندوق القومي الذي أنشيء لامتلاك الأراضي في فلسطين قد تأسس سنة ١٩٠١ ، كما كانت المستعمرات اليهودية على اتصال بالشخصيات والهيئات اليهودية في جميع أنحاء أوربا وأمريكا .

ولما كانت قضية دريفوس (١٨٩٤) الضابط الفرنسي اليهودي الذي اتهم بالخيانة ورُحّلِ إلى غيانا ـــ سارت المظاهرات المعادية لليهود ، مما دعم موقف المنادين بعدم الاندماج ، ولقد شهد الصحفي النمسوي (تيودور هرتزل) أحداث هذه القضية ، فتحول من داعية إلى امتزاج اليهود بالمجتمع

---

(١) بعد إنشاء إسرائيل أصبحت أسرة روتشيلد تسيطر على ٧٠٪ من البنوك الإسرائيلية ، و ٦٠٪ من صناعة السياحة ، و ٥٠٪ من مزارع الكروم ، وظلت الأسرة قاسما أعظم فى تمويل كل المشروعات الكبرى . ويجب ألا ننسى أن هذه الأسرة قاسم أعظم فى كل شركات البترول العاملة فى البلاد العربية ، فهى صاحبة الفضل فى تدعيم إسرائيل بالمال العربي !!

المسيحي إلى نبي الصهيونية .. فقد رأى أنه إذا كانت فرنسا بلد الحريات يمكن أن تهب عليها عاصفة من هذا النوع ، فمن الممكن أن تتخذ معاداة السامية أشكالًا أشد عنفاً وقسوة في بلاد أوربا .. وأصدر كتابه الشهير (دولة اليهود) سنة ١٨٩٦ ، فأثار اهتمام العناصر النشطة من دعاة الصهيونية في مختلف بلاد العالم الغربي .

ويحكى أن هرتزل عثر ـــ عن طريق الصدفة ـــ على كتاب بعنوان (حوارات جنيف) للماسوني الفرنسي موريس جولي ، كان قد صدر في فرنسا قبل ذلك بثلاثين عاماً ، دون توقيع ، فوجد هرتزل ضالته ، وصار هذا الكتاب شبه المنسي أساساً لسرقة أدبية كبيرة ، فانتحل فيها هرتزل عن موريس جولي البنود الأساسية الثمانية عشر من مؤلفه (الدولة اليهودية) دون تحوير ، بينما أجرى تعديلات طفيفة على أكثر من ثلاثين بنداً آخر [1] .

وتمكن هرتزل من عقد أول مؤتمر صهيوني في بازل (سنة ١٨٩٧) .. وفي خطاب الافتتاح قال : (إننا نضع حجر الأساس في بناء البيت الذي سوف يؤوي الأمة اليهودية) .

واقترح برنامجاً يدعو إلى تشجيع القيام بحركة هجرة منظمة واسعة النطاق إلى فلسطين ، والحصول على اعتراف دولي بشرعية هذا التوطن ، وإنشاء منظمة دائمة لضم صفوف يهود العالم أجمع وراء القضية الصهيونية .

وانتهى المؤتمر بوضع الأسس التي تقوم عليها المنظمة الصهيونية العالمية ، كما وضعت البروتوكلات المشهورة ـــ بروتوكلات حكماء صهيون ـــ التي رسمت الطريق أمام اليهود للسيطرة على العالم .

وانتخب هرتزل رئيساً للحركة الجديدة .

وقد حرص الصهاينة ـــ عند إعلان قراراتهم ـــ على عدم ذكر البلد الذي سينشئون فيه دولتهم ، وسيلة إلى اللعب بأوراق متعددة ، وتلافياً

---

(١) مجلة (آفاق عربية) تشرين الثاني سنة ١٩٧٨ ـ ص ١٠٨ .

للخلافات التي نشأت بين أعضاء المؤتمر .. فلما عرضت عليهم الحكومة البريطانية موطناً في شرق أفريقيا ــ أوغندة ــ سنة ١٩٠٣ رفض المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) هذا العرض وأصبح الإعلان عن فلسطين هدفاً للحركة الصهيونية ومحورها ضرورة عملية ، من أجل استهواء الشعب اليهودي للهجرة ، وليس من أجل هدف ديني ، إذ كان معظم زعماء الصهاينة ملحدين ، أو كانوا أبعد من الالتزام بالتعاليم اليهودية ، لكنهم ما كانوا ليغفلوا أهمية الدور الديني .

قال الدكتور / ناحوم جولدمان في محاضرة له بمدينة مونتريال بكندا سنة ١٩٤٧ :

(لم يختر اليهود فلسطين لمعناها التوراتي والديني بالنسبة لهم ، ولا لأن مياه البحر الميت تعطى بفعل التبخر ما قيمته ثلاثة آلاف مليار دولار من المعادن وأشباه المعادن ، وليس أيضاً لأن مخزون أرض فلسطين من البترول يعادل عشرين مرة مخزون الأمريكتين مجتمعتين ، بل لأن فلسطين هي ملتقي طرق أوربا وآسيا وأفريقيا ، ولأن فلسطين تشكل في الواقع نقطة الارتكاز الحقيقية لكل قوى العالم ، ولأنها المركز الاستراتيجي العسكري للسيطرة على العالم) ، فأكد أهمية المرتكزات الدينية والمادية والسياسية ، ولم ينف واحداً منها .

قد يلاحظ أن قرارات مؤتمر بازل لم تتضمن إشارة إلى الدين اليهودي ، مما يدل بوضوح على أن الجماعة اليهودية قد بدأت تتحول من طائفة دينية إلى حركة سياسية ، أو يغلب عليها الطابع السياسي ، فقد كان الاهتمام بتنظيم اليهود في العالم ، لضمان استمرار القوى المحركة ، من دواعي اللعب بجميع الأوراق ، ومن هنا كان الاهتمام بوضع قواعد لغة عبرية جديدة عامل تدعيم لقيام كيان صهيوني تتوحد فيه جميع الطوائف .

وقد لوحظ أن هرتزل كان يتعمد انتهاك العديد من الشعائر الدينية اليهودية ، حين قام بزيارة (القدس)،كي يؤكد أن رؤيته الصهيونية لا دينية ، أو كي يؤكد للحليف الأول(الإنجليز) أن دورهم الأول في خدمة السياسة البريطانية ، لا في خدمة الدين اليهودي .

وماكس نوردو كان يؤمن بأن التوراة (طفولية بوصفها فلسفة ، ومقززة بوصفها نظاماً أخلاقياً) وحاييم وايزمان كان يتلذذ (بمضايقة الحاخامات بشأن الطعام المباح شرعاً) .

ولا مبرر لهذا كله ـ في ظل الحركة الصهيونية التي تهدف إلى جمع الشمل ، وتستعين بالقوى الدينية ، وسلطان التوراة والتلمود على تشكيل الجماهير ـــ إلا إرسال إشارة ذات دلالة خاصة إلى جهة ذات دور خاص في تأييد أهدافهم ، يدل على هذا أنه في أوائل العشرينات من هذا القرن ، وبعد الحصول على وعد بلفور ، وتأسيس قواعد الهستدروت على (أرض الميعاد)، قامت مجموعة من الرواد الصهاينة بمسيرة تحدوا فيها الشرائع اليهودية الخاصة بالطعام ، حيث ساروا إلى (حائط المبكى في يوم الغفران وهم يقضمون شطائر من لحم الخنزير) ، وليس ما يبرر ذلك من واقع المجتمع (الناشيء) ولا من واقع المسيرة الصهيونية ، التي تهدف إلى احتلال الأرض بأكبر قدر من القوى المتعصبة لدعوي مواثيق إبراهيم ويعقوب والأنبياء المتأخرين .

وقد يقع في الحسبان أنهم يمثلون طائفة متحررة ، لكن هذا لايصدق على تلك المرحلة الأولى في الإعداد للسطو على أرض ليست لهم ، والذي يتابع مسيرة الصهاينة حتى اليوم يثق تماماً من أنهم لايتحركون حركة إلا بحساب دقيق ، ولا يتكلمون كلمة دون أن يعرفوا أبعادها ، وحدود تأثيرها على خططهم ، ومن البدهيات أن اللصوص لايختلفون إلا عند تقسيم الغنائم ، حتى وهم يختلفون لا تعلو أصواتهم حتى لاينبهوا الشرطة ، أو (الفضوليين)، ولأنهم في حاجة إلى استمرار السطو ، واستمرار العمل في (عصابة) .

ملاحظة هامة :

ومن البديهي كذلك ألا يكون اليهود جميعاً صهاينة ، بحُكم اختلاف الموطن واللغة ، ومدى الارتباط بالوطن واللغة ، وبحكم أن الدعوة الجديدة لاتزال في دور (التخلق) محكومة بقدر كبير من المغامرة والتضحية ، قد تولد ميتة ، وقد تستغلها الدول الكبرى ، بدلًا من أن تستغل الدول

الكبرى .. واليهودي بطبعه ، أو بحكم الأحداث التاريخية ، حريص جبان ، بعيد الحذر والأناة ، سيىء الظن .. لهذا كان الكثيرون ضد هذا الاتجاه ، أو ضد المسارعة إلى تأييده ، وإن كانوا لايعلنون معاداته ، خوفاً من التهديدات بالعدوان على الأنفس والأموال .

لكن قبل أن تظهر للصهيونية شوكة ، وقبل أن تتبلور لها زعامة قادرة على الحركة ، رفض الجناح الإصلاحي هذه الدعوة ، وقرر مؤتمر الحاخامات في فرانكفورت (٥ / ٢٨ يولية ١٨٦٩) أن يرفع من الطقوس (الصلوات من أجل العودة إلى أرض الآباء ، ومن أجل استعادة الدولة اليهودية) .

وأقر مؤتمر فيلادلفيا (٣ / ٦ نوفمبر ١٩٦٩) أن (الهدف الإلهي لإسرائيل ليس هو استعادة الدولة اليهودية القديمة ، تحت حكم أحد خلفاء داود ، وهو ما يستلزم أن ينفصل اليهود للمرة الثانية عن أمم الأرض ، وإنما الهدف هو اتحاد جميع أبناء الله في الاعتراف بوحدة الله ، بما يحقق وحدة جميع المخلوقات العاقلة ، ودعوتهم إلى القداسة الروحية) .

وأكد مؤتمر لنسبرج (١٦ / ١٨ نوفمبر ١٨٨٥) : (نحن لانعتبر أنفسنا من الآن أمة ، وإنما نحن مجتمع ديني ، ولهذا لانقبل العودة إلى فلسطين ، ولا التعبد بالقرابين وراء أبناء هارون ، ولا استعادة أي من القوانين الخاصة بالدولة اليهودية) .

وظهر احتجاج في (الجريدة الألمانية) لليهود ، في ١٦ يولية ١٨٩٧ ، ممهوراً بتوقيع مجلس الحاخامات ، جاء فيه : (إن محاولات الصهاينة لإرساء أساس دولة يهودية في فلسطين تتعارض مع الدعوة اليهودية ، كما وردت في الكتاب المقدس ، وفي الوثائق الدينية بعد ذلك).

واتخذت المنظمتان اليهوديتان الرئيسيتان في انجلترا مواقف مماثلة .

وأعرب المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكان عن معارضته للتفسير الصهيوني لليهودية ، على أنه انتماء قومي ، وعارض حاخام (فينا) مسقط رأس هرتزل ، فكرة إنشاء دولة يهودية (لأنها فكرة معادية للسامية ، تُرجع كل شيء إلى العرق والقومية) .

وانتقد لوري ماجنس بعنف الدعوة الصهيونية بقوله في (لندن سنة ١٩٠٥) :

(إن الدكتور هرتزل ومن يقفون إلى جانبه خونة للتاريخ اليهودي الذي قرءوه وفهموه بطريقة خاطئة ، وهم أنفسهم جزء من صانعي سياسة العداء للسامية التي يعترفون بأنهم يذبحونها ، إذ كيف تستطيع البلاد الأوربية التي يعتزم اليهود تركها أن تبرر استبقاء اليهود ؟ ولماذا بذل اليهود جهوداً شاقة لكسب المساواة الدينية ، إذ كانوا هم أنفسهم أول من سيتخلون عن مكانهم ، ويكتفون بكرم الضيافة) ؟

قد يترتب على هذا الموقف ـ كما يقول بيجر (برلين ١٩٠٥) ـ سَحْب الحقوق المدنية (الذى يلزم أن يتخذه التشريع الألمانى ضد الصهيونية ، ويكون الرد الوحيد الذى يمكن أن يصدر عن الضمير القومى الألمانى) .

وكتب (أشاد هاعام) سنة ١٨٩٧ : (أن اليهودية لاتحتاج في الوقت الحاضر إلا الشيء القليل ، إنها لاتحتاج إلى دولة مستقلة ، بل إلى خلق ظروف في أوطانها الحالية ملائمة لتطورها فحسب ، إنها تحتاج إلى محلة ذات حجم لابأس به ، يعمل فيها اليهود في كل فرع من فروع المعرفة ، ابتداء من الزراعة والمهن اليدوية ، حتى العلوم والآداب ، دون أن تقف في طريقهم أية عوائق) .

وفي سنة ١٩٢٠ كتب (أشاد هاعام) (لقد تجاهلنا دائماً الشعب العربي ، ومنذ بداية البداية) .

أما وزير الهند (مونتاجو) وهو الوزير اليهودي الوحيد في الحكومة البريطانية ، فقد قدم مذكرة عنيفة يهاجم فيها ما قررته حكومة انجلترا من إصدار وعد بلفور ، جاء فيها :

(لقد بدت الصهونية لي دائماً عقيدة سياسية لايمكن أن يؤمن بها أي مواطن مخلص للملكة المتحدة ، ذلك أن اليهودي الإنجليزي الذي يتطلع إلى جبل الزيتون ، ويتوق إلى اليوم الذي يستطيع فيه أن ينفض عن حذائه التراب البريطاني ، ويعود إلى نشاطه الزراعي في فلسطين ـــ إنما يعترف بذلك أنه لايصلح للاشتراك في الحياة العامة في بريطانيا العظمى) .

(إنني أحب هنا أن أؤكد أربعة مبادىء :

١ ــ لاتوجد أمة يهودية ، إن أفراد أسرتي مثلًا الذين عاشوا في هذا البلد عدة أجيال لايربطهم بأي أسرة يهودية في أي بلد آخر أي اتفاق في رأي أو رغبة ، ولايجمعهم بها أي شيء أكثر من كونهم يعتنقون ــ بدرجة متفاوتة ــ نفس الديانة ، ولا يصح القول بأن اليهودي الإنجليزي واليهودي المغربي ينتميان لأمة واحدة ، أو ربما لجنس واحد .

٢ ـ إذا قيل لليهود إن فلسطين هى وطنهم القومى ، فإن كل دولة أخرى سوف تتجه فوراً إلى التخلص من مواطنيها اليهود ، وبذلك سوف نجد فى فلسطين عدداً ضخماً من السكان يقومون بطرد أهلها الحاليين ويأخذون أحسن ما فى البلد .

إننى أجد دافعاً قوياً لتحريم المنظمة الصهيونية ، باعتبارها غير قانونية وضارة بالمصالح الإنجليزية .

٣ ـ إننى لا أعترف بأن فلسطين اليوم مرتبطة باليهود ، أو أنها مكان ملائم كي يعيشوا فيه ، حقاً إن فلسطين تلعب دوراً كبيراً فى التاريخ اليهودى ، لكن الأمر كذلك بالنسبة للتاريخ الإسلامى الحديث ، وقد أصبحت فلسطين بعد عهد اليهود تلعب دوراً أكبر من أى دولة أخرى فى التاريخ المسيحى ، قد يكون المعبد اليهودى موجوداً فى فلسطين ، لكن موعظة الجبل وصلب المسيح قد حدثا هناك أيضاً .

وإذا كانت ذاكرتي لا تخونني ، فإن تعداد اليهود في العالم يبلغ ثلاثة أضعاف العدد الذي تستطيع فلسطين استيعابه ، إن جميع اليهود في شتى أنحاء العالم سيصبحون ـ فى حالة إقامة الوطن القومي في فلسطين ــ يهوداً أجانب) .

لاشك في أن هذه المذكرة الطويلة صدرت عن إحساس يهودي عميق بالخوف من الآثار التي يمكن أن يحدثها رد الفعل المباشر على السلطات الأوربية ، وعلى الجماهير المسيحية والإسلامية ، مما يفيد أن الوزير كان بعيداً عن مجرى الأحداث ، ولم يكن على علم بالتيارات التي صارت تعمل

في دأب لتصل إلى الأعماق البعيدة ، ولتحرك السطح في صورة دوامات غريبة .رهيبة ، لاتلبث أن تأخذ بالعيون الغافلة ، وبالقلوب الخاملة ، حتى يأتي اليوم الذي تقول فيه جولدا مائير :

(إن اليهودي الانجليزي الذي ينشد ـ بحكم انجليزيته ـ نشيد « حفظ الله الملكة » كيف يمكن أن يكون في نفس الوقت صهيونياً) ؟

إنها تعلن في صراحة ووقاحة أن ولاء اليهودي يجب أن يكون لإسرائيل ، وإن كان يعيش في أرض غير إسرائيلية .

يقول المؤرخ الإنجليزي سيسيل روث : (إن الحركة الصهونية قد رفعت فوق رءوس اليهود الإنجليز عصا غليظة من التهديد ، الذي لايمكن معه التخلص منه أحياناً إلا بكتابة شيك على أحد البنوك تبرعاً لإسرائيل) .

(إن اليهود في كل دولة أصبحوا لايشاركون في أي مسألة تهم البلاد التي يحملون جنسيتها إلا إذا كانت هذه المسألة تتصل بإسرائيل ، وهذا يهدد بعزلهم في المدى الطويل) .

وهو ما ذهب إليه (مونتاجو) .

ويقول سان بارون أستاذ التاريخ اليهودي في جامعة كولومبيا بأمريكا :

(إن بعض الصهيونيين يركزون على القول بأن موجة معاداة السامية يمكن أن تهب في أي وقت ، لأن هذا الخطر هو الدافع الوحيد الذي يجعل الشباب اليهودي يهاجر إلى إسرائيل ، ولكنني أقول لهم : إن هذا غير صحيح ، فالهجرات الجماعية ، تاريخياً ، لاتقع إلا تحت تأثير ضغط سياسي أو اقتصادي عنيف واقع بالفعل ، ولهذا فإن كلام بن جوريون عن مليون أو مليونين من المهاجرين ، ينتظرهم في إسرائيل ، خطأ تماماً ، يضاف إلى ذلك أن نزعة معاداة السامية تختفي وتتلاشى بالفعل) .

وهذا قول محدود الرؤية بحدود الأسباب القريبة ، لأن للصهاينة وسائلهم التي تحرك الرياح كما يشتهون ، لأنهم لايتورعون عن كل الدنايا من أجل تحقيق أهدافهم ، كما سنرى من تآمرهم مع النازية ضد يهود أوربا ، من أجل حملهم على الهجرة ، ثم إن الدول التي يقيم فيها اليهود وجدوها فرصة

للتخلص منهم ، وللكيد للإسلام والمسلمين ، يستوي في هذا الاشتراكيون والرأسماليون ، الإمبرياليون والديمقراطيون ، ولم تكن حركة (المعارضة) للدولة اليهودية إلا عملا (تكتيكياً) مرحلياً ، أو كان خوفاً من أن تدور باليهود دائرة السوء التي تكرر حدوثها في أوربا ، شرقية وغربية ، دون إدراك لما كان يدور في الخفاء مع قيادات انجليزية وفرنسية وأمريكية .

* * *

في مدينة يافا (حزيران ١٩١٧) خطب رئيس المجمع السنوى للمؤتمر المركزي للربانيين الأمريكيين يقول :

(ماجئت هنا لأتشاجر مع الصهيونية ، إن في نيتي فقط أن أعلن أننا — كربانيين وقفوا أنفسهم على خدمة الرب ، ومنوط بشفاههم أن تحرس المعرفة ، ومن أفواههم ينبغي على الشعب أن يطلب القانون ، لأننا رسل رب الجنود — لامكان لنا في حركة يتكتل بها اليهود على أسس عنصرية أو قومية ، من أجل دولة سياسية ، أو حتى من أجل وطن مكفول قانوناً .. إن على عاتقنا يقع الالتزام بحمل هذه الفكرة الرئيسية التي أولاها اليهود ، منذ خلق الطاعة والإيمان ، وترديدها على الدوام ، وبلا كلال ، وإن إسرائيل الدينية التي أجازها التاريخ وقبلها ، ينبغي ألا يُضحَّى بها على مذبح إسرائيل العنصرية البحتة ، التي أوجدتها المخططات الدنيوية المعاصرة ، وإذا ما ضحى بها فإن المطالب الدينية ليهود عصرنا — ناهيك عن الاعتبارات الأخرى — لايمكن أن تشبع) .

هذا بينما كانت السياسة الأمريكية تعمل جاهدة من أجل إصدار وعد بلفور بتأييد خاص من الرئيس ويلسون .

وفي سنة ١٩١٨ قال أينشتين : (إن الطبيعة الأصلية اليهودية تتعارض مع فكرة إنشاء دولة يهودية بحدود وجيش وسلطة زمنية) ، لأن (اليهود الآن ليسوا هم اليهود الذين عاشوا في فترة المكابيين) .

كأنما يقصد إلى عدم القدرة على التضحية التي تمثلت في مواجهة المكابيين للقسوة الرومانية ، فهل كان يتوقع مجابهة عربية إسلامية تستدعي

مزيداً من التضحية اليهودية ، أو كان يرى أن الهجرة إلى أرض فلسطين سيحرم اليهود من الثروات الطائلة التي يحققونها من التعامل مع الشعوب التي يقيمون بينها ، ونسي العالم اليهودي الكبير أن الصهاينة أحرص على مصادر التمويل لقيام دولتهم ، فملوك المال والصناعة والإعلام لم يهاجروا إلى إسرائيل ، ولايزالون يمكنون لأنفسهم وللقادرين من اليهود في أرض (الشتات) ، أما الفلاحون والعمال والجنود فهم بناة إسرائيل .. وأكثرهم ممن ضاقت بهم الحيلة في شرق أوربا وغربها ، ومن أولئك الذين نزحوا من الدول (المتخلفة) النامية ..

وإذا كان هذا رأي آينشتين فإنه لم يكف عن تأييد الحركة الصهيونية ، بل إنه رشح لأكبر مناصبها القيادية ، وإن اعتذر بشواغله العلمية .

ومع هذا كله ، فلا تزال في إسرائيل إلى اليوم طوائف-ربانيةوغيرربانية- غير راضية عن (جريمة) الوجود الإسرائيلي . بحجة أن هذا الوجود تم عن غير طريق المسيح المنتظر ، فهو وجود غير شرعي ، لأن من الواجب انتظار هذا المسيح الذي على يديه تتحقق مملكة الرب ، أو بدعوى أنهم يرون التعايش السلمي مع العرب ، أصحاب الحق الشرعي .

نرى جماعة (الناتورى، كارتا) تحمل على الصهاينة العلمانيين اللادينيين العنصريين أعداء السامية حلفاء النازيين ، وتقول : إن الشعب اليهودي أساساً جماعة دينية ظهرت إلى الوجود منذ ثلاثة آلاف عام ، يستمد وجوده من ميثاقه مع الخالق ، يقوم على خدمته وعلى خدمة الجنس البشري (؟!) فهو ليس شعباً بالمعنى السياسي ، وليس عنصراً مستقلاً ، إنه شعب الله المختار ، لأنه أكثر الناس تواضعاً (؟!) لا لأنه شعب متعجرف ، أو جماعة منتصرة ، وأمن اليهود يكمن في إمكانية التصالح مع الدول التي يعيشون بين ظهرانيها ، كما قال النبي أرميا : (لنسع إلى ما فيه خير المدينة) ، أي البلد الذي نعيش فيه ، ولا تزال هذه الجماعة تدعو إلى إسقاط دولة إسرائيل ، وإقامة دولة فلسطين ، وتدويل القدس ، وتعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية .

ووجود هذه الجماعة في (إسرائيل) تعويذة الديمقراطية الإسرائيلية ، أو ضرورة الحياة الاجتماعية ، أو هي رد فعل المذابح والشناعات التي ارتكبها الصهاينة في حق أصحاب الأرض .

أمّا ما كان من شأن جماعة (أجودات إسرائيل) التي تأسست في بولندا سنة ١٩٢٢ مناهضة الاتجاهات الصهيونية ، على أساس أن في تعاليم التوراة حل مشاكل اليهود واليهودية ، فما لبثت (الهاجاناه) أن قتلت زعيمها الحاخام دي هان سنة ١٩٢٤ ، ونجحت الحركة الصهيونية في احتوائها بعد سنة ١٩٤٨ .

ولا ريب في أن ماحققه الصهاينة من انتصارات على الأرض العربية بعد سنة ١٩٤٨ شجع اليهود في كل مكان على تأييد (الحقوق المكتسبة) على أرض (إسرائيل)؛وصارت حكومات كثيرة تجاهر بتأييد الجرائم التي تقترفها إسرائيل مهما بلغت فداحتها ، في المحافل الدولية .

وجاء اليوم الذي قال فيه (أري تاتا كودار) أستاذ علم الاجتماع في الجامعة العبرية :

(إن اليهودي حقاً هو من يشعر بأن هناك مشكلة يهودية ، حتى لو عاش بمفرده في جزيرة نائية) .

وهذا أكبر كسب حققته الصهيونية .

أما ما ادعاه إيمانويل ليفين ـــ الحاخام الفرنسى المعاصر ـــ من (أن كياني يزدهر ويتضح بتعاطفي وتضامني مع عرب فلسطين ، وبمعارضتي الكاملة والمطلقة لدولة إسرائيل ، والصهيونية التي تحمل في مبادئها المظالم والجرائم التي نعيشها كشهود عاجزين ، وما كانت دولة إسرائيل تستطيع أن تقوم دون ارتكاب هذه الجرائم) ـــ فقد يكون مجرد مفكر فرنسي استهواه الإعلان عن الواجهة الفرنسية ، تحت شعار الحرية والإخاء والمساواة ، وقد يكون مفكراً يهودياً يلعب في سوق الأفكار كما يلعب غيره في سوق المال .

في سبيل الحصول على حليف قوي :

١ ـــ لما كانت فلسطين جزءاً من المملكة العثمانية ، فقد تكررت محاولات إغراء السلطان عبد الحميد (بسداد جميع الديون المستحقة على الدولة العثمانية ، وبناء أسطول لحماية الامبراطورية ، وتقديم قرض بخمسة وثلاثين مليون ليرة ذهبية ، دون فائدة ، لإنعاش مالية الدولة وإنماء مزارعها ، وإنشاء جامعة استانبول ، حتى لايحتاج الطلبة الأتراك إلى السفر

إلى أوربا ، فيتعرضوا لتأثير الأفكار الديمقراطية الثورية الضارة ، مقابل السماح بدخول اليهود إلى فلسطين ، بقصد زيارة الأماكن المقدسة ، وبإنشاء مستعمرة قرب (القدس) .

وحاول اللورد بالمرستون ، وزير خارجية بريطانيا سنة ١٨٤٠ إغراء السطان بأنه (إذا عاد أفراد الشعب اليهودي إلى فلسطين تحت حماية السلطان العثماني ، وبناء على دعوة منه ، فإنهم سيقومون بكبح جماح أي مخططات شريرة قد يدبرها محمد علي أو من سيخلفه في المستقبل) .

وبهذا كشف الوزير البريطاني طبيعة الوجود اليهودي في أرض فلسطين ، فكيف لشرذمة مهاجرة أن (تكبح جماح) جيش مصر الحديث ؟ ألا يكفي هذا حتى يتنبه السلطان لخطر التسلل إلى فلسطين ؟

لقد أصدر السلطان أمراً إلى (رءوف باشا) متصرف القدس ، (ليقوم بالتحري عن اليهود في فلسطين ، ولاسيما في القدس الشرقية ، ولا يبقي في الأرض المقدسة أحداً من الطائفة اليهودية ، غير الذين قدموا إليها بقصد الزيارة العابرة ، وألا يسمح لهؤلاء بالمكوث فيها إلا بمقدار الزمن المحدد لهذه الزيارة) .

وأصدر الباب العالي سنة ١٨٨٨ فرماناً يقضي بمنع أية هجرة جماعية يهودية إلى أراضي الدولة العثمانية ، ولايسمح للحجاج اليهود بقضاء أكثر من ثلاثة أشهر في فلسطين .

ومن ثم تآمر اليهود ضد السلطان ، عن طريق (جمعية الاتحاد والترقي) التي كانت خاضعة لتأثير (الماسونية) حتى تم خلع السلطان سنة ١٩٠٩ ، وكان (كراسو) اليهودي أحد الثلاثة الذين أعلنوا السلطان بقرار الخلع !!

ثم ألب اليهود بلاد البلقان باسم (القومية) وجرّوا تركيا إلى حرب (استعمارية) لاغاية لها إلا تجريد تركيا من الخلافة الإسلامية ، بكل ما تعطيه الخلافة من امتدادات(١)

والملاحظ أنه بين عامي ١٩٠٥ / ١٩١٤ كان التوطن اليهودي في فلسطين يتزايد في صمت وإلحاح ، حتى وصل عدد المستوطنين الجدد إلى

---

(١) نشرت مجلة (العربي)- عدد يناير ١٩٨٨ - قائمة بأسماء المستوطنات التى أنشأها اليهود فى أرض فلسطين ، إبان حكم السلطان عبد الحميد ، وذكرت تواريخ إنشائها ، ما بين ١٨٧٨ و١٩٠٩ ، فبلغ عددها ثلاثين مستعمرة ، بالإضافة إلى مدينة تل أفيف - يافو التى تأسست سنة ١٩٠٨ !!

١٢ ألفاً ، يعيشون في تسع وخمسين مستعمرة [١] .

وبينما نجد الوالي العثماني أحمد جمال باشا يصدر في يناير ١٩١٥ أمراً بتحريم نشاط العناصر الهدامة التي تسعى لإنشاء حكومة صهيونية في فلسطين ، ويأمر بإغلاق البنك الانجليزي الصهيوني ، ويحل هيئة (حراس هاشومير) ويحرم الكتابة بالعبرية على لافتات الحوانيت والشوارع ، ويهدد بإعدام من تسول له نفسه أن يلصق طابع بريد صهيوني على خطاب ـــ إذ بنا نـجد الأمر ينتهي في ٢٣ يناير ١٩١٨ إلى إذاعة الراديو الألماني تصريحاً لطلعت باشا ، نقله مراسل جريدة نوسيش رايتونج في استانبول ـــ قال فيه : (إن وعد مستر بلفور هو أكذوبة) ثم أخذ يعدّد التنازلات التي تعرضها الحكومة التركية على الحركة الصهيونية ، وفي مقدمتها : قبول مبدأ الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، في حدود إمكانيات البلاد ، ومنح الحكم الذاتي لكل تجمع يهودي أكثر من خمسة آلاف نسمة .

ويُذكر أن طلعت باشا قضى في برلين بعض الوقت لبحث المسألة الصهيونية ، ثم طلب من عمانويل قره سو (كراسو) ـــ زعيم يهود سالونيك ـــ المجيء إلى برلين ، وفوض إليه معالجة المسألة اليهودية ، مع تأكيدات بقبول الحكومتين الألمانية والتركية السياسة التي يوصى بها ، فجمع (كراسو) ٢٤ زعيماً يهودياً ألفوا لجنة أوصت بإقامة شركة من جميع يهود تركيا ، مصرح بها من جانب البرلمان ، يكون مقرها استانبول ، ولها (السلطة في منح الحكم الذاتي للمناطق التي يسكنها اليهود ، ليس في فلسطين فقط ، بل في أي مكان من الإمبراطورية التركية ، ويكون لهذه المناطق السلطات الكاملة على الضرائب والشرطة والمؤسسات البلدية) .

---

(١) بلغ عدد اليهود فى فلسطين سنة ١٨٨٠ ـ ٢٥ ألفا ، من مجموع سكانها البالغ ٥٠٠ ألف ، وعقب المذابح الروسية بلغ عدد اليهود فى فلسطين بين عامى ١٩١٧/١٨٨٣ حوالى ٥٠ ألفا ، وبسبب سياسة هتلر المناهضة لليهود بلغ عدد اليهود فى فلسطين حتى سنة ١٩٤٥ ـ ٤٠٠ ألف ، وعشية إنشاء دولة إسرائيل سنة ١٩٤٧ كان هناك ٦٠٠ ألف من مجموع السكان البالغ مليونا و ٢٥٠ ألفا .

وبدأت عملية نزع الفلسطينيين من أرضهم ، حتى صار كل ما تبقى من العرب سنة ١٩٤٩ ـ ٤٥٠ ألفا .

وقد كشفت الرابطة الإسرائيلية لحقوق الإنسان أن أكثر من ٢٠٠ ألف بيت عربى قد نسف فى إسرائيل والضفة الغربية ، خلال الفترة من ١١ /٦/١٩٦٧ إلى ١٩٦٩/١١/١٥ .

إنهم يعملون جادين من أجل استئصال الجذور العربية ، ونحن نعمل جادين من أجل إهدار الدماء العربية !!

(وقد وافق طلعت باشا على المشروع ، ووعد بإدراجه في شروط الصلح) .

وبهذا تكون الحركة الصهيونية قد نجحت في استغلال الطرفين المتحاربين .

●● في هذا الوقت أدلى فؤاد الخطيب وكيل خارجية الحجاز - الفلسطيني الأصل - بتصريح قال فيه : (إننا لانتوقع أي صعوبة مع اليهود ، لأننا الآن يفهم بعضنا بعضاً) !!

وفي ٣ يناير ١٩١٩ حصل وايزمان على اتفاق مع فيصل بن الشريف حسين أمير مكة ، يعترف فيه بوعد بلفور ، ويعد بأحسن العلاقات بين الدول العربية التي ستنشأ في الشرق وبين فلسطين .. وبعد شهرين من الاتفاق عزز فيصل موقفه بخطاب أكد فيه هذا المعنى ، وأرسله إلى القاضي الصهيوني الأمريكي (فليكس فرانكفورتر) عضو الوفد الصهيوني إلى مؤتمر فرساي بفرنسا [١] .

وينبغي ملاحظة أنه عقب سقوط القدس في أيدي (الحلفاء) استقبلت وزارة الحرب البريطانية وفداً برئاسة اللورد روتشيلد لتهنئة الحكومة بالاستيلاء على القدس ، نيابة عن ممثلي الحركة الصهيونية ، كما استقبلت وفداً عربياً برئاسة الكونت زغيب ، يمثل الفسطينين والسوريين العرب ، مسلمين ومسيحيين ، مهنئاً بهذه المناسبة السعيدة !!

٢ ــ حاول هرتزل ربط هذا الكيان المختلق بالمصالح الأوربية ، وقال : (إنه لمن مصلحة الأمم المتمدنة أكثر فأكثر ، ومن مصلحة المدنية بشكل عام ، أن تؤسس محطة حضارية عبر أقصر طريق لآسيا .. إن فلسطين هي تلك المحطة ، ونحن اليهود حملة الحضارة مستعدون لبذل أملاكنا وأرواحنا من أجل تكوينها) .

وفي هذا السبيل عرض هرتزل على فكتور إيمانويل الثالث ــ ملك إيطاليا ــ مشروعه الخاص (بتوجيه الفائض من الهجرة اليهودية) إلى ليبيا ،

---

(١) قد يمكن القول إن تصريحات طلعت باشا وفؤاد الخطيب وفيصل ارتبطت بتكتيكات سياسية خاضعة للظروف الصعبة التى كانت البلاد تمر بها ، وليست وعودا ملزمة ، كما يمكن القول إن هذه الأخبار مرت بمصانع الأخبار اليهودية قبل أن تصلنا .

تحت رعاية إيطاليا .. لكن الملك لم يأخذ كلام هرتزل على محمل الجد ، ورد عليه ببرود ، مبيناً أن المشروع الصهيونى (يعنى البناء فى منزل شخص آخر) .

وأوضح هرتزل لتشمبرلن ولوزير الخارجية لورد لانسدون أن الامبراطورية البريطانية عندما ترعى المساعى الصهيونية لا تكسب مستعمرة غنية فحسب ، بل أيضاً عشرة ملايين يهودى ، يتوجهون إلى انجلترا بقلوبهم .. إنها إذا هى قامت بعمل مثل هذا أصبحت حامية الشعب العبرى ، وفى لحظة تستطيع أن تعتمد على عشرة ملايين مُوالٍ مخلص لها فى جميع أنحاء العالم ، جميع هؤلاء سيكونون رهن إشارة الأمة العظيمة التى ستمد لهم المساعدة المطلوبة ، فيكون لانجلترا عشرة ملايين عميل من أجل عظمتها وسيطرتها ، وهذا الولاء لا بد أن يكون على الصعيدين السياسى والاقتصادى .

وسعى هرتزل إلى الاستعمارى البريطانى الشهير سيسيل رودس ، فحصل منه على شهادة بفائدة وجود الدولة اليهودية على أرض فلسطين ، وقد جاء فى هذه الشهادة : (أنا رودس قمت بفحص هذا المخطط ، ووجدته صحيحاً وعملياً ، إنه مخطط مملوء بالحضارة ، ممتاز بالنسبة للشعب الذى يتوجه المخطط نحوه ، لا يعوق، تقدم البشرية العام ، وهو مفيد جداً لانجلترا ، ولبريطانيا العظمى) .

وفى عام ١٩٠٢م دخلت المنظمة الصهيونية فى مباحثات مع الحكومة الانجليزية بقصد إقناع انجلترا بمنح الحركة جزءا من شبه جزيرة سيناء ، يقيمون فيها وطنهم القومى كجزء من الامبراطورية ، لكن حكومة مصر رفضت هذا المشروع ، على أساس أن جفاف سيناء يستدعى الاستعانة بماء النيل الذى لا يكفى حاجة البلاد .

ولعل الفضل فى هذا يرجع إلى اللورد كرومر الذى كان حريصاً على الاستئثار بخيرات مصر .

وبعد عام عرضت بريطانيا مشروعاً يقضى بمنح أوغندا للمنظمة الصهيونية ، بقصد تعميرها والتوطن فيها ، لكن حاييم وايزمان المرشح

لقيادة الحركة الصهيونية لم يكن يجد غير فلسطين بديلا .. لهذا عقب موت هرتزل سنة ١٩٠٥ – انتصر فريق وايزمان فى المؤتمر الصهيونى السابع من نفس العام .

لقد لعب وايزمان دوراً كبيراً فى سبيل تأييد انجلترا وأمريكا للمطامع الصهيونية .

في سنة ١٩٠٤ هاجر هذا الكيميائي الروسي إلى لندن ، حيث عاش ، وأخذ يتصل بالساسة والصحفيين من جميع الأحزاب ، ونجح في عقد صداقة مع لورد بلفور ، ومع (سكوت) رئيس تحرير المانشستر جارديان ، الذي عرّفه بعدد من الوزراء .

وكانت طبيعة السياسة البريطانية تقوم على خلق مشكلات الأقليات ، لتدعيم وجودها الاستعماري ، ومن ثم عملت على أن يجد الداعية الصهيوني سبيله إلى انتصارات سريعة ، ولم يفت ا لسياسة البريطانية تغليف جريمتها ـــ كما اعتادت ـــ بغلاف إنساني ، يجمع الشتات اليهودي ، ويستنبته في أرض عربية ، لينشر المدنية والحضارة الغربية ، ويكون خير ركيزة لامتصاص عوامل القلق والاضطراب ، وتأديب العصاة والخارجين على الآداب الاستعمارية .

وفي نوفمبر ١٩١٤ كتب حاييم وايزمان إلى صديقه رئيس تحرير المانشستر جارديان يقول : (من الممكن الآن أن نقول إنه إذا وقعت فلسطين في دائرة النفوذ البريطاني ، وإذا شجّعت انجلترا بعد ذلك توطّن اليهود هناك ، كمستعمرة بريطانية ، فإننا نستطيع أن نوجد خلال الثلاثين سنة القادمة حوالي مليون يهودي في تلك البلاد ، فيطوروها ، وينقلوا الحضارة إليها ، ويكونوا بمثابة حرس فعال لقناة السويس) .

وكان من رأي اللورد كتشنر أن فلسطين هي الموقع الاستراتيجي الذي يجب الاعتماد عليه للدفاع عن قناة السويس في المدي الطويل ، مما هيأ فرصة النجاح أمام الوسائل الصهيونية ، بالرغم من أن (سكوت) رئيس الوزراء كان مرتبطاً بسياسة إحلال العرب محل الأتراك كأصدقاء وحلفاء لانجلترا في الشرق الأوسط .

مع هذا ، فقد شكل مجلس الوزراء البريطاني سنة ١٩٠٥ لجنة لترسيخ الاستعمار في آسيا وأفريقيا ، جاء في تقريرها : (ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوى ، وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري قوي وغريب ، يحتل الجسر الذي يربط آسيا بأفريقيا ، بحيث يشكل في هذه المنطفة ، وعلى مقربة من قناة السويس ، قوة صديقة للاستعمار ، وعدوة لسكان المنطقة) .

وهذا يؤكد أن دور وايزمان لم يكن أساساً في تحويل السياسة البريطانية ، أو توجيهها وجهة معادية للعرب ، إنما هو توافق اللقاء بين الاستعمار الاستيطاني العنصري اليهودي وبين الاستعمار الاقتصادي السياسي الإنجليزي ، على أرض يتمتع أهلها بقدر كبير من التخلف والغفلة عما يراد بهم .

ومع نشوب الحرب العالمية الأولى كان وايزمان يجرى تجاربه بنجاح في إنتاج المتفجرات ، فوضع بين يدي المستر سكوت مشروعاً لإعداد المواد اللازمة لإنتاج الذخائر ، فقام (سكوت) بعدة زيارات إلى لندن ليقنع لويد جورج وماكيف وبلفور وآخرين بأهمية تجارب وايزمان .

وفي ديسمبر ١٩١٥ اصطحب (سكوت) وايزمان ليتغدي معه على مائدة لويد جورج ، وتقرر نقل وايزمان إلى لندن ، ليعمل في مصنع حكومي لإنتاج الذخائر .. ونجحت تجارب وايزمان في تحضير الأسيتون لاستعماله في صنع الكورديت ، فعين في فبراير ١٩١٦ في منصب هام ، بحيث أصبح لورد بلفور رئيسه .

بهذا وضع وايزمان قدماً ثابتة عند مجرى الأحداث .

فلما تولى لويد جورج رئاسة الوزراة ، وعين بلفور وزيراً للخارجية ، انطبعت الحكومة البريطانية بالطابع الصهيوني .

وبعد شهرين قرر مجلس الوزراء تكليف مارك سايكس الدخول في مفاوضات رسمية مع الحركة الصهيونية ، ممثلة في موسى جاستر وهربرت صمويل وحاييم وايزمان وهاري ساشر ، الذين طالبوا بإعطاء اليهود صفة قومية ، ووضعاً رسمياً في فلسطين ، مع منح نفس القومية لكل يهود العالم ،

دون أن يكون لهذا أثر على وضعهم في بلادهم من الناحية السياسية ، كما طالبوا بإباحة الهجرة إلى فلسطين دون أي قيد ، وأكد الجانب الصهيوني على أن ا لكيان الصهيوني الوليد سيكون جزءاً من الامبراطورية البريطانية ، وحارساً مضموناً لها في المنطقة .

٣ ـــ منذ عام ١٨٩٠ وهرتزل يسعى للحصول على حماية بسمارك .

وفي سنة ١٨٩٨ اقترح على القيصر غليوم الثاني ـــ وكانت تراوده أحلام (قدسية) في الشرق ـــ إقامة دولة يهودية تكون موقعاً متقدماً للمصالح والحضارة الجرمانية .. لكن القيصر وجد أن مثل هذا العمل سوف تعده الامبراطورية العثمانية تدخلًا غير مباشر في شئونها ، وقد يثير الدول الأخرى المتربصة بنهاية الامبراطورية المريضة .

وتكررت المحاولة ، دون جدوى ، حتى اشتعلت نيران الحرب العالمية ، وأصبحت كفة الحلفاء هي الراجحة ، فألقى الصهاينة ثقلهم إلى جانب الحلفاء .

اقتحام الأرض :

إلى جانب البحث الجاد عن دولة قوية تتعارض مصالحها مع مصالح الأمة العربية ، كان العمل المستمر في اختيار (الرواد) الأوائل في فلسطين ، على أساس حرمان النفس من متع الحياة والفوائد المادية ، والقدرة على تطويع أسلوب الحياة لمعيشة التقشف ، والقيام بالأعمال الجسمية التي تحددها له الجماعة .

كان التركيز الشديد على العمل غير المستغل في الميدان الزراعي واليدوي ، باعتباره وسيلة رئيسية لبعث شباب (الأمة اليهودية) ولخلق إنسان يهودي جديد ، كما كان التركيز على الاكتفاء الذاتي ، وعلى أهمية وسائل الدفاع الذاتي .

كان هدفهم ـــ كما يدعون ـــ (اقتحام الأرض)،حتى يطهر اليهودي نفسه ، ويتخلى عن سلوكه الطفيلي الذي تمرس عليه في الشتات ، نتيجة الانقطاع أجيالًا طويلة عن الزراعة والصناعة ، والأنشطة الإنتاجية المختلفة ، كما كان الهدف ـــ من اقتحام العمل الزراعي واليدوي ـــ أن يوثق اليهودي صلته بالأرض والطبيعة،ويساعد على منافسة العامل العربي ، والتغلب عليه ،

ودفعه إلى الهجرة .

ويترتب على هذا انتزاع الأرض العربية من أصحابها ، وإضعافهم اقتصادياً في سوق العمل ، تحت شعار العمل العبري ، الذي معناه : عدم الاعتماد على العرب في حراسة المستوطنات والمشروعات الصهيونية ، وضرورة تشكيل فرق صهيونية للقيام بهذه الوظيفة الحيوية .

كان تنبه اليهود إلى ضرورة غرس أقدامهم فى هذه الأرض العربية المباركة منذ زمن بعيد ، إذ نبتت فيهم فكرة أنه لا حضارة يهودية حقيقية فى المنفى ، وأن ثمة رابطة (صوفية) بين الشعب والأرض ، تجعل الشعب قادرا على الإنجازات الحضارية فى أرض الميعاد وحدها ، وتجعل الأرض بدورها خصبة مثمرة ، حينما تطؤها الأقدام اليهودية .

في سنة **١٥٩٣** جاء جوزيف ناسي مع أتباعه من أسبانيا ، وأقام أول مستعمرة زراعية في الجليل ، على شاطىء بحيرة طبريا ، وحاول موسى مونتفيور ، المليونير اليهودي ، سنة ١٨٥٦ تحويل اليهود في فلسطين إلى فلاحين ، وأقام (بيارة) قرب يافا ، وفي سنة ١٨٧٨ أسس يهودي من القدس أول قرية يهودية كاملة أسماها Petahtekva باب الأمل ، ثم موّل البارون إدمون دي روتشيلد وغيره من أغنياء اليهود موجات المهاجرين من روسيا ومن شرق أوربا للإقامة في فلسطين ، وبناء مستوطنات جديدة .

كل هذا قبل أن تبرز قرون الشيطان الصهيوني المعروف .

وفي الوقت الذي كان اليهوديستمسكون بالأرض ، ويستزيدون منها ، ويتفاعلون معها ، على أساس أن (بين الأرض والشعب لابد أن تقوم رابطة عمل) ، وفي الوقت الذي كان زعماء اليهود يتخلقون في زراعة البرتقال والعنب وصناعة النبيذ ، ويستطيلون خلف المحاريث ، كما حدث لبن جوريون وبن زفي — كان (الأفندية) من الإقطاعيين العرب يأنفون من الزراعة ، ويكتفون بتأجير الأرض .. ومن ثم كان سهلاً عليهم التفريط فيها ، بمجرد أن يلوح لهم اليهود بما يخفف عنهم عناء التردد على القرية .

وقد قام (الهستدروت) بدور واضح في فرض العمل العبري ، وفي فرض مبدأ شراء الإنتاج العبري ، ومقاطعة الإنتاج العربي .

بهذا أصبح التراب الفلسطيني ذا مذاق خاص في قلوب وألسنة وأيدي (الغربان الشرسة) ، بالرغم من أنهم كانوا يعمدون إلى إقامة المستعمرات الزراعية في المناطق النائية ، وفي الصحاري غير المأهولة ، كالنقب ، وفي مناطق الحدود بوجه عام ، حتى ولو كانت ظروف الزراعة في تلك المناطق صعبة ، أو غير اقتصادية ، لأنهم يخططون لكسب الأرض ، ولمزيد من التوسع ، مما يحوج أشد الحاجة إلى الماء الذي يصل سعر المتر المكعب الواحد من المياه المطلوبة للزراعة أضعافاً مضاعفة لسعره في البلاد المحيطة بفلسطين ، ومع هذا ثابروا ماضين في الاقتحام ، حتى إذا وقعت سيناء تحت أيديهم ، بعد نكسة ١٩٦٧م كشفوا لنا عن قدراتها الزراعية والصناعية والسياحية ، وكأنها ما كانت تحت أيدينا آلاف السنين ، ومن عجب أنك تزور شرم الشيخ ودهب ونويبع وطابا فلا تكاد تجد إلا فنادق ومظلات وأجهزة كهرباء ومياه إسرائيلية !!

تقول يائيل دايان ابنة موشي دايان ، القائد الصهيوني المعروف ، في قصتها (طوبى للخائفين) على لسان إيفري لابنه نيمرود : (امسك هذا التراب ، إقبض عليه ، تحسسه ، تذوقه ، هذا هو ربك الوحيد .. إذا أردت أن تصلي للسماء فلا تصل لها لكي تسكب الفضيلة في أرواحنا ، ولكن قل لها أن تنزل المطر على أرضنا ، هذا هو المهم .. إذا أردت أن تسلي نفسك ، وتتعلم شيئاً ، فاذهب وتعلم حلب البقر [(١)].

بهذا الوعي الصادق للدور الذي تلعبه الأرض ، صار متوسط دخل اليهودي في فلسطين قبل سنة ١٩٤٨[(٢)] ١٤١ جنيهاً في العام ، بينما متوسط دخل العربي ٥٠ جنيهاً ، وصار مجموع إنتاج اليهود في فلسطين ــ وهم الأقلية ــ ٨١ مليوناً ، بينهما كان مجموع إنتاج الأكثرية العربية ٢٦ مليوناً .

من هنا أخذ النزاع العربي اليهودي طابع النزاع الحضاري ، لأنه نزاع

---

(١) ليت الذين يهجرون أرض « النيل » أو يدمرونها ، حتى صرنا نستورد الخبز -يعون هذا الدرس .

(٢) يجب أن نذكر أن الصهاينة لم يمكنهم الحصول إلا على ٨ر٣٪ من أرض فلسطين ، حتى عام ١٩٤٨ بسبب قوة تعلق الفلاح الفلسطيني بأرضه .

ينبعث من (الأرض) التي يتفاعلون معها ، ويطورون الانتفاع بها ، ويزودونها بأحدث التقنيات .

وفي هذا السبيل ، ما كادت إسرائيل تملك الزمام بعد سنة ١٩٦٧ حتى سعت إلى تهجير ٣٥٠ ألف فلسطيني ، في أقل من عشر سنوات ، ليضيفوا عبئاً جديداً إلى الأعباء العربية ، وليزيدوا من وسائل الصراع والاستنزاف على الساحة العربية .

وعد بلفور :

في الثامن والعشرين من يناير ١٩١٥ كتب المستر اسكويث — رئيس الوزراء البريطانى آنذاك — فى مفكرته يقول : تسلمت لتوى من هربرت صمويل مذكرة عنوانها (مستقبل فلسطين) ، إنه يَخلُص فيها — بإسهاب لا بأس به — إلى مناقشة مسألة إلحاق فلسطين ببريطانيا مجدداً ، وفلسطين بلد صغير فى حجم ويلز ، معظمه جبال جرداء ، وجزء منه لا ماء فيه ، وهو يعتقد أننا قد نزرع فى هذه الرقعة ، التى لا تشجع كثيراً على الزراعة ، حوالى ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود الأوربيين ، وأن هذا سيكون له أثر طيب فى أولئك الذين سيخلفهم هؤلاء وراءهم .. وإنى أعترف أن هذه الإضافة الجديدة المقترحة إلى مسئولياتنا لا تستهوينى ، ولكن من العجيب حقاً أن يرى الإنسان هذه الصرخة التى تكاد تكون صرخة غنائية بحتة ، إنها تجسيد عجيب لعبارة ديزى المأثورة القائلة بأن (الجنس هو كل شيء) .

تحدث المستر اسكويث عن مقترحات الصهاينة المقدمة في مذكرة هربرت صمويل بكثير من الازدراء والدهشة ، ونعتها في مجلس العموم ، بعد ذلك بست سنوات — بأنها ما تزال مثيل (بئر سام من الفرضيات الهشة الهزيلة المتعثرة اللجوج) مضيفاً أن من الافتراضات المبالغ فيها أيما مبالغة الزعم بأن (اليهود سيعيشون جنباً إلي جنب مع العرب ، بفعل إدارة عادلة حكيمة ، وعن طريق التغلغل السلمي ، وبالوسائل الأخرى) .

وكتب في عام ١٩٢٤ — وهو على أرض فلسطين ذاتها ضيفاً على السير هربرت صمويل الذي كان إذ ذاك المندوب السامي على فلسطين — (إن

الحديث عن تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود ليبدو لى حديثاً مغرقاً في الخيال) .

لكن ، يبدو أن المستر اسكويث لم يكن وجهاً صافي المرآة لبريطانيا العظمي ، التي كانت تحركها أصابع الصهيونية سراً وجهراً ، ففي جو الضباب المتكاثف (فقد أعضاء الحكومة — في عام ١٩١٦ — كل أثر لمتابعة بعضهم البعض) وتناول أشخاص مستترون (مشروعات قذرة) ونتيجة هذا (أن قادة الصهيونية ضبطوا يقفون على باب مكتب الخارجية ، حين انقشع هذا الضباب أو كاد) .

وبعد أن تم التوصل إلي تفاهم بين السير مارك سايكس وبين وايزمان وسوكولوف ، انعقدت النية على إرسال رسالة سرية إلى القاضي برانديز ، الأمريكي اليهودي — وصديق الرئيس ويلسُن — مؤداها (أن الوزارة البريطانية ستساعد على كسب فلسطين ، في مقابل الانعطاف اليهودي الفعال ، وفي مقابل تأييد قضية الحلفاء) .

وقد جرى إرسال هذه الرسالة بالشفرة ، عن طريق مكتب الخارجية ، هذا المكتب عينه الذي سُخّر للاتصالات الصهيونية بين وايزمان وسوكولوف وبين الزعماء الصهاينة في الخارج .

وحين عين المستر بنتوتيش نائباً عاماً لإدارة فلسطين ، كتب يقول : (إن سيادة الدولة ليست أمراً حيوياً بالنسبة للمثل الأعلى اليهودي القومي) .. وشدد على ضرورة منح المنشآت الصهيونية والمستعمرين اليهود في فلسطين امتياز (الحقوق الخاصة) .

وأيد لورد كيرزون هذا الاتجاه بقوله : (لو أننا استطعنا إصدار مثل هذا الوعد فإننا سنكون قادرين على استخدامه دعاية مفيدة للغاية في كل من روسيا وأمريكا) .

وفي يونيه ١٩١٧ قال وايزمان : (إن ما تطمح إليه الحركة الصهيونية هو إنشاء دولة يهودية في فلسطين فوراً ، بل لقد ذهب أصدقاؤنا الأمريكيون إلى ما هو أبعد من ذلك . فحددوا شكل تلك الدولة ، بأن بشّروا بجمهورية يهودية) ولكن (ينبغي أن تبنى الدول ببطء وروية

وبالتدريج .. ولذلك نقول : إنه إن كان خلق الكومنويلث اليهودى في فلسطين هو مثلنا الأعلى النهائى ـــ وهو هدف تسعى إليه المنظمة الصهيونية أجمع ـــ فإن الطريق إليه يتألف من سلسلة من المراحل البيئية ، وإحدى هذه المراحل البيئية ، والتي آمل أنها آتية عما قريب ، كنتيجة للحرب ـــ هى أن توضع بلاد فلسطين الجميلة تحت حماية دولة قوية عادلة كبريطانيا العظمى ، فيستطيع اليهود ـــ تحت جناح هذه الدولة ـــ أن ينشئوا ويقيموا ذلك الجهاز الإداري الذى سيمكننا من تنفيذ المخطط الصهيوني ، دون أن نتدخل ، في الوقت نفسه ، في المصالح الشرعية للسكان غير اليهود ، وقد خُول لي أن أقول لكم(١) : أن حكومة صاحبة الجلالة مستعدة لأن تؤيد خططنا) .

●● كان سقوط امبراطورية آل رومانوف بروسيا ، في مارس ١٩١٧ ، من العوامل المساعدة على تنظيم الهجرة إلى فلسطين ، ومد اليهود بالمال والسلاح ، وتدريب عصاباتهم على الحرب الخاطفة .

واتخذت جميع الضغوط لتنشيط حركة الاستيطان ، وتملّك المواقع الاستراتيجية ، وطرد الفلاحين العرب ، ومقاطعة العمال العرب ، تنفيذاً لمخطط هرتزل الذي يقول :

(سيتم نزع الملكية الاختياري عن طريق وكلائنا السريين ، وعندئذ فلن نبيع إلا لليهود ، ولن يجرى الاتجار في العقارات إلا بين اليهود .. سنحاول إجلاء السكان المعدمين عبر الحدود ، بتوفير العمالة لهم في البلدان التى ينتقلون إليها ، و إنكارأية فرصة عمل عليهم في بلادنا ، وسيقف الملاك إلى جانبنا ، ولابد أن تجرى كل من عملية نزع الملكية وإبعاد الفقراء في تكتم وحيطة) .

أما وقد ركبت الحركة الصهيونية ظهر الحكومة البريطانية ، وبخاصة بعد ما تولى لويد جورج رئاسة الوزارة سنة ١٩١٥ ، فلم يعد ثمة حاجة إلى كثير من التكتم والحيطة .

---

(١) وجه القول إلى جمهور ذى صبغة خاصة ، عقد فى ٢٠ مايو ١٩١٧ ، كرسالة عن الموقف السياسى ، تنقل إلى الجمعيات اليهودية من خلال مندوبيها ، ويلاحظ أن هذا قبل ما يقرب من ثلاث سنوات ، من (منح) عصبة الأمم الانتداب لبريطانيا على فلسطين.

يقول الدكتور جاستر ، في خطاب له خطير : (إننا نريد أن نقيم في فلسطين كومنويلثاً يهودياً مستقلًا استقلالاًذاتياً ، بأوفى معنى من معاني هذه الكلمات .. إننا نريد لفلسطين أن تكون فلسطين اليهود ، وليس مجرد فلسطين لليهود ، إننا نريد لأرضها أن تكون أرض إسرائيل ، ويجب أن تكون أرضها لنا) .

ونشطت الدوائر الصهيونية ، من أجل تسيير الآلة البريطانية بالوقود الأمريكي ، فاجتمع بلفور [1] بالقاضي برانديز في ربيع ١٩١٧ ، وفي نفس الوقت اجتمع بأعضاء بعثة بلفور إلى أمريكا صهاينة آخرون ، حتى إذا عاد بلفور إلى بريطانيا كان مشبعاً غاية التشبع بالفكرة الصهيونية ، ودبَّج عدداً من المسودّات عن (التقرير الصهيونى الرسمى) وأرسلت المسودات — عن طريق وسائل مكتب الحرب الخاصة — إلى الولايات المتحدة ، لكي تستعين بها اللجنة السياسية الصهيونية الأمريكية .

وسرعان ماجرت الأقلام ببيان مبدئي عام .. لكن (حين حانت لحظة اتخاذ قرار في أواسط عام ١٩١٧) أيد الرئيس ويلسون الصهاينة بكل ثقل نفوذه ، حتى إذا كان الثاني من نوفمبر ١٩١٧ خرج تصريح (السِّفاح) الذي نتج عن (جريمة تعدد الأزواج) ، على شكل كتاب من سكرتارية الخارجية إلى اللورد روتشيلد [2] ، بوصفه رئيساً للاتحاد الصهيوني في بريطانيا ، جاء فيه :

(إن حكومة صاحب الجلالة لتنظر بعين العطف إلى مسألة إقامة وطن قومى في فلسطين للشعب اليهودى ، وستبذل أقصى ما فى وسعها من مساع

(١) بلفور هذا الذى أطلق اسمه على مزرعة جماعية فى إسرائيل كان معاديا للسامية ، فأسهم فى إصدار (قانون الأجانب) الذى يدعو إلى الحد من دخول يهود شرق أوربا إلى انجلترا ، وقد تحدث كثيرا عن الكوارث التى حاقت بانجلترا من جراء هجرة هؤلاء اليهود الشرقيين إليها ، ومن هنا كان إقباله على الخلاص من اليهود على حساب العرب الذين (لا وزن لهم) ، ويسهل التأثير عليهم ، لأنهم (فرديون ، مفككون ، يميلون إلى الكذب والمبالغة وخداع الذات ، وهم بالمقارنة بالإسرائيليين كسالى جبناء خونة ، مستوى ذكائهم منخفض ، وعلى الجملة هم أدنى من الإسرائيليين) !!

(٢) اعترف وايزمان فى مذكراته أنه هو الذى كتب بيده هذه الوثيقة ، بناء على طلب اللورد بلفور .

لتذليل إحراز هذه الغاية ، مع العلم تمام العلم بأنه لن يُفعل شيء من شأنه المساس بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة حالياً في فلسطين ، أو الحقوق الأهلية السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر .. وأكون مديناً لكم بالجميل إذا ما تكرمتم فأبلغتم هذا التصريح إلى الاتحاد الصهيوني ..) .

صديقكم المخلص : أرثر جيمس بلفور

لم يكن أحد يدرك معنى محدداً لعبارة (الوطن القومي) لأنه لم يكن لها معنى متعارف عليه ، ومن ثم أعطت حرية الممارسة في فلسطين .

أما عبارة (تنظر بعين العطف) فماذا تساوي في دنيا التعهدات ؟ وماذا يعنى (التسهيل) في عبارة (ستبذل كل ما فى وسعها لتسهيل بلوغ هذا الهدف) ؟

وأما وصف العرب بالجماعات (غير اليهودية) في فلسطين ، فلفظ مغرّر مخادع ، مهوّن من شأن العرب ، الذين كانوا يبلغون تسعة أعشار سكان فلسطين ، إذكان عدد اليهود ٦٠ ألفاً من مجموع ٦٧٠ ألفاً تقريباً .

لقد خلت (الوثيقة) من ذكر اسم (العرب) فكيف تحتفظ لهم بحقوق مدنية ؟!

(لقد سلبوا العرب كل شيء ، بنصوص يدل ظاهرها على أنها تؤمِّن للعرب كل شيء ، وهي خدعة ماهرة وضيعة) ، تتناسب مع ما كان عليه العرب — وما يزالون — من تشرذم وتنافس على الأبواق المشبوهة .

وما أصدق (دي هاعاس) الصائغ الأمريكي في قوله : (نحن نفرق بين الحقوق اليهودية والادعاءات العربية) لأنه لاحقوق إلا لمن يطلبها ويلح في طلبها ، ولا عبرة (بالأوراق) الموثقة ، مادامت لاتجد من ينصرها ، ويعرف الطريق إلى حماية جذورها ، وتحصين حدودها .

إن كل كلمة في هذه (الوثيقة) قد صيغت بالطاقات الفاعلة ، وبالإرادات الحميمة ، وبالرؤى البعيدة المرسومة على مستوى الواقع الذي لابد من تحقيقه ، لا على مستوى الأحلام المراهقة .

وحسبنا أن نعزي أنفسنا بأنها وثيقة (امرأة متزوجة من رجل متزوج) أو (امرأة تبيع عرضاً لاتملكه لرجل لا يستحقه) .

نعزي أنفسنا بصياغة الأوهام والكلمات (المريحة) الساحرة ، دون

علم بحقيقة المسخور منه ، على حين تتجلى في هذه الوثيقة ، أو هذا (التصريح) الدوامغ الآتية :

١ ــ كنا نحارب الأتراك إلى جوار (الحلفاء) مأخوذين بوعود (دولة عربية موحدة ، من الجزيرة العربية وسوريا والعراق) ، فإذا الوعود هباء .

٢ ــ إن هدف تنصيب اليهود في مركز مختار بفلسطين ، دون موافقة أهلها ، مقدمة لإغراق العرب في دولة يهودية تأخذ طريقها إلى الواقع المعلن ، في تصريحات ، وهجرات جماعية ، وتشكيلات عسكرية .

٣ ــ كتابة التصريح بأقلام يهودية ، اعتراف لا مِرْية فيه بالقدرة اليهودية على تنفيذ (المخطط) الصهيونى ، من خلال الوسائل المشروعة وغير المشروعة التى مكنت من السيطرة على كثير من المفكرين والساسة ، ورجال الإعلام، وأعمدة المال والصناعة .

٤ ــ الاعتراف بالحقوق التاريخية (للشعب) الإسرائيلى فى فلسطين يساوى عدم الاعتراف بالوجود العربى ، كما يساوى أن الحق للقوة ، وأن التاريخ صناعة الأقوياء .

٥ ــ يوحى تأييد الدول الكبرى لعدوانية اليهود بأن الروح الصليبية لاتزال تسيطر على قادة هذه الدول ، بالقدر الذي لايزال العداء للسامية دما أسود يجري في عروق هؤلاء القادة ، ويأخذ ألواناً جديدة .

* * *

سرعان ما صادقت فرنسا على (التصريح) ، وتبعتها إيطاليا عام ١٩١٨ ، ووافقت روسيا بشرط المحافظه على مصالح الكنيسة الروسية في الأراضي المقدسة ، وأعلن (ويلسون) اغتباطه بصدور التصريح ، ولم يكتف بإعلان (وطن قومي لليهود) ، بل تجاوز فأعلن (قيام دولة يهودية) بقوله أمام الرأي العام الأمريكي :

(قررت الأمم المتحالفة ـــ بمساندة مطلقة من جانب حكومتنا وشعبنا ـــ إقامة أساس للدولة اليهودية في فلسطين) .

ولعل هذا المناخ العالمي المتآمر هو الذي شجع على ممارسة (الانتداب) قبل أن ينعقد مؤتمر الصلح ، إذ ما كاد المؤتمر ينعقد ـــ وهو المؤتمر الذي رفض تمثيل وفد مصر – حتى أذنَ لوفد صهيوني أن يمثل أمامه ، ويقدم مطالبه ، فطرح وايزمان ـــ رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ـــ الحد الأقصى من المطالب ، في أن تكون حدود الدولة : البحر المتوسط غرباً ، وصيدا ونهر الليطاني وجبل الشيخ شمالًا ، وكل الضفة الغربية ، من خط سكك حديد الحجاز شرقاً ، وشريط من سيناء ، يمتد من العقبة إلى العريش جنوباً ، وقال : (إن الحدود السابق طرحها في خطوطها العريضة هي ما نعتبره جوهرياً للأساس الاقتصادي الضرورى للبلاد).

تمّ ذلك في فبراير ١٩١٩ ، ثم قرر (مجلس الحلفاء) الذي انعقد في سان ريمو (أبريل ١٩٢٠) انتداب انجلترا في فلسطين ، وأن تكون هى المسئولة عن تنفيذ التصريح بإقامة الوطن القومي لليهود .

وليس مما يثير الدهشة أن زعماء الحركة الصهيونية ، في الولايات المتحدة الأمريكية ، لم يكونوا راضين عن هذه المكاسب ، فبعثوا برسالة إلى الرئيس الأمريكي تقول :.

(إن اتفاقية سايكس بيكو تقسم البلاد ـــ فلسطين ـــ في إغفال تام للحدود التاريخية والضرورات الطبيعية ، وإن المنظمة الصهيونية تعتمد بالدرجة الأولى على الحدود الشمالية المنطقية والحدود الشرقية المعقولة ، بشأن تطوير إسرائيل الاقتصادى ، وهذا يعنى أنه يجب أن تشمل فلسطين من ناحية الشمال على نهر الليطاني ومساقط مياه حرمون ، كما ينبغي أن تشمل في الشرق على سهل الجولان وحوران) .

إنهم يتحدثون عن (تطوير إسرائيل الاقتصادى) قبل أن تأخذ اتفاقية سايكس بيكو ، أو وعد بلفور ، طريقاً إلى التنفيذ ، وذلك للضغط على (عصبة الأمم) التى ستجتمع في ١٩٢٢ ، من أجل مزيد من المكاسب ومزيد من التجاوز .

ولما تكونت (عصبة الأمم) وافق مجلسها المنعقد في ٢٤ يولية ١٩٢٢ بلندن على وثيقة (الانتداب) وشروطه التفصيلية ، وكان وعد (بلفور) في رأس تلك الوثيقة ، فقد صدر بها الوعد كأنه قرار دولى ، يقول :

(إن الدولة المنتدبة مسئولة عن تحقيق الوعد الذي قطعته على نفسها عام ١٩١٧ ، بحقوق اليهود في فلسطين ، وتأمين الهجرة اليهودية ، وتشجيع إسكان اليهود ، وتسهيل منح الجنسية لهم) .

وأضافت (الوثيقة) أن العبرية لغة رسمية لهم .. واعترفت المادة الرابعة منها (بالوكالة اليهودية) ، التي (تنصح وتعاون الإدارة بفلسطين ، في كل ماله علاقه بإنشاء الوطن القومي لليهود) .

وقرر المؤتمر الصهيوني تقييد (الوكالة) بتنفيذ المبادىء الآتية :

١ ـــ مواصلة العمل على زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

٢ ـــ الاهتمام بالأرض ، والعناية بها على أنها ممتلكات يهودية .

٣ ـــ الاستعمار الزراعي القائم على العمل اليهودى .

٤ ـــ العناية ببعث اللغة العبرية والثقافة العبرية .

وبهذا أصبحت (الوكالة) دولة داخل دولة ، لها إدارتها الخاصة ، ومصالحها الخاصة .

وساعد على زيادة تمكين هذه (الوكالة) كون السير هربرت صمويل مندوباً سامياً في فلسطين ، وهو صاحب دور كبير في إصدار (وعد بلفور)،كما أنه أحد مؤسسى شركة شل (اليهودية) ذات التأثير البالغ على كثير من حكومات العالم ، وفي مقدمتها الحكومات العربية .

يقول وايزمان في حديث له بالولايات المتحدة ، عقب تعيين هربرت صمويل مندوباً سامياً :

(إن السير هربرت صمويل صديقنا ، وقد قبل هذا المنصب الصعب بناء على رجائنا ، فنحن الذين وضعناه في ذلك المنصب ، إنه صمويلنا) !!

إنه الذي أصدر سنة ١٩٢٠ قانون انتقال الأراضي ، يقضي بضرورة أخذ موافقة الحكومة على كل انتقال يجري في ملكية الأموال غير المنقولة ، ومنع انتقال الأراضي لغير سكان فلسطين .

وهدفه من ذلك أن يسهل عملية شراء اليهود للأراضى ، وأن يمنع فئة الملاك الغائبين الذين كانت لهم أراض واسعة في فلسطين ، من شراء مساحات أخرى من الأرض .

وأصدر سنة ١٩٢١ قانون انتقال الأراضي ، مطوراً قانون سنة ١٩٢٠ ، في محاولة لخفض أسعار الأراضي ، وتسهيل انتقال الأراضى المعروضة للبيع إلى أيدي اليهود .

وأصدر سنة ١٩٢٠ قانون تمليك الأراضى للجيش ، الذي خول نزع ملكية الكثير من الأراضى العربية ، بحجة المشاريع العمومية .

وكأن (صمويلهم) قد رسم الطريق لكل مَنْ يتولى أمر الانتداب في فلسطين ، فلم يصدر قانون لصالح المزارعين العرب أو حمايتهم ، مع الاستمرار في فرض الضرائب الباهظة التي دفعت الملاك الغائبين إلى بيع أراضيهم لليهود ، وقد بيعت لليهود سنة ١٩٢٤ خمس قرى تابعة لقضاء صفد ، يملكها آل سرسق ، تبلغ مساحتها ٢٣٠ ألف دونم ، وتم إجلاء عرب الحوارث سنة ١٩٢٩ عن ٤٠ ألف دونم ، اشتراها الكبرن الكايمست وفاء لديون أسرة الثبان البيروتية .

وهكذا صارت الأرض العربية تتحرك إلى الأيدي اليهودية ، ولا تملك (اللجنة التنفيذية العربية) إلا أن تستصرخ ، ولاتُسمع ، في مواجهة (هذه الخطوة الأولى من سياسة الإجلاء والإبادة) .

وكانت (خطوات تالية أشد أثراً وأبعد مفعولاً) بحيث تم في سنة ١٩٣٤ عقد ١١٧٨ صفقة بيع ، لاتقل مساحة الأرض المبيعة في كل منها عن مائة دونم .

وإلى جانب الاستيلاء على الأرض ، حصل رجال الأعمال اليهود على امتيازات احتكارية من الحكومة البريطانية ، مما أعطى الحركة الصهيونية

دوراً هاماً في تطور الثروات الطبيعية لفلسطين .. ففي سنة ١٩٢١ حصلت الشركة الفلسطينية للكهرباء — لصاحبها بنحاس روتنبرج — على حق احتكار الكهرباء لكل فلسطين ، فيما عدا القدس ، وحصل موريس نوفوميسكي على امتياز تطوير واستخراج المواد المعدنية من البحر الميت سنة ١٩٢٧ ، وحصلت الشركة الفلسطينية لتنمية الأراضي على حق الصرف في مستنقعات شمال الجليل سنة ١٩٣٤ .

بعثة كنك كرين :

قبل أن نمضي في سرد مجريات الأحداث ، نتعرف على طبيعة الوضع في فلسطين ، على المناخ الذي تم فيه زرع هذا (المسخ) الأخطبوطي الغريب ، ومدى أهلية أولئك الذين كانوا يملكون اتخاذ القرار .

عندما بلغ الخلاف بين لويد جورج وكليمنصو — حول مضامين (سايكس بيكو) في اجتماعات (مجلس الحلفاء) السرية — حدَّ الانفجار ، هبّ (ويلسن) فاقترح إرسال بعثة أمريكية انجليزية فرنسية مشتركة إلى المنطقة ، لتحديد رغائب أهلها في اختيار الدولة المنتدبة ، وقد وافق المجلس بالإجماع في ٢٠ مارس ١٩١٩ على إرسال البعثة المذكورة .

وقد حددت البعثة في تقريرها نقاطاً هامة حول مصير فلسطين ، أهمها الملاحظة التي تقول :

(إذا اعتبرنا أن فلسطين ستصبح في نهاية المطاف دولة يهودية ، فمما لايجوز التغاضي عنه أن فلسطين « أرض مقدسة » بالنسبة لليهود والمسيحيين والمسلمين ، على السواء ، وملايين المسيحيين والمسلمين في كل أنحاء العالم قلقون ، لاأقل بأي حال من اليهود ، حول الأوضاع في فلسطين ، خاصة تلك التي تمس المشاعر والحقوق الدينية .. ومن هذه الزاوية فإن الوضع في فلسطين معقد وحساس إلى أقصى حد .. وحتى — مع أحسن النوايا الممكنة — يشك في أن يبدو اليهود للمسيحيين والمسلمين حماة حقيقيين للأماكن المقدسة ، أو قيّمين عليها ، والسبب يكمن في أن هذه الأماكن مرتبطة باسم المسيح ، كما أنها مقدسة في نظر المسلمين أيضاً ، أما بالنسبة

لليهود فإنها ليست مقدسة فحسب ، بل إنها ممقوته أيضاً ، لذا من غير المعقول بكل بساطة أن يشعر المسلمون والمسيحيون بالاطمئنان في حالة وضع هذه الأماكن في أيد يهودية ، أو حتى جعلهم قيمين عليها ، وبالإضافة إلى ذلك ، توجد مناطق كثيرة يكنّ نحوها المسلمون نفس الشعور ، لذلك ، فإن المسلمين الذين ينظرون بعين التقديس إلى الأماكن المقدسة لجميع الديانات يكونون أفضل من اليهود لحمايتها .. ويصحّ التفكير في أن الذين يدافعون عن النهج الصهيوني المتطرف لم يدرسوا بما فيه الكفاية جميع آثار الاحتلال اليهودي الكامل لفلسطين .

إن مثل هذا الاحتلال سيؤدى حتماً إلى تعاظم الشعور العدائي لليهود ، سواء في فلسطين أو في البلدان الأخرى ، حيث يعتبرون فلسطين أرضاً مقدسة .

وانطلاقاً من كل ما مر ، ترى البعثة ـــ بالرغم من شعورها العميق نحو قضية اليهود ـــ أن من واجبها التوصية بأن يوافق مؤتمر السلام ـــ في باريس ـــ على النهج الصهيوني ، بعد تقليصه إلى حد كبير ، شريطة أن ينفذ ـــ حتى في هذه الحالة ـــ ببطء كبير ، مما يعني ضرورة تحديد معنى لهجرة اليهود ، ورفض مشروع تحويل فلسطين إلى دولة يهودية ، وفي مثل هذه الحالة لاتظهر أية موانع لضم فلسطين ـــ مثل بقية أجزاء سوريا ـــ إلى الدولة السورية الموحدة ، أما الأماكن المقدسة فيمكن وضعها في حماية لجنة دولية ودينية ويجب بالطبع تمثيل اليهود فيها) .

بينت البعثة أيضاً كيف أن الصهيونيين يأملون في إجلاء غير اليهود عن فلسطين ، بشراء أراضيهم .. وأنه ـــ طبقاً لما أعلنه الرئيس ويلسن في ٤ يولية ١٩١٨ ، حول ضرورة حل مسألة لها مساس بالأرض أو السياسة أو الاقتصاد ـــ يرفض السكان غير اليهود في فلسطين ـــ وهم تسعة أعشار السكان ـــ البرنامج الصهيوني رفضاً تاماً .

وتثبت الإحصاءات أن سكان فلسطين لم يجمعوا على شيء إجماعهم على هذا الرفض ، مما جعل تنفيذ البرنامج–بدون قوة السلاح ـــ في عداد المستحيلات .

●● مع ذلك ، أهمل ويلسن تقرير البعثة ، وغضّ الطرف عن التوصيات الصريحة الواردة فيه .

ومن ثم لم يعرض التقرير على مؤتمر السلام فى باريس ، وظل مختفياً فى (أرشيف) الوفد الآمريكي ، إلى أن انتهى المؤتمر من أعماله ، سيما أن الرئيس نفسه قد طمأن ممثلي الحركة الصهيونية ــ عندما أبدوا بعض المخاوف من إرسال البعثة ــ بأنه (استناداً لرغبة الشعب الأمريكي ، ورغبته الشخصية ، ورغبة الحلفاء ــ على الصهيونيين أن يثقوا في أن فلسطين ستكون وطناً قومياً للإسرائيليين) !!

موقف العرب :

لعل الموقف العربى يبدأ برفض المصريين الوجود الإسرائيلى فى سيناء ، أوبالثورة العربية بقيادة الشريف حسين ، من أجل تكون دولة عربية كبرى ، تضم فلسطين وغيرها من بلدان المشرق العربى ..ولكن صورة الرفض الفلسطينى ، النابع من التراب الفلسطينى ، ضد الجريمة الصهيونية العالمية ، تبدو أثناء الاحتفال بعيد النبى موسى (عيد الفصح) سنة ١٩٢٠ م تحدّيا بالغ الحدة .

لقد هب الشعب العربى فى فلسطين ، محتجاً على هذه الجريمة ، من اليوم الرابع إلى الثامن من إبريل ، وكان قتال ونهب وسلب ، ولما استطاعت القوات العسكرية أن تعيد النظام كان قد قتل من اليهود خمسة وجرح ما يزيد على مائتين ، بينما قتل من العرب أربعة وجرح واحد وعشرون .

كانت لليهود (فرقة للدفاع عن النفس) ، شكلها الإرهابى جابوتنسكى ، كما كانت هناك بعثة تمثل المنظمة الصهيونية فى فلسطين ، لها حرية إرسال برقياتها وأنبائها ورسائلها عن طريق أسلاك البرق والتليفون العسكرية البريطانية ، على حين حرم العرب من كل وسائل الإعلام الداخلية والخارجية ،فلماشكلت الجهود العربية (جمعية إسلامية مسيحية) لتكون نداً للبعثة الصهيونية طلب المسيو أوسيشكين ــ رئيس البعثة الروسى الأصل ــ من الحاكم الإداري العام أن يرفض إعطاء الجمعية الإسلامية المسيحية وغيرها من الجمعيات العربية حق الاجتماع وحق التعبير .

فلما صار السير لويس بولز ـــ الذي كان رئيس هيئة أركان حرب الجنرال اللّنبي ـــ حاكماً إدارياً ، وقف ـــ إلى حد ما ـــ في وجه هذا النزق اليهودي ، وصرح بأن (٩٠٪ من أهالي فلسطين ـــ على وجه التقريب ـــ معادون للصهيونية عداء مستحكماً ، وأن هذه المعارضة تنتظم كافة المسلمين والمسيحيين ، وقسماً لايستهان به من اليهود) . وبين أن (الدافع إلى معارضتهم ديني في جزء منه ، وفي جزء آخر الخوف من أنه قد يتحتم على سكان البلاد القدامى أن يتخلوا بالضرورة عن مواطنهم للصهاينة . الذين تدعمهم مؤسسات مالية ضخمة) .

وبهذايلتقى السير بولز بما جاء فى تقرير لجنة (كنك كريين) .

فلما عين المستر ونستون تشرشل سكرتيرا لشئون المستعمرات سنة ١٩٢١ جَدَّف العرب في بحر من الآمال ، وهُرعت الوفود العربية من فلسطين إلى القـاهـرة للقائه ، وعرض قضيتهم عليه ، فتحدث إليهم فى تبرم وضيق ، قائلا :

(إنكم تطلبون منى أن ألغى تصريح بلفور ، وأن أوقف الهجرة ، وهذا الشىء ليس من سلطتى ، وهذه ليست رغبتى .. وفضلا عن ذلك فإن الحق البين هو أن يكون لليهود المبعوثين مركز قومى ، ووطن يجمع شملهم ، وأين يكون هذا الوطن إن لم يكن فى فلسطين التى اقترن بها اليهود ثلاثة آلاف عام اقترانا وثيقـاً عميقاً ، منذ ذلك التاريخ حتى الآن (؟!) ونحن نعتقد أن هذا شىء طيب بالنسبة للعالم ، وبالنسبة لليهود ، وبالنسبـة للامبراطورية البريطانية ، وهو كذلك طيب بالنسبة للعرب الذين يسكنون فلسطين ، ونحن نريد أن يكون كذلك ، وهم لن يطردوا من بلادهم ، ولن يقع عليهم ضيم ، سيكون لهم نصيب من فوائد الصهيونية وتقدمها) .

هذا هو ونستون تشرشل الذي صار على قمة الحكومة البريطانية ، إبان الحرب العالمية الثانية ، وكسب الحرب للإنجليز واليهود معاً ، وكتب في مذكراته :

(إذا أتيح لنا في حياتنا ـــ وهو ما سيقع حتماً ـــ أن نشهد دولة

يهودية ، لا في فلسطين وحدها ، بل على ضفتي الأردن معاً ، تقوم تحت حماية التاج البريطاني ـــ فإننا سنشهد وقوع حادث يتفق تمام الاتفاق مع المصالح الحيـويــة للامبراطورية) .

●● ومع هذا التأييد الصارخ – من الانجليز وغيرهـم من الـدول الممسكـة بمقاليد العالم ـــ فإن اليهود أبوا إلا أن يحصلوا على اعتراف بالوطن القومي من أمير عربي ، وإن كان من فوق رءوس العرب جميعاً ، نكاية وإذلالاً وسخرية ، باسم الحرص على (الشرعية) !!

كانت إغراءات الأمير عبد الله ، أن لوح له بتاج فلسطين وشرق الأردن ، واستؤنفت المفاوضات مع والده الشريف حسين ، ولكن الشيخ أبى الاستخذاء أمام كل الإغراءات ، فأرسل إليه اللورد كرزون طالباً فى خشونة أن يقبل تصريح بلفور ، فرد عليه بلهجة مهذبة مقترحاً إقامة حكومة دستورية فى القدس ، وكانت مقايضة قبوله الوضع الراهن فى سوريا ، بضمان بريطانى لحدوده ، فقال قولته المعروفة : (إن شرفى فى مهب الريح) وأصر على موقفه .. فأرغم على التنازل عن العرش ، وارتحل إلى قبرص حيث توفى سنة ١٩٢٨ .

وفى نفس الوقت الذي جرت فيه المفاوضات مع الشريف (الملك) حسين ، اتخذ من الدوق ديفونشاير وسيلة لعرض (وكالة عربية) في فلسطين مقابل الوكالة اليهودية ، ونسوا أن هذا أشبه بعرض (وكالة بريطانية) في بريطانيا ، كما يقول جريفز .. وبالطبع رفض العرب هذا العرض .. وقد سجل هذه المهزلة السنيور فرايري داندرادى (البرتغالي) عضو لجنة الانتداب التابعة لعصبة الأمم ، بقوله : (إن المندوب السامي كان يعرض تشكيل وكالة يهودية ووكالة عربية ، لهما حقوق متساوية ، وفي رأيي أن العرب سيجدون من العسير عليهم قبول منظمة كهذه ، لأن دور الوكالة اليهودية محدد فى المادة الرابعة من صك الانتداب ، التي تضع في اعتبارها أن تساعد هذه الوكالة في إدارة ذلك البلد ، وإن كان ذلك إلى مدى معين فقط ، طبقاً لنصوص الانتداب ، إلا أن العرب ، الذين هم في بلادهم التى هي ملكهم ، لابد أن يشعروا أن من حقهم أن يمارسوا نفوذاً

في الشئون الإدارية أكثر من ذلك النفوذ الذي يمارسه القادمون الجدد ، ولست أستطيع أن أقول إنهم مخطئون في هذا) .

وفى أغسطس ١٩٢٩ جرت حوادث (حائط المبكى) ـ مصعد البراق عند المسلمين ـــ حين أراد اليهود انتزاع ملكية الحائط ووضعوا الستار عليه ، فسارت المظاهرات العربية ، وسقط مئات القتلى والجرحى من العرب واليهود ، وتحركت الصهيونية العالمية ، مستثمرة علاقاتها الاستعمارية ، وركائزها الاقتصادية ، وتحركت الشعوب العربية والإسلامية ، وكانت دعوة لعقد مؤتمر إسلامي عام بالقدس في ديسمبر من نفس العام ، لإيجاد كتلة إسلامية عربية مناهضة .. وكان رد الفعل شاملاً لدى الدوئر الدينية والسياسية في مصر ، ونشطت جمعية الشبان المسلمين ، ونقابة المحامين ، لجمع التبرعات لضحايا الثورة الفلسطينية ، وكانت دعوة إلى التضامن الإسلامي ، وإنشاء بنك إسلامي ، وعصبة أمم إسلامية ، وسافر عدد من كبار الشخصيات إلى القدس ، للدفاع عن ملكية العرب لحائط البراق ، أمام لجنة التحقيق الدولية ، كما أرسل الأمير عمر طوسون برقية احتجاج إلى الحكومية البريطانية ، بصفته الرئيس الأعلى للجنة عمارة الحرم القدسي في الديار المصرية .

وكانت محاولات امتصاص مشاعر الغضب والسخط العربية .

في سنة ١٩٣٠ قرّ الرأي في لندن على إرسال لجنة تقصي الحقائق برئاسة السير وولترشو ، وأقامت اللجنة ثلاثة أشهر استمعت فيها إلى ١٣٠ شاهداً ، وعادت لتقدم تقريرها في مارس ١٩٣٠ ، وقد جاء في التقرير :

١ ـــ أن عدداً كبيراً جداً من المهاجرين الصهاينة لاتحتمله البلاد ، حتى على الأسس والمقاييس التي رسمتها الحكومة لدخولهم .

٢ ـــ أن هؤلاء المهاجرين يزيحون العرب ، ويحلون محلهم وأن (الفترة التي تكون فيها الهجرة كثيفة تعقبها بطالة شديدة ، وارتباك اقتصادي شديد) .

٣ ـــ أن مقاومة العرب للهجرة اليهودية مقاومة (لها أساس متين ، من حيث كونها تنبع من النتائج المعروفة للهجرة المفرطة ، التي تدفقت على

البلاد من قبل ، وأن ذلك الشعور سيكون عاملًا لابد وأن يساهم في إحداث انتفاضة ، إذا ما أضيفت إليه أسباب أخرى لقيام اضطرابات مباشرة أكثر منه) .

وترتب على هذا التقرير أن أصدرت الحكومة (كتاباً أبيض) سنة ١٩٣٠ يقرر أن الحكومة ستتحكم — عن طريق إدارة فلسطين — في الهجرة الصهيونية ، وفي شراء الأراضي ، وستمنع أي زيادة في أي منهما قد تجعل البلاد في حال من الارتباك الاقتصادى .

وحتى لايكون هناك (ارتباك اقتصادى) اقترح وايزمان (نقل العرب إلى شرق الأردن والعراق) ، وعلى الوكالة اليهودية أن تقدم (قرضاً) بمليون جنية استرليني مساعدة في نقل الفلاحين العرب .

●● مع أن ما في (الكتاب الأبيض) يمكن تزييفه (تطبيقا) فقد قوبل من قبل اليهود بصراخ بركاني ، ولم يكد يمر يومان على صدوره حتى أبرق الجنرال سمطس إلى رئيس الوزراء معرباً عن (كدره الشديد) لهذا (التراجع عن التصريح البلفورى) وحث على وجوب إعادة توكيد هذا التصريح ، وعلى وجوب إعادة تشكيل سياسة الحكومة في فلسطين من جديد .

واستقال الدكتور وايزمان من رئاسة المنظمة الصهيونية ، وفي الولايات المتحدة استقال المستر واربورج من رئاسة مماثلة ، واستقال اللورد ملشيت من المنظمة ومن الوكالة اليهودية ، وتبعهم عدد كبير ممن يشغلون وظائف رئيسية ، وقامت المظاهرات وانهالت الاحتجاجات من أماكن مختلفة .

وانتهى الأمر باستسلام مزر ، من الحكومة البريطانية للضغط الصهيوني ، فدعت وايزمان ونفراً من الزعماء الصهاينة للتفاوض مع لجنة وزارية خاصة ألفت لهذا الغرض ، برئاسة وزير الخارجية موريسون ، وانتهت المفاوضات بالتراجع عما جاء في الكتاب الأبيض ، وقد تجسد هذا التراجع في شكل رسالة أو (كتاب أسود) من رئيس الوزراء إلى الدكتور وايزمان ، بتاريخ ١٣ فبراير ١٩٣١ ، وقد كان كتاباً مطولًا تبلغ كلماته حوالي ٢٧٠٠ كلمة ، تعلل وتشرح وتعتذر ، وتترجم عن موقف شاذ

لحكومة مستر مكدونالد ورفاقه .. فقد أثبت (الكتاب الأسود) – في نظر العرب ــ قوة النفوذ الذي يستطيع يهود العالم أن يفرضوه على الامبراطورية العظمى ، وبذلك فقدوا الثقة التي كانت تخايل بعض ساستهم ، فما كان أحد يتصور أن الكلمات يمكن أن تلتوى ، فتصبح (السلطة التي تفكر الحكومة في قرنها بهذا الإشراف ــ على الهجرة والتملك ــ سلطة تنظيمية لاتحريمية) ، إذ (من الخطأ القول بأن حكومة صاحبة الجلالة تنوى ألا تسمح بالمزيد من هجرة اليهود ، طالما كانت هذه الهجرة لاتحول دون حصول العربي على عمل) .

ومن عجب أن الحركة الوطنية في فلسطين حاولت أن تتعاطف في هذه المرحلة مع الحركة الصهيونية ضد الانجليز ، كأنما أرادوا اللعب على أكثر من حبل ، دهاء أو غباء !!

وقد تزايدت الهجرة سنة ١٩٣٢ بصورة خطيرة ، وأخذ العرب يحتجون بعنف ، دون جدوى .

وفي مارس ١٩٣٣ نشرت (اللجنة التنفيذية العربية) بياناً وطنياً ، أعلنت فيه أن (الحكومة) هي العدو الحقيقي الذي يجب الخلاص منه (بكل وسيلة قانونية) !!

وفي أغسطس ١٩٣٣ طالب المؤتمر الصهيوني المنعقد في براغ بوجوب أن يبني الوطن القومي بأسرع وقت ممكن ، وعلى أوسع نطاق .. فطالبت (الهيئة العربية العليا) المشكلة سنة ١٩٣٦ من مختلف الأحزاب ، برئاسة الحاج أمين الحسيني مفتي القدس ــ بإيقاف الهجرة الصهيونية برمتها ، وبتحريم انتقال أية أراض عربية إلى الصهاينة بعد ذلك ، وبإقامة حكومة وطنية تكون مسئولة أمام مجلس نيابي ينتخب عن طريق الاقتراع العام الديمقراطي .

وجرت عدة اغتيالات ومهاجمات من الجانبين أدت إلى (عصيان مدنى) عام ، وتوقفت حياة البلاد ، واشتدت أعمال العنف ، وألحق الدمار بالممتلكات الصهيونية ، وبالتدريج تحولت الاضطرابات إلي حرب صغيرة ، شنت فيها الهجمات على السكك الحديدية ومراكز الشرطة ،

وانتشرت أعمال القنص ، وتشكلت العصابات في التلال ، وامتنع الناس عن دفع الضرائب .

وبعد محاولة عز الدين القسام التي كان شعارها (كتاب الله في يد والبندقية في اليد الأخرى) ، ثم مالبثت أن أجهضت قبل أن تحقق هدفاً مرجواً ، مع أنها كانت تواكب انتفاضات ثورية فى كل من مصر وسوريا ـ آخذت العصابات العربية تكتسب مظاهر القوات العسكرية المنظمة تحت قيادة فوزي القاوقجي الضابط السابق في الجيش التركي ، ثم في الجيش العراقى .

وسقط عدد من المسئولين البريطانيين في فلسطين برصاص القناصة ، فعُززت القوات البريطانية ، واتخذت إجراءات تعسفية خطيرة لضرب القضية الوطنية كلها ، والتهب الشارع المصري فأعلن النحاس باشا تضامن مصر ـــ حكومة وشعباً ـــ مع الشعب الفلسطيني ، وكان بوسع مصر أن تفعل أكثر من هذا الإعلان ، وبخاصة أن مصر كانت مرتعاً خصباً للنشاط الصهيوني ، كما كان بوسع الشعوب العربية والإسلامية أن تتحرك ضد الوجود الصهيوني فيها ، لكنها جميعاً كانت محكومة بقوى خاضعة للاستعمار ، أو بالقوى الاستعمارية مباشرة ، ومن هنا اقتصر جهدها على (أرخص) الوسائل ، هتافات وشعارات واحتجاجات ومقالات .

●● ومع هذا ، فقد أرسلت الحكومة البريطانية (لجنة بيل) ـ لورد بيل نائب الملك السابق في الهند ـــ فأخذت تحقق وتستجوب ، وقدمت تقريرها في يوليه ١٩٣٧ ، مقترحة تقسيم فلسطين إلى ثلاثة أقسام : القسم الساحلي ، مع ما يليه من سهول خصبة لليهود ، والقسم الداخلي الذي يكون مع شرق الأردن كتلة واحدة للعرب ، وبينهما دولة الانتداب ، تشمل القدس وبيت لحم والناصرة ، وتشرف على القسمين الآخرين بمقتضى معاهدتين تبرمهما مع كل على حدة ، وبهذا يحرم العرب من المناطق التي تزرع زيتوناً وحبوباً في الجليل ، ومن مزارع البرتقال على ساحل البحر المتوسط ، ويرغمون على ترك المدن الساحلية .

لهذا ، لم يجد العرب بداً من رفض قرار التقسيم واستئناف الجهاد ،

وأعرب النحاس باشا للسفير البريطاني السير مايلز لامبسون في ١٤ يوليه ١٩٣٧ احتجاجه على مشروع التقسيم ، استجابة للمسيرات الشعبية من الإخوان المسلمين والشبان المسلمين ومصر الفتاة وطلاب الجامعة ..

وكان أن ردت الحكومة البريطانية على موقف العرب بعنف ، فخربت القرى ، وسجنت الأحرار ، وألغت وظيفة المفتى ، وأقامت المحاكم العسكرية في كل ناحية ، ثم حلت الهيئة العربية العليا ، واعتقلت أعضاءها ، واستطاع (المفتى) أن يفر إلى بيروت فالعراق .. هذا بينما (الوكالة اليهودية) في أحضان حكومة الانتداب تنعم بالأمان ، تنظم شئونها ، وتدبر خططها للمستقبل في طمأنينة ورضا ، بل إن قوات (الهاجاناه) التي كانت تضم عشرة آلاف مجند وأربعين ألف احتياطي انخرطت في (الدفاع) النشط ضد العرب (المتمردين) ، متعاونة مع القوات البريطانية في حراسة خطوط السكك الحديدية ، وخطوط أنابيب البترول إلى حيفا ، وفي دفاعات الحدود .

●● وتألفت لجنة أخرى برئاسة (وودهد) قدمت مقترحات أخرى للتقسيم في نوفمبر (١٩٣٨) ، فقررت انجلترا أنها كلها مشروعات غير قابلة للتنفيذ ، مادامت لاتحظى بقبول الرأي العام العربى الذى أخذ يعلن استنكاره بقوة ، في مواجهة السياسة البريطانية الجائرة .

وصارت قضية فلسطين قضية الشعوب العربية جميعاً .

●● اضطرت بريطانيا إلى عقد (مؤتمر المائدة المستديرة) فى لندن ، أوائل عام ١٩٣٩ ، حضره ممثلو الدول العربية ، وكان لمصر دور فعال فى هذا المؤتمر برئاسة على ماهر باشا المتحدث باسم الوفود العربية كلها .

وقد تظاهرت بريطانيا بأن هدفها التوفيق بين العرب واليهود ، فدعت ممثلي اليهود أيضاً ، تبحث الأمر مع كل فريق على حدة ، فهاجم العرب الانتداب واقتراح التقسيم ، وأوضحت بريطانيا موقفها في (كتاب أبيض) نشر في نفس العام ، يطالب بإدخال ٧٥ ألف يهودى في الأعوام الخمسة التالية ، على ألا يدخل البلاد يهودي آخر بعد ذلك إلا بموافقة العرب (!!)

وشنت الصهيونية حملة واسعة على ماجاء في هذا (الكتاب الأبيض) وحمل ونستون تشرشل لواء المعارضة ضد رئيس الوزراء (نيفيل تشمبرلين) .

وجدّ زعماء الحركة الصهيونية في إعادة بناء الأجهزة الصهيونية العاملة في الولايات المتحدة لتكون قادرة على ممارسة الضغوط حين يتطلب الأمر ذلك .

هذا بينما انشغل مؤيدو القضية الفلسطينية في مصر بتأليف لجان تتلقى التبرعات وترسلها إلى اللجنة العربية العليا ، وعملت على تحويل اعتمادات لجنة مساعدة الحبشة إلى مساعدة الثورة الفلسطينية ، ولم تكفّ صحف الإخوان المسلمين ومصر الفتاة والوفد ، وصحيفة الشورى الفلسطينية ، عن توجيه النداءات المتوالية إلى شعوب الدول الإسلامية والمسيحية ، تدعو إلى الدفاع عن مهبط الأديان وموطن المقدسات ، وتتابعت برقيات الاحتجاج إلى المندوب السامي بفلسطين ، ووزارة الخارجية البريطانية ، وعصبة الأمم .. حتى دقت الحرب العالمية الثانية أبواب العالم .

ألمانيا والعنف الصهيوني :

لاشك في أن ظهور حركة عنصرية لابد وأن يصطدم بأي حركة عنصرية أخرى ، لأن كلا منهما تدعى أنها الأرقى والأقدر على السيادة أو على البقاء .

سئل هتلر عن سبب عدائه لليهود ، فقال : (لايمكن أن يكون هناك شعبان مختاران ، ونحن وحدنا شعب الله المختار) .

والمعروف عن تاريخ اليهودى في توراته وتلموده وفي معاركه المستمرة مع الشعوب التى ينزل بها أنه رهن علاقة خاصة بالرب الذي لايكاد يعترف إلا بحق اليهودي في الحياة ، وفي تسخير الشعوب الأخرى ، أو إبادتها .

لهذا يظل اليهودى يتحدث عن نقاء دمه ، بالرغم من اعتراف أنبيائه باختلاط دمائه أو فساد الزرع المقدس إبان سنوات الأسر الطويلة ، وعبر

قرون الشتات ، ولا يزال اليهودي في انتظار (المخلّص) الذي سيمكنه من سيادة العالم .

ومن خلال دعوى (نقاء الدم اليهودى) تعتبر القوانين اليهودية (الأم) هى التى يعتد بها فى إثبات هذا النقاء .

ومن ثم قضت وزارة الداخلية في دولة إسرائيل أن السيدة (رينا عيتانى) غير يهودية ، بالرغم من كونها لأب يهودى ، ونشأت في ألمانيا يهودية ، واضطهدها الألمان النازيون لأنها يهودية ، واعتقلـها الانجليز في قبرص لأنها يهودية تسللت بطريق غير مشروع ، وتزوجت يهودياً في إسرائيل ، وعاشت تمارس الشعائر اليهودية ، وساهمت في بناء إسرائيل .

هذه الصورة العنصرية الكئيبة اصطدمت بالعنصرية النازية ، وتحالفت معها ، والتقتا عند قول نيتشه : (املأ حياتك بالخطر ، شيد مدائنك على مقربة من بركان فيزوف ، ابعث سفائنك إلى البحار المجهولة ، عش في حرب دائمة) .

وقد وجدت كل منهما في الأخرى عوناً على تحقيق أهدافها ، حتى في مصادمتها ، لهذا ، لانعجب إذا كان الشباب الصهيوني يهتف : (ألمانيا لهتلر ، وإيطاليا لموسولينى ، وفلسطين لجابوتنسكى) ، فى الوقت الذى كانت فيه النازية تؤرث العداء ضد السامية .

وقد عمقت كل من النازية والصهيونية الأعتزاز بالخصوصية القومية وكره الغير ، أو تحقيره ، وكما كان على اليهودى في كل مكان أن يكون ولاؤه لإسرائيل ، فإن على جميع المنحدرين من العرق الألمانى أن يكون ولاؤهم الأول لألمانيا .. وقد عرّف استرايخر ألمانيا العظمى بأنها (أرض يمكن أن يعيش فيها كل الألمان ، وكل الشعوب التي تجرى فيها دماء ألمانية) ، تماماً كما جرى عليه التفكير الصهيوني على أرض فلسطين .. لهذا التقت كثير من الأفكار النازية والصهيونية حول (السوبرمان ، والتركيز على الماضي والمستقبل ، واحتقار العبيد والدياسبورا ، وإنكار التاريخ الحقيقي ، وإعادة صياغته ، ومعاداة الفكر المتحرر ، والالتزام بدين دون

إله) ، بل إن (اليهود شاركوا بشكل ملحوظ فى العمل على سيطرة النازية) .

وقد أخذ المد العدواني ضد اليهود طريقه في ألمانيا سنة ١٩٣٣ ، عقب تولى النازية الحكم ، إذ اتجه الشباب إلى إشعال النقمة ضد من ليس جرمانيا آريا ، وأصدر هتلر قراراً بمقاطعة اليهود أول أبريل ١٩٣٣ ، باعتبارهم لصوصاً وجواسيس على ألمانيا ، وسمح للصهاينة وحدهم بمزاولة نشاطهم ، وجمع التبرعات من أجل تشجيع الهجرة والاستقرار في فلسطين .

وفي ا لسابع من أبريل — من نفس العام — أصدر قراراً بفصل كل من ليس آرياً من عمله .

وفي ١٥ سبتمبر ١٩٣٥ صدر القانون الذي يقضي بضرورة الاحتفاظ بالدم الآرى ، وأصبح اليهود مواطنين من الدرجة الثانية ، مما ساعد على تحقيق الأماني الصهيونية ، فقد كانوا يسعون إلى حرق الأرض تحت أقدام اليهود حتى يسارعوا بالهجرة ، فهاجر كثيرون إلى أمريكا وفلسطين .

وفي مارس ١٩٤١ صدر قرار بالقضاء البيولوجى على اليهود ، وسيق الألوف — أو الملايين كما يدعون — إلى غرف الغاز [١] في داخاوا ويلزن وتزلنكا ويوخنفالد وأوشفتس وغيرها من معسكرات الاعتقال .. لكن ما جاء في كتاب (جاحاش) أي التصلب الإنساني — بقلم المحامى وعضو البرلمان (الكنيست) شموئيل تمير ، وما ورد فى محاكمة الدكتور كاستنر — كشف عن الدور الخطير الذى لعبه رؤساء الوكالةاليهودية فى هذا السبيل ، وأفاد بأنه كان لهم التأثير المباشر في إبادة يهود هنغاريا ، البالغ عددهم ٨٥٠ ألفا ، من أجل التوجه إلى العالم بعد ذلك ، للمطالبة بثمن تلك المجزرة ، التى حدثت أو ادعوا حدوثها ، وكان الثمن فى ذلك الحين إقامة دولة صهيونية .

وجاء فى كتاب (إيخمان فى أورشليم) أنه تمت عمليات تبادل (حفنة من الصهاينة نظير الموافقة على إبادة مئات الألوف من اليهود العاديين) !!

---

(١) كذبت دراسة جامعية فرنسية نوقشت عام ١٩٨٦ هذه الدعوى الكبرى التي روج لها الصهاينة .

وإيخمان هذا – الذى تولى مسئولية الإشراف على اليهود فى الحكومة النازية – ساعد الصهاينة فى تأسيس معسكرات تدريبية للمهاجرين اليهود ، وطرد مجموعة من الراهبات من ديرهن حتى يزود بعض الشباب اليهود بمزرعة تدريبية .

وبمقتضى اتفاقية (الهعفراه) بين النازيين والمستوطنين الصهاينة فى فلسطين – صرح النازيون لليهود بالهجرة ، ووافقوا على الإفراج عن أموالهم ، على أن تودع فى أحد البنوك الألمانية ، وأن يتم إنفاقها داخل ألمانيا ذاتها ، عن طريق شراء البضائع والآلات ، ومنحت ألمانيا مؤسسة (الهعفراه) الصهيونية حق احتكار البضائع الألمانية المصدرة إلى فلسطين ، وترتب على هذا استيراد خيرة الفنيين اليهود الألمان ، والآلات الألمانية التى كانت تحتاجها المستوطنات الصهيونية .

ولما صار (كاستنر) مسئولا عن (إنقاذ) المهاجرين اليهود من بولندا وتشيكو سلوفاكيا – ربطته بإخمان علاقات مباشرة ، وهو الذى أقنع اليهود الذين تقلهم القطارات إلى معسكرات الإبادة بأنهم ذاهبون إلى معسكرات تدريب مهنى .

وأما ألفريد نوسيج الفنان النمسوى ، الذى حضر المؤتمر الأول ، فقد عمل جاسوساً للألمان فى الحرب العالمية الثانية ، ووضع خطة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء .. وحينما وصلت القوات النازية إلى بولندا ، قام (نوسيج) بتقديم عدة خطط للهجرة اليهودية ، فعيَّنه النازيون عضواً في (قسم الشئون اليهودية) ، ورئيساً لقسم الفنون اليهودية التابع لها .

●● وقد انعكس العنف الألماني الصهيوني على الوجود اليهودي في فلسطين ، فتألفت الجمعيات الإرهابية ، وظهرت عصابات (الهاجاناه) ـــ الدفاع ـــ و (أرجون زفاي لومى) ـــ الهيئة الوطنية الحربية ـــ و (اشتيرن) نسبة إلى زعيمها الذي كان أحد أفراد العصابة التي اغتالت اللودر موين بالقاهرة سنة ١٩٤٥ .

وكما جاء في (الكتاب الأبيض) سنة ١٩٣٩ أخذت انجلترا بمبدأ تقييد الهجرة ، دون إرادة الصهاينة ، فنشطت العصابات الصهيونية قتلًا

وتدميراً ، لترغم الحكومة الإنجليزية على تغيير سياستها ، مما ساعد على ازدياد الاضطراب ، واختلال الأمن ، لترغم الحكومة الإنجليزية على تغيير سياستها ، مما ساعد على ازدياد الاضطراب ، واختلال الأمن ، وبخاصة أن نوعيات مختلفة من المهاجرين المدربين على حمل السلاح ظلوا يتسللون إلى البلاد بوسائل كثيرة .

تعاظم دور أمريكا :

في سبتمبر ١٩٤٤ أعلنت وزارة الحرب البريطانية عن تكوين فرقة يهودية تقاتل إلى جانب الحلفاء ، وأصبح للفرقة علمها الذي تحمله في الاستعراضات العسكرية .

ولما كان هذا قد تم والحرب مؤذنة بالانتهاء ، وتبين رجحان كفة الحلفاء ، فقد أصبح الأمر خاصاً بإعداد جيش قوي يكون عوناً على قيام دولة إسرائيل .

ومن خلال هذا التكوين العسكري تأكد وجود حركة صهيونية سرية تنظم تسلل ٢٠٠٠ يهودى كل أسبوع ، إلى منطقة الاحتلال الأمريكي في أوربا ، ثم تنظم تسللهم من جديد إلى شواطىء البحر المتوسط ، وهناك يركبون سفناً أعدتها الحركة الصهيونية لنقلهم إلى فلسطين ، كما كانت تقوم بتمويل أطعمة هيئة الإغاثة الدولية UNRWA لصالح المهاجرين اليهود .

وعندما أذاع الجنرال الامريكي فردريك مورجان ، رئيس فرع هيئة الإغاثة في ألمانيا ، تقريره عن هذا النشاط السرى — صدر قرار بفصله من منصبه ، بتهمة العداء للسامية .

فإذا أخذنا فى الاعتبار أن النفوذ الصهيونى فى الكونجرس الأمريكى حصل على توقيع ثلث أعضاء الكونجرس ، إلى جانب توقيعات ١٥٠٠ شخصية أمريكية ، على بيان يطالب بإنشاء جيش يهودى — عرفنا كيف أن وايزمان استطاع الحصول على إعلان وزارة الحرب البريطانية ، من أجل تكوين نواة الجيش الإسرائيلى ، وعرفنا مدى المساعدات الانجليزية الأمريكية للحركة الصهيونية السرية التى تعمل على تنظيم هجرة اليهود .

ويلاحظ أن الصهاينة قد نجحوا فى أكتوبر ١٩٤٣ م ، فحملوا الكونجرس على إصدار قرار بتأييد مطالب الصهيونية فى إقامة دولة يهودية ، مما حدا بالصهاينة إلى محاولة تجاوز الوجود البريطانى ، ومخالفة القوانين التى سنتها حكومة الانتداب ، وتسربت الأسلحة البريطانية والأمريكية إلى أيدى الهاجاناه وأرجون زفاى واشتيرن ، لتعمل ضد العرب والإنجليز معاً .

وما كادت الحرب تنتهى سنة ١٩٤٥ حتى سقطت حكومة المحافظين البريطانية ، وتولت حكومة العمال متنصلة من أى التزام يقيد النشاط الصهيونى فى فلسطين .

وفى الوقت نفسه خلف (ترومان) روزفلت فى رئاسة الولايات المتحدة ، بعدما خرجت من الحرب أقوى دولة فى العالم ، ولم يكن للولايات المتحدة الحنكة والدراية السياسية ، فاندفع (ترومان) فى السياسة الدولية ، يحركه الإحساس بقوة بلاده ، وبخاصة أن الحلفاء كانوا يعانون من آثار الحرب التى خرج منها المهزوم والمنتصر على السواء ، يعانى كل منهما الخراب والدمار ، وملايين الأرامل والثكالى .

وكان للمليونير اليهودى (برنارد باروخ) ، مستشار البيت الأبيض ، دوربارز فى تحريك سياسة بلاده ، فى عهدى ترومان وأيزنهاور ، على وجه خاص ، أى فى أهم فترة من حياة إسرائيل .

لذلك طلب ترومان من الحكومة البريطانية الترخيص بهجرة ١٠٠ ألف يهودى إلى فلسطين ، ولما كان الطلب أقرب إلى الإملاء ، فقد رأى الإنجليز إصدار قرار بفتح باب الهجرة بنسب معينة ، فى صورة إجراء مؤقت ، لكن الكونجرس كان يدرس مشروعاً لمنح انجلترا قرضاً قدره ٣٧٥ مليون دولار ، مما ساعد على إرغام بريطانيا على التراجع ، واتخاذ موقف أكثر (مرونة) .

ويلاحظ أن عام ١٩٤٦ كان عام الانتخابات التى أتت بترومان ، فلعب الصهاينة دورا هاما – بحكم التأثير اليهودى فى محيط المال والاقتصاد والإعلام – حتى شعر ترومان بأهمية الحصول على أصوات اليهود ومساندتهم ، وتوارث من بعده حكام أمريكا الشعور بخطورة الدور الصهيونى ، ولما كان الوجود

الأمريكى محكوماً بالقوة المادية ، وبالمغامرة ، وبكونه دولة مهاجرين ، فقد وجدت السياسة الصهيونية تربة طيبة لدعاويها ، وبخاصة أن الوجود العربى كان أقرب إلى (السراب) الصحراوى ، مجرد وجود على (الخريطة) لا على الواقع السياسى ، لهذا كانت ورقة الانتخابات مجرد مهرجان لإظهار القوة ليس غير ، فقد كانت السياسة الأمريكية تعمل جاهدة لصالح الدولة الإسرائيلية ، قبل أن يكون هناك وطن لهذه الدولة ، لكن الصهاينة ما كانوا ليغفلوا عن أهمية زيادة الوقود ، وإثارة الدوافع ، وتهوين أمر العرب ، وإعلاء شأن اليهود .

●● لكن حكمة اللصوص اقتضت الاستفادة من غفلة الحراس وجهلهم . ولما كان الوقت وصالح اليهود فى قضم الثمرة لا فى ابتلاعها ، وفى أن يتم كل شىء وفق الإمكانيات المتاحة للوجود اليهودى ، فقد اتخذ الكونجرس الأمريكى فى ديسمبر ١٩٤٥ قراراً بالإجماع ينص على ضرورة بذل الولايات المتحدة مساعيها الحميدة لدى سلطات الانتداب فى فلسطين لفتح أبواب الهجرة اليهودية ، وتشكلت لجنة إنجليزية أمريكية برئاسة (هتشسون) القاضى الأمريكى للنظر فى مسألة الهجرة والإقامة وغير ذلك من الشئون الفلسطينية ، وجاء تقرير اللجنة سنة ١٩٤٦ مؤيداً لطلب ترومان أن تلغى بريطانيا قيود تحديدالهجرةوالملكية ، لكنها أوصت بألا تصبح فلسطين دولة يهودية أو عربية بل تكون حكومة فلسطين خاضعة للضمانات الدولية التى ترعى احترام مصالح المسلمين والمسيحيين واليهود فى الأراضى المقدسة ، وذلك كخطوة مرحلية ، حرصاً على أن يظل الحراس فى غفلتهم ، يدخنون الحشيش ، ويستمتعون بصوت كوكب الشرق (فضلت أصالح فى روحى) .

وتحت تأثير أمريكا والدول الاستعمارية ، وبين المناورات والمؤامرات ، وإغراءات الصهاينة للمندوبين،وانشغال الشارع العربى (بالاستقلال التام أو الموت الزؤام) ، اجتمعت الجمعية العمومية للأمم المتحدة ، وأصدرت فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ قراراً يقضى بتقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ويهودية ، ووضعت الخرائط الموضحة لحدود هذا التقسم ، (على أن تبذل السلطة المنتدبة أفضل مساعيها لضمان الجلاء عن المنطقة الواقعة فى أراضى الدولة اليهودية ، على أن تضم ميناء بحرياً ، وأرضاً خلفية كافية لتوفير

تسهيلات هجرة يهودية كبيرة ، وذلك فى أسرع وقت ممكن ، على ألا يتأخر بحال من الأحوال عن فبراير ١٩٤٨) .

فى هذاالوقت كانت (الجامعة العربية) قد حملت راية الدفاع عن القضية الفلسطينية ، وأخذت فى تشكيل قيادة الحركةالوطنية الفلسطينية ، مما شجع اللجنة العربية العليا على رفض مقررات اللجنة الأنجلوأمريكية ، وتقرر عقد مؤتمر بلودان بسوريا ، اتخذت فيه قرارات برفض التقسيم ، والعمل على المقاطعة الاقتصادية ، وفرض عقوبات مادية وأدبية (على مَنْ ، وبأى وسيلة ؟! هذا ما لا تزال تتشدق به الحكومات العربية بعد أربعين عاماً) .. لقد وقفت الحركة العربية عند سطح الأحداث ، تعقد لجاناً ، وترسل برقيات احتجاج ، وتنذر بالثبور وعظائم الأمور ، على حين كان التيار الصهيونى يلتف حول الجذور ، ويتحكم فى القوى التحتية التى تصنع الدوامات ، القادرة على ابتلاع التظاهرات العربية (الساخطة) ، بل على ابتلاع (الانتصارات) العربية المسلحة التى حققها جيش الانقاذ الفلسطينى بقيادة البطل عبد القادر الحسينى .

جاء فى مذكرات ترومان : (الحقيقة هى أن الضغط الذى وقع على الأمم المتحدة فى ذلك الوقت لم يكن له مثيل قط ، وأن البيت الأبيض تعرض لضغط لا أظن البيتُ الأبيض تعرض لمثله فى أى وقت .. إن إصرار وإلحاح الزعماء الصهيونيين الذى تحركه دوافع سياسية مصحوبة بالتهديدات قد ضايقنى وأزعجنى حقاً ، بل إن بعضهم كان يطلب منا أن نضغط على دول ذات سيادة للحصول على الأصوات المطلوبة فى الجمعية العامة) .

وذرّا للرماد فى العيون نجت من هذه الضغوط ثلاث عشرة دولة عربية وإسلامية ، بالإضافة إلى الهند واليونان وكوبا ، فقد كانت أكثر الدول الأعضاء واقعة تحت النفوذ الأمريكى المباشر .

وفي ١٨ مارس ١٩٤٨ قابل وايزمان ترومان ، وانفتح الباب لقرار أمريكي جديد ، هو الاعتراف بإسرائيل يوم ١٤ مايو من نفس العام ، بعد إحدى عشرة دقيقة فقط من قيام الدولة ، ولم يسبق أمريكا إلى الاعتراف سوى الاتحاد السوفيتي !!

والعرب .. ماذا يملك العرب ؟!

ما كان للعرب إلا أن يرفضوا القرار ، وإلا أن تثور عواصف السخط والاحتجاج أشبه بالعواصف الترابية التي تحجب الرؤية في الصحراء لحظات ، ثم لاتلبث أن تنام على ظهور التلال .

إن العرب ، حتى يومنا هذا لايملكون اتخاذ القرار إلا من خلال الاستناد إلى صدر إحدى الدول الكبرى ، أو الوقوف بين يديها ، فنحن قد نسب ونلعن الاتحاد السوفيتى ، حين نأوي إلى جدار الولايات المتحدة الأمريكية ، ونسب ونلعن الولايات المتحدة الأمريكية ، حين نأوي إلى صدر الاتحاد السوفيتي ، ونصم آذاننا عن سماع ضحكات (عالية الذبذبات) تطلقها الدول الكبرى .

●● لقد أصبحت أمريكا صاحبة القرار ، حتى ترضى اليهود ، فتحرز أصواتهم ، وتنتفع بنفوذهم ، وحتى يكون لها في قلب الشرق العربي ، وفي (مستنقع) البترول ، قاعدة استعمارية تحرك بها الريح حيث تشاء .

وظلت انجلترا تجرى لاهثة خلف أمريكا ، لتؤكد دورها الطليعى في خدمة الصهيونية ، وكما يقول وايزمان في مذكراته : (لقد احتضنت بريطانيا حركة الصهيونية منذ نشأتها ، وأخذت على عاتقها تحقيق أهدافها ، ووافقت على تسليم فلسطين خالية من سكانها العرب لليهود في سنة ١٩٣٤ ، ولولا الثورات المتعاقبة التي قام بها عرب فلسطين لتم إنجاز هذا الاتفاق في الموعد المذكور) .

ويقول بن جوريون : (ان حزب العمال كان قد سبق له أن اتخذ خلال الحرب قرارات تدعو إلى قيام دولة يهودية ، قرارات فيها ما هو أكثر مما طالبت به الوكالة اليهودية نفسها في أي وقت ، وخصوصاً القرار الذي يقضي باقتلاع كل العرب في الدولة اليهودية ، ونقلهم إلى البلاد العربية المجاورة) .

وقد أعلنت انجلترا أن الانتداب سينتهي في أغسطس ١٩٤٨ ، ثم قدمت الميعاد فجأة ، ليكون في ١٥ مايو من نفس العام ، بعد أن هيأت لليهود

سبيل الاستيلاء على المناطق الاستراتيجية ، وبعد أن دربت للإسرائيليين جيشاً زودته بأحدث الأسلحة ، وبعد أن اختلط الأمر على العرب فلم يعودوا يدرون أيخوضون حرباً شعبية أم حرباً نظامية !!

وقد حرص اليهود ، في الأيام الأخيرة من حكومة الانتداب ، على الاستيلاء، ما وسعهم الأمر ، على أكبر مساحة من الأراضي خالية من أصحابها ، فكان رجال الهاجاناه يصفّون شحنات متفجرة حول القرى ، ويبللون إطارات النوافذ والأبواب بالبنزين ، ثم يطلقون نيرانهم ، فيحترق القاطنون القانطون (نياماً) كما حدث في قرية الشيخ وفي قرية سَعْسَعْ ! !

وفي ٢ أبريل ١٩٤٨ أحاطت منظمة الأرجون التي يرأسها مناحم بيجن بقرية دير ياسين ، وقتلت ٢٥٠ رجالًا ونساءً وأطفالًا .

وبعد ثلاثة أيام من المذبحة تم تسليم القرية للهاجاناه لِتكون مطاراً .

وحين رحل الإنجليز قاد موشى ديان طابوراً من سيارات الجيب يجوب شوارع مدينة اللد ، ويطلق النار على كل شيء يتحرك .

وعندما تم الاستيلاء على رام الله ألقي القبض على جميع من بلغوا سن التجنيد ، وأودعوا معتقلات خاصة ، وتحت وطأة المذابح اضطر الفلسطينيون إلى ترك حيفا وعكا والرملة وبيسان ، بالإضافة إلى ٣٨٨ مدينة صغيرة ، والجزء الأكبر من ٩٤ مدينة أخرى .

واستهلت إسرائيل تزأر :

جاء في وثيقة إعلان دولة إسرائيل : (نحن ندعو الشعب اليهودي في كل أماكن شتاته ليتوحد حول المتوطنين عن طريق الهجرة ، وأن يقف إلى جانبهم في المعركة الكبيرة لتحقيق حلم الأجيال في تحرير إسرائيل) .

ومن أجل تحرير إسرائيل تحركت الجيوش العربية ، تحت قيادة (جلوب) رئيس أركان الملك عبد الله القائد العام للجيوش العربية ، فتمكنت إسرائيل من الاستيلاء على أرض فلسطين ، ما عدا الضفة الغربية للأردن وقطاع غزة .

ومما يؤسف له أن الزعماء العرب شجعوا الفلسطينين على الهجرة ، على أمل أن يلحقوا باليهود هزيمة سريعة ، فهرب حوالي ٨٧٠ ألفاً من مجموع مليون و ٣٠٠ ألف عربي في المناطق التي احتلتها إسرائيل ، فكان عدم تحقيق النصر عاملًا على خلق مشكلة اللاجئين .

وكانت نهاية المطاف عقد الهدنة في رودس ، مارس ١٩٤٩ .

يقول توينبي : لقد شاركت ثلاثة عوامل في وقوع كارثة فلسطين ، أولها صعود الطائفة اليهودية في الولايات المتحدة ، إلى درجة من القوة الاقتصادية والسياسية ، في حلبة السياسة الأمريكية الداخلية ، يسعى كل من الحزبين المتنافسين إلى الاستعانة بها ، ويتجنب إغضابها ، أو تنفيرها .. وثاني هذه العوامل الحاسمة القتل الجماعي لليهود في أوربا ، فيما بين سنوات ١٩٣٣ / ١٩٤٥ على أيدي الألمان المسيحيين .. وثالثها اندلاع الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية .

ويمكن إضافة عامل آخر أهم ، وهو المهارة الفائقة في استغلال العوامل السابقة لحساب المخطط الصهيوني ، لدرجة أن الدول الكبرى صارت تتنافس ، في خطب ودّ إسرائيل بالمساعدات المالية والعسكرية ، وتشجيعها على المذابح الإجرامية ، لتكسب كل يوم أرضاً جديدة .

هذا إلى الاخفاق العربي ، بسبب من القصور الذاتي ، وعدم القدرة على اللعب بأوراق كثيرة كانت في حوزتهم، فضلاً عن الوقوع في براثن السياسة الدولية ، والمتاجرة الحزبية ، والمناورة الفردية .

ومع ذلك يقول بن جوريون : (إن إسرائيل ليس لها في العالم غير حليف واحد وفيّ ، هو الشعب اليهودي ، إن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي لاأقارب لها ، سواء من ناحية الدين أو اللغة أو الأصل .. إنها شعب يعيش في هذا العالم بمفرده) .

عبارة هي مزيج من لغة (التوراة) الاستعلائية ، ومن حياة (الجيتو) الانعزالية ، ومن وقفة (حائط المبكى) العدوانية، عبارة يترجمها القتل والتخريب والتدمير في الأرض العربية ، ثم في جميع أنحاء العالم .

هذا بينما تقول ها أرتس فى ٣٠ ديسمبر ١٩٥١ : (إن إسرائيل قد تم تعيينها لتقوم بدور الحارس الذي يمكن الاعتماد عليه في معاقبة دولة أو عدة دول ، من جيرانها العرب الذين قد يتجاوز سلوكهم تجاه الغرب الحدودَ المسموح بها) .

وحتى تتمكن من القيام بهذا الدور كان لابد من تطهير الأرض التي قامت عليها ، كما كان لابد من تخويل (المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية) تنظيم الهجرة في الخارج ، ونقل المهاجرين وممتلكاتهم إلى إسرائيل ، وتعبئة كافة الموارد لتمويل هذه الأنشطة الصهيونية .

أعلن بن جوريون أمام لجنة العمل الصهيوني أنه (ينبغي أن يكون لدى الصهاينة ، في الدول الأخرى ، الشجاعة الكافية لتأييد دولة إسرائيل ، حتى عندما تقف دولهم ضدها ، وعلى عامة اليهود ، في مختلف الدول ، أن ينظروا إلى السفير الإسرائيلي على أنه يقوم بتمثيلهم) .

بهذا انطلقت القوى الظاهرة والخفية ، في الداخل والخارج ، تعمل لتدعيم الكيان الجديد ، وذلك بطرد (الشعب) العربي من الداخل ، وحث اليهود في الخارج على الهجرة ، لتعمير الأرض التي خلت من أهلها ، ولما كان أكثر اليهود متمسكين بالوجود في الأرض التي نشئوا عليها ، ونسجوا شباكهم الاقتصادية فيها ، فقد كان على المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية العمل على إزعاجهم وتهديد أمنهم (لأنه إذا تحققت العدالة لليهود ، أينما وجدوا ، فإن هذا يعني إفلاس الصهيونية) .

●● وعلى هذا ..

قامت وحدة من الجيش الإسرائيلي ـــ في أول أكتوبر ١٩٥٢ ـــ بمهاجمة قرية قبية الأردنية ، دون إنذار ، ونسفت حوالي ٣٠ منزلًا على رءوس ساكنيها ، وقد ذهب ضحية تلك الغارة أكثر من ٥٠ رجلًا وامرأة وطفلًا .

وفي ٢٨ فبراير ١٩٥٥ ، شُنت غارة على قطاع غزة ، أعقبتها غارة أخرى على خان يونس وما حولها في ٣١ أغسطس من نفس العام ، واستمر القتل والتخريب والنهب والسلب .

وعشية الهجوم على مصر سنة ١٩٥٦ قامت قوات الأمن الإسرائيلي على كفر قاسم بغارة وحشية قتلت فيها ٤٩ من الفلاحين العرب ، بينما كانوا عائدين من حقولهم ، بتهمة خرق نظام منع التجول الذي فرضته السلطات الإسرائيلية صباح ذلك اليوم ، والفلاحون في حقولهم لايعلمون .

وفي سنة ١٩٥٦ تحركت كل القوى التي تعمل إسرائيل من خلفها وتحت لوائها ، فشنت انجلترا وفرنسا عدواناً على مصر ، لتحطيم قواها العسكرية والاقتصادية والسياسية ، التي أخذت تنمو .. وجمدت أمريكا أرصدة مصر لديها ، وشنت حرباً اقتصادية سنة ١٩٥٧ ، ومنعت تزويدها بالقمح ، حتى يطحنها الجوع فتستسلم .

وفي سنة ١٩٦٢ أمكن الإيقاع بمصر ، لاستنزاف قواها على شعاب اليمن ، مما شجع إسرائيل على القيام بحرب خاطفة سنة ١٩٦٧ ، لتقضي على كل أمل للعرب في استعادة الأرض ، ولتمد إسرائيل أجنحتها في غزة وسيناء والضفة الغربية للأردن ومرتفعات الجولان ، وكلها صارت تخضع لقوانين الطوارىء التي تحرم السكان العرب من كافة الحقوق المدنية ، وتخضعهم لأهواء الحكومة العسكرية .

وفي ١٥ يونية ١٩٦٩ صرحت جولدا مائير ـــ رئيسة وزراء إسرائيل آنئذ ـــ حين سئلت عن مصير الفلسطينيين ، بقولها : (الفلسطينيون ؟! أين هم ؟ ليس شيء كهذا) ؟!

ذلك لأن إسرائيل تمكنت من تحقيق حلمها (أرض بلا شعب) فدمرت ٣٨٥ قرية في فلسطين ، من مجموع القرى البالغ عددها ٤٧٥ ، وقامت القوات المسلحة الإسرائيلية بتدمير أكثر من عشرة آلاف منزل ، وإزالتها ، في منطقة غزة والضفة الغربية ، وذلك في الفترة ما بين يوليه ١٩٦٧ وديسمبر ١٩٧٢ ، خلال حكم جولدا مائير !!

ومن المثير حقاً أن ما قالته مائير سنة ١٩٦٩ إنما هو ترديد عبارة لاتزال تتكرر بصورة أو بأخرى ، تعبيراً عن سياسة مرسومة ، منذ بداية التفكير في إنشاء دولة يهودية .

لم يشر هرتزل في كتابه (الدولة اليهودية) الصادر سنة ١٨٩٦ ـــ أية إشارة إلى العرب ، وأكد في حديث له أن المشروع الصهيوني واضح للغاية ، وسهل التحقيق ، إذ هو (إعطاء أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) .

ولعل ما دفعه إلى هذا القول أن عدد المستوطنات اليهودية حتى سنة ١٩٠٠ قد بلغت ٢٢ مستوطنة ، في ٢٢١ ألف دونم ، دون أن تتحرك يد عربية أو وجدان عربي ، حتى إذا كانت سنة ١٩١٤ بلغ عدد المستوطنات ٤٧ ، دون تحريك ساكن عربي .

وظلت المستوطنات تتضاعف حتى بلغت سنة ١٩٣٦ ـــ ١٧٢ مستوطنة ، ثم توقف المد الصهيوني أو كاد أيام الثورة الوطنية التي استمرت ثلاث سنوات حتى ١٩٣٩ ، ثم خطا خطوات هادئة ، خلال الحرب الثانية ، حتى بلغ عدد المستوطنات سنة ١٩٤٦ ـــ ٢٧٤ ، حتى إذا قامت دولة إسرائيل ، تم إنشاء ٣٧٠ مستوطنة زراعية ، في الفترة ما بين ١٩٤٨ ـــ ١٩٥٣ ، وكلها مستوطنات ذات أهمية استراتيجية ، وفي الفترة ما بين ١٩٤٨ / ١٩٦٧ تحولت أكثر من ٤٠٠ قرية عربية فلسطينية إلى مستوطنات ومستعمرات إسرائيلية بعد إزالتها وطرد سكانها .

أليس هذا هو التعبير الصحيح عن (أرض بلا شعب) ؟!

لو أننا نظرنا إلى المساحات العربية الشاسعة في مصر والسودان والعراق والجزائر والمغرب ، تلك التي تنعم بالأنهار الكبرى والمياه الجوفية الطائلة ، وقارنا بينها وبين ما يجري في فلسطين ، ألا نراها هي الأخرى أرضاً بلا شعب ؟! وإلا فلماذا تزداد مساحة التصحر يوماً بعد آخر ، ولماذا يموت الشعب في السودان جوعاً ، وتخضع سياسات الشعوب الأخرى طمعاً في مزيد من حبات القمح ؟!

سأل أينشتين وايزمان : (وماذا سيحدث للعرب إذا أعطيت فلسطين لليهود ؟) أجاب وايزمان : (أي عرب ؟ إنهم قليلو الشأن) وإن كانوا كثيري الإنجاب !!

في هذا الوقت كان اليهود ٢٥ ألفاً بين نصف مليون فلسطيني !!

وفي سنة ١٩٤٨ رد بن جوريون على الكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة ـــ حين طلب منه أن يترك العرب يعودون إلى ديارهم ـــ بقوله : (سنفعل كل شيء حتى لايعودوا أبداً) !!

* * *

من الجدير بالذكر هذا الحوار الذي دار بين المستشرق اليهودي (ليوبولد فايس) الذي أسلم وتسمى باسـم (محمد أسد) وبين حاييم وايزمان .

التقيا في بيت صديق يهودي أيضاً بفلسطين ، سنة ١٩٢٢ ، قبل أن يسلم محمد أسد بأربع سنوات .

قال فايس : كيف تأملون أن تجعلوا من فلسطين وطناً لكم في وجه مقاومة عنيفة من العرب الذين هم على أي حال أكثرية أهل البلاد ؟

هز الزعيم الصهيوني كتفيه ، وأجاب بجفاء : إننا نتوقع ألا يكونوا أكثرية في سنين قلائل .

قال فايس : بغضّ النظر عن الصعوبات السياسية التي قد تنجم عن مقاومة العرب ، ألا تجد في نفسك اهتماماً بالناحية الإنسانية والخلقية في هذه القضية ؟ ألا ترى في طرد أناس من بلادهم ـــ التي لم يزالوا يسكنونها منذ القدم ـــ فعلًا خاطئاً من جانبكم ؟

أجاب وايزمان : لكنها بلادنا نحن ، وإننا لانعدو بذلك استرداد ما كان أخذ منا بغير وجه حق .

قال فايس : غير أنكم مازلتم بعيدين عن فلسطين طوال ألفى سنة تقريباً ، وقبل ذلك كانت مدة حكمكم للبلاد أقل من خمسمائة سنة ، لم تشملها كلها إلا في فترة وجيزة ، أفلا ترى أن العرب يحق لهم بهذا المنطق المطالبة بأسبانيا ، إذ حكموها سبعمائة سنة تقريباً ، ولم تدل دولتهم فيها نهائياً إلا منذ خمسمائة سنة فقط ؟

هنا بدا الدكتور وايزمان كأنما ضاق ذرعاً بفايس ، وقال : محال ، إنما غزا العرب أسبانيا ، ولم تكن موطناً لهم من قبل ، ولقد كان وجه الحق إن يخرجهم الأسبان منها .

قال فايس : عفوك يادكتور ، يبدو لي هنا خطأ تاريخي ، أن العبرانيين على أي حال قدموا فلسطين غزاة أيضاً ، ولقد توطن فيها لعصور خلت كثير من القبائل السامية ، منهم الأموريون والأدوميون والفلسطينيون والموابيون والحيثيون ، وقد ظلت هذه القبائل مقيمة في فلسطين ، حتى في أيام مملكتي إسرائيل ويهوذا ، ولم يزالوا كذلك إلى ما بعد طرد الرومان أسلافنا من هذه الديار ، وهم أولاء يعمرونها حتى يومنا هذا .. إن العرب الذين أقاموا في سوريا وفلسطين ، بعد الفتح الإسلامي ، في القرن السابع الميلادي ، إنما كانوا أقلية ضئيلة في السكان ، أما البقية الذين يطلق عليهم اسم (العرب السوريون) أو (الفلسطينيون) إنما هم في الحقيقة المستعربون من سكان البلاد (الأصليين) بمعنى أنهم توطنوا البلاد حتى من قبل العبرانيين .

لم يملك وايزمان ــ بعد هذا ــ إلا أن يبتسم ، وأدار بلباقة دفة الحديث إلى موضوعات أخرى .

● ● قد تفسَّر ابتسامة وايزمان بالسخرية من اتخاذ المنطق التاريخي وسيلة لدحض واقع يتحرك على الأرض العربية ، مزوداً بفأس وبندقية ، وغدا تتحرك فيه أحدث الآلات الزراعية والصناعية والعسكرية ، وتصب فيه المعونات الأوربية والأمريكية والمال العربي الذي يملأ خزائن أوربا وأمريكا ، وغدا يتحدث موشى دايان بصراحة عن إنشاء امبراطورية إسرائيلية (فبراير ١٩٥٢) ، وتظل الحدود الإسرائيلية تتسع لتصل كما يقول سفر التكوين (من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات) ومن ثم لايعلن دستور لهذه الدولة ، (حتى يترك المجال مفتوحاً أمام التوسع اللانهائي ، لأن الدستور الرسمي يتطلب رسماً دقيقاً للحدود) ، وهو ما يحول دون تدفق الهجرات اليهودية ، حتى بلغ تعداد يهود إسرائيل سنة ١٩٨٠ ــ ٣٫٩ مليون .

ومن عجيب أمر العرب أنهم ما يزالون متعلقين بحبال أمريكا ، يرون فيها

الحليف القوي الذي يملك حمايتهم ، كما يملك حل النزاع بينهم وبين المطامع الصهيونية ، متجاهلين تلك المساعدات التي يغدقها الأمريكان على إسرائيل ، حتى بلغت المعونة السنوية المقدمة لكل إسرائيلي ما يزيد على ٨٠٠ دولار ، وهو مبلغ يفوق بكثير دخل الفرد في معظم الدول الآسيوية والأفريقية ، ومتجاهلين التأييد المطلق — على جميع المستويات الأمريكية — للتجاوزات الإسرائيلية ، داخل الحدود العربية ، حتى ضربت المفاعل الذري في العراق ، واحتلت جنوب لبنان ، وأمدت إيران بالسلاح في حربها ضد العراق .. ولا نزال نحلم !!

أكثر من سؤال :

لماذا تآمر العالمان الغربي والشرق لمصلحة اليهود ، على حساب الحق العربي ؟

ألم تطرد بريطانيا اليهود ، وتمنع دخولهم أرضها مدة ثلاثة قرون ؟

ألم يطردهم القديس لويس التاسع عشر من فرنسا ، ويحرق تلمودهم ؟

ألم تطردهم أسبانيا والبرتغال ، وتحرما دخولهم البلاد ؟

ألم يصدر الملك فرديناند والملكة إيزابيل مرسوماً يقول : (نحن نأمر جميع اليهود واليهوديات على اختلاف أعمارهم — أن يغادروا البلاد قبل نهاية شهر يوليه من هذه السنة — ١٤٩٢ — بلا رجعة ، وأن يصحبوا معهم آباءهم وبناتهم وخدامهم وخادماتهم ، وأقاربهم ، كبيرهم وصغيرهم) ودام هذا الطرد خمسة قرون ؟

ألم يقل بنيامين فرنكلين ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية :

(في أي أرض يحل اليهود يصبح المستوى الخلقي والمعنوي منحطاً ، والمعاملات التجارية تجرى بصورة غير شريفة) .

(وإذا لم يطرد اليهود من الولايات المتحدة الأمريكية — بموجب نصوص الدستور — فإنهم سيفدون على بلادنا خلال مائة العام القادمة

بأعداد كبيرة [1] تؤدى إلى أن يحكموا البلاد ، ويغيروا شكل حكومتنا ، وهي ما بذلنا ـــ نحن الأمريكيين ـــ في سبيلها دماءنا وأرواحنا وممتلكاتنا وحرياتنا الشخصية) .

(وإذا لم يطرد اليهود من بلادنا خلال مائتي عام ، فإن أبناءنا سوف يعملون في الحقول لإطعام اليهود ، بينما يقيم اليهود في قصورهم يفركون أيديهم فرحاً وسروراً) ؟

فلماذا تغير الموقف ؟

هل هي وسيلة القضاء على السرطان اليهودي في جسم شعوب أوربا وأمريكا ؟

هل هو الخوف من أن تدب الحياة في جسم الأمة العربيـة والأمة الإسلامية ، فتعود سيرتها الأولى ، تنشر الخير والمحبة والسلام ، و (تسحب البساط) من تحت أقدام أدعياء المدنية الحديثة ؟

هل هي مطامع الاستعمار في الأرض العربية التي أخذت تتكشف عن كنوز كثيرة مخبوءة ؟

وما ضمانة أن يكون الوجود اليهودي في صالح الوجود الاستعماري ؟

أهو تصريح دزرائيلي سنة ١٨٩٩ يخاطب بريطانيا : (إن ساعدتمونا على إقامة دولة فلسطين حفظنا لكم الجزء الشرقي من قناة السويس) .. واتخذ من هذا التصريح وأمثاله قاعدة معاهدات سرية ؟

يقول رئيس جمعية (بناي برث) الصهيوني في المؤتمر الصهيوني الأول :

(علينا أن ننشر روح الثورة بين العمال ، وهم الذين سندفع بهم إلى خطوط دفاع العدو ، موقنين بأنه لا نهاية لرغباتهم ، ونحن بأمس الحاجة إلى

---

(١) في سنة ١٨٢٠ كان في أمريكا كلها عشرة آلاف يهودي . وفي سنة ١٨٨٠ كان عدد اليهود ربع مليون ، والآن في أمريكا ستة ملايين ، نصفهم في نيويورك وحدها ، وفي نيويورك صحف عبرية ، ومجلات بلغة اليديش ، الخليط بين العبرية والآرامية والألمانية ، وصارت شيكاغو الميدان الثاني للنشاط اليهودي الصهيوني ، في مجال المال والإعلام ، وصار اليهود قوة ضاغطة على السياسة الأمريكية ، ولهم دور كبير في اتخاذ القرار .

تذمرهم ، لأنه السبيل إلى تخريب المدنية المسيحية ، والوصول سريعاً إلى نشر الفوضى فيها ، ولسوف يحين الوقت الذي يطلب فيه المسيحيون أنفسهم إلى اليهود أن يتسلموا السلطة) .

فإذا أدى هذا الاتجاه إلى سيطرة الصهيونية على الشيوعية العالمية ، فقد سيطرت الصهيونية على رءوس الأموال ، كما سيطرت على منابع الفكر الغربي ووسائل نشره .

وفي ذلك يعلن ويلاد اكسنولي ــ أحد أساتذة جامعة ييل ــ أن (الصهيونية قد بطشت بالفكر الحر ، حتى أصبح المثقفون وذوو الرأي في الغرب عاجزين عن المجاهرة بما يرون ، إذا كان فيه ما يعارض الصهيونية ، أو ما يغضبها ، خشية فقد الرزق ، أو فقد الحياة) .

فإذا كان هذا أمر الصهيونية في بلاد الغرب الذي احتضنها ، وإذا كانت الصهيونية قد تسللت إلى الأحزاب السياسية ، وإلى الجمعيات الدينية المسيحية في أنحاء العالم الغربي ، حتى أصبح مجلس الكنائس العالمي معبراً عن الأهداف الصهيونية ، إذ يقول هذا المجلس ــ في مؤتمره الثالث المنعقد في نيودلهي سنة ١٩٦٦ ــ (لابد من تهيئة التعليم الديني المسيحي ، وتقريبه لأذهان المسيحيين ، على نحو يبرىء اليهود من تبعات الأحداث التاريخية التي أدت إلى صلب المسيح) !!

وإذا عرفنا أن الكنيسة الأمريكية قوة اقتصادية ضخمة ، وأن اقتصاد الفاتيكان يقدر بمليارات الدولارات ، موزعة على عدد كبير من بلدان العالم .. وهذه الاستثمارات تخضع لمخططات صهيونية ، وتتداخل مع الاستثمارات اليهودية .

وإذا عرفنا أن جملة وسائل الإعلام الغربي تخضع لرأس المال الصهيوني .

إذا أدركنا هذا كله لم ندهش أن تتنافس أمريكا وروسيا على سرعة الاعتراف بالدولة اليهودية سنة ١٩٤٨ .. وأن كلتا الدولتين الكبيرتين تتعهدان بحدود آمنة للدولة المحتلة أرض البلاد المجاورة لفلسطين .. وكيف لعب زعماء أمريكا وروسيا بقادة العرب سنة ١٩٦٧ حتى أخذتهم إسرائيل

بغير مآزر ، يحلمون بوعود السلام .. وكيف تدخلت الدولتان سنة ١٩٧٣ لوقف الحرب ، بل لمحاربة الجيش المصري ، بعدم تزويده بالسلاح ، وبمد إسرائيل بجسر جوي من أحدث آليات القتال ، حين فشلت التقديرات العالمية لخطورة القوة العربية .

وبماذا نفسر تصريحات زعماء أوربا وأمريكا والاتحاد السوفيتي .. من أجل حماية الكيان الصهيوني ، وعدم الإشارة إلى حق عربي إلا من خلال حماية هذا الكيان ، تحت دعاوي قرارات الأمم المتحدة ، كأن هذه القرارات قد أخذت طريقها في يوم إلى التنفيذ ، إلا لتكون خطوة مرحلية للأطماع الصهيونية !! إن جرأة هؤلاء الزعماء باسم الحق العربي لاتكاد تتجاوز الدعوة إلى مائدة المفاوضات ، بشرط ألا يجلس على هذه المائدة أصحاب الحق الأصليين ، لأنهم (إرهابيون) يعكرون صفو وسلام الوجود الصهيوني ، وبهذا تظل الدعوة طائراً أسود يرفرف في سماء سوداء ، فيشغل البلهاء والسذّج عن استمرارية العمل الجاد لتقريب ما بين الفرات والنيل في دولة إسرائيل .

إن الصورة تبدو وكأن زعماء الشرق والغرب قد وقعوا في شراك المطامع الصهيونية ، وتبادل الطرفان أحلام استغلال الطرف الآخر ، وترجمت الخطوات الصهيونية إلى أموال وأسلحة أوربية وأمريكية ، ودعم بشري من الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية ، في سبيل إعلان موشى ديان سنة ١٩٦٧ (لقد استولينا على أورشليم ، ونحن في طريقنا إلى يثرب ، وإلى بابل) .. ثم !!

إن علينا أن نعي أن المطامع الصهيونية مطامع عالمية ، ومن خلف هذه العالمية تتشابك الأحلام الصهيونية بالأحلام الشرقية والغربية ، حول الثروات العربية وغير العربية ، مع الحرص الشديد على الائتمار بالدعوة الإسلامية ، وتضليل دعاتها ، أو تزييفهم ، أو قطع الطريق عليهم ، مستعينين بالترغيب والترهيب ، وبتحريف النصوص ، وتشويه التراث ، وما أيسر الوصول إلى الجامعات العربية والإسلامية والمناهج التعليمية .

الصهاينة ـ كما صرح إسحق رابين فى سبتمبر ١٩٦٧ ـ (يبحثون مثل الصليبيين عن تبرير ديني ، وهم يرفضون مثلهم الاندماج في السكان

المحليين ، ويعتمدون فقط على التفوق العسكري) .

(والصهاينة مثل الصليبيين يعتمدون على التدفق المستمر لرءوس الأموال القادمة من الغرب في صورة تبرعات وأسلحة ورسوم حج) .

(لكن الصليبيين انتهوا بفشل ذريع ، فبعد حروب استغرقت ثمانية أجيال ، واستمرت منذ الاستيلاء على القدس عام ١٠٩٩ حتى رحيل آخر صليبي من عكا عام ١٢٩١ ـــ طُرد الصليبيون إلى البحر) .

كأنّ القائد الصهيوني يقول إننا نتم ما بدأ الصليبيون ، لأن الهدف واحد ، لذا وجب على الدول الصليبية أن تحمد لنا ما فعلنا ، وأن تمدنا بكل ما نستطيع به الاستمرار في الاحتلال والاحتواء ، وكان على هذا الدعيّ أن يتعظ بالنهاية المخزية التي أصابت الصليبيين ، وهي نهاية كل عدوان جائر ، مهما طال الزمن ، وإن استغرق ثمانية أجيال ، لأن تفريط جيل يسعر وقود الأجيال التالية ، ونهاية الفشل هي بداية النجاح .

إن هذا القائد الصهيونى ـ فى معرض الفخر بما أحرزوا فى سنة ١٩٦٧ ـ يزعم أن ما حدث للصليبيين لن يتكرر لليهود ، لأن اليهود استفادوا من الدرس الصليبي ، فاقتحموا الأرض وارتبطوا بها ، ونزعوا سكانها عنها ، وإنهم في الطريق إلى تحقيق مالم يكن للصليبيين في حساب .

وما أحسب إلا أن الصهاينة ينظرون إلى الأرض العربية نظر المهاجرين الأوربيين إلى الأرض الجديدة في أمريكا ، فأبادوا السكان الأصليين ، واستولوا على كل شيء ، حتى على التاريخ الهندي فشوهوه .

وشتان بين العرب والهنود الحمر ، إن الكثافة السكانية العربية ، والمدد الإسلامى الكبير الذى يمكن أن يتحقق ـ حين يجدّ جدّ العرب ـ يمكن بهما تطوير انتصارات ١٩٧٣ لتكون حرب التحرير والتطهير .

لقد طامنت معركة ١٩٧٣ من غلوائهم إلى حد ما ، فحققت مبادرة السلام واتفاقية كامب ديفيد قدراً من النجاح ، وعلى العرب الذين ما زالوا يعيشون أوهامهم الرهيبة ، أن يعوا كيف تتحرك التيارات السياسية ، عالمية وعربية ، حتى نثبت أقدامنا في موقع يمكننا من معرفة الطريق الصحيح إلى

الهدف .. على العرب أن يدركوا الخطر المحدق بهم ، وهم في موقع الخذلان والضعف والتمزق ، قبل أن تنهش خطانا الذئاب المتربصة بنا في أماكن ومؤسسات كثيرة في أنحاء العالم ، وقبل أن تلعق خطانا كلاب أخرى ضالة ، تجد لها أماكن قيادية وإعلامية بيننا .

علينا أن نعرف عدونا من (الداخل) حتى نكيف سياستنا على أساس من التقدير الصحيح .

إن الانتكاسات التي أصابت (القضية) بأيد عربية ، أضعاف ما أصابها بأيد غير عربية .

إن الفردية المتسلطة على زعمائنا ، والأحلام السريعة الطائشة التي تحكم تصرفات (الواجهات)المزيفة ، مما رسب في النفوس مزيداً من الشعور بالضياع وعدم الثقة والإدانة الذاتية ، وقد ترتب على هذا الإغراق في التشرذم ، وتبادل الاتهامات ، والمزايدات بالأبواق الدعائية تارة ، وبالصواريخ والسيارات المحملة بالمتفجرات تارة ، فصرنا نخرب بيوتنا بأيدينا وأيدي أعدائنا ، ولن نفيق إلا بالألم العظيم ، قبل أن تكون ثمة أندلس أخرى (!!) ولن تكون بإذن الله ما دامت (الصحوة) الإسلامية تكتسب كل يوم أرضاً جديدة .

* * *

يقول عالم النفس الإسرائيلي جورج تامارين : (إن الصراع داخل المجتمع الإسرائيلي يكشف عن نفسه ، في التناقض الجذري بين أنصار الاتجاهات التي تميل إلى صياغة إسرائيل، باعتبارها (جيتو) ، بالمعنى المادى والروحي للكلمة ، وبين هؤلاء الذين يجاهدون لإقامة مجتمع حر مفتوح ، هذا التعارض الجوهري ، بالإضافة إلى الخلاف بين أنصار التكامل مع الحضارة الإنسانية المعاصرة ، أو الانعزال والبعد عنها) .

(إن جعل إسرائيل قلعة عسكرية حصينة بالنسبة إلى جيرانها العرب ، قد أدى إلى عزل إسرائيل حضارياً ، وتحويلها إلى جيتو كبير ، تسوده اتجاهات حضارية انعزالية ورجعية ، تنمو فيه الأفكار العنصرية ، وكانت النتيجة قطع أواصر الاتصال بين الشباب الإسرائيلي والعالم ، مما ساعد على

سيادة مشاعر مرضية إزاء أي نقد يوجه إلى الممارسة السياسية والاجتماعية في إسرائيل) .

التناقض ليس وليد الاتجاهات السياسية بقدر ما هو وليد عدم التجانس البيئي والثقافي ، فليس من المعقول حدوث هذا (المجتمع العالمي) في هذه الرقعة الضيقة من الأرض ، دون أن يصاب بكل الأمراض الإنسانية القاتلة ، ولولا أن هذا (المجتمع) يحيا حياة عسكرية دفاعية ترفع درجة الحرارة إلى خد تجاهل المعاناة القاتلة ، لتم التآكل من الداخل في أجل قريب ، ولا ريب في أن كثيراً من قادة هذا (التجمع) يدركون خطورة الاسترخاء العسكري الذي تنشط معه كل عوامل التحلّل والانهيار ، لهذا لايفتئون في عمليات عسكرية تغذي الطموح وتشغل عن الهموم الذاتية ، ولهذا لايفتئون في طلب مزيد من المهاجرين لتغيير دماء (الدورة الدموية) وتوقي خطورة (الفشل الكلوي) .

لقد أجرى عالم النفس الإسرائيلي هذا دراسة ميدانية بين شباب المدارس الثانوية ، جاء فيها أن فتاة من مستعمرة (معوتشد) كتبت تقول : (لقد تصرف يشوع بن نون تصرفاً حسناً ، بقتله جميع الناس في أريحا ، ذلك لأنه من الضروري احتلال البلاد كلها ، ولم يكن لديه وقت لإضاعته مع الأسرى) !!

وكتب تلميذ في الصف الثامن : (في رأيي يجب على جيشنا في القرية العربية أن يتصرف مثل يشوع بن نون ، لأن العرب هم أعداؤنا ، ولذلك ــ حتى في الأسر ــ ستجدهم يفتشون عن وسيلة ليبطشوا بحراسهم) !!

إن هؤلاء الذين نشئوا في هذه البيئة العسكرية لايملكون التخلص من آثارها ، إنهم محكومون بالدماء الغزيرة التي سفحت على الأرض المقدسة بقصد تشويه كل ما هو جميل ونبيل ، وإنهم محكومون بالخوف من آلاف الأرواح البريئة التي تحولت إلى لعنات وسحابات سوداء تحلق في آفاقهم ، وإذا كان يشوع بن نون قد قتل (كل نفس حية) ليقيم دولة إسرائيل ، فما لبث أن خلفه عصر القضاة والحروب الداخلية ، والأمراض الاجتماعية التي عجلت باجتثاث (الزرع المقدس) .

إنها مشاعر مرضية تنزف حقداً وسخطاً وعنصرية ، لاسبيل أمامها إلا الدم ، والمزيد من الدم ، وهو ما عبر عنه زعيمهم مناحم بيجن بقوله : (أنا أحارب ، إذن أنا موجود) ، لكن الحرب حالة مرضية تصيب الجسم بالإنهاك والتمزق ، لهذا لايمكن أن تطول الحرب مع المحافظة على سلامة الجسم ، وهذا ما عبر عنه عالم النفس اليهودي (روبنشتين) بقوله : (إن الإسرائيليين كأفراد يتسمون باتجاهات شك عميق الجذور تجاه الآخرين) ، وهو يقرر (أن تقسيم العالم بين اليهود وغير اليهود مكون أساسى من مكونات الهوية اليهودية ، وأن صورة غير اليهودي تحتل وضعاً مركزياً في ذهن اليهودي ، ومازال وضع الحدود بين اليهود وعالم غير اليهود له تأثير قوي غلاب في إسرائيل) .

وفاته أن ثمة حدوداً أخرى بين يهود شرق أوربا وغربها ، وبين اليهودي الأبيض والأسود ، هذه الحدود التي تكاد تقوم بين السادة والعبيد ، وهي حدود تزداد حدة إذا تحقق الاسترخاء العسكري .

لهذا أصبح الشك في البقاء الإسرائيلي يتسلل إلى كثير من نفوس الذين يتمتعون بقدر من المراجعة ومحاسبة الذات ، وتقييم وإعادة ترتيب الأشياء .

جاء في كتاب (الإسرائيليون الجدد .. تقرير عن الجيل الأول الذي ولد في إسرائيل) لداود شنبرن وآخرين ـــ أن أحد شبان المستعمرات قال لعدد من السواح الأمريكان : طبعاً أنتم سعداء بأن تكونوا في هذه الأرض المقدسة ، لا أعرف لماذا تسمونها مقدسة ؟ وما هو المقدس في الذي ترونه الآن ؟ صحراء وذباب ، وعرق وحشرات وزواحف ، وشباب نحيف حزين .. وأنتم سوف تعودون إلى بلادكم الغنية الرضية ، وتشربون أطيب الخمور أمام التليفزيون الملون ، ثم يقول أحدكم للآخر : كنا في إسرائيل ، ورأينا هؤلاء الشبان الأبطال على الأرض المقدسة ، وتتنهدون .. لكن ما الذي قلتم ؟ما الذى بقى من هذه الأرض وأبناء هذه الأرض ، في نفوسكم ؟ إنها أرض ولكن ليست مقدسة إلى هذه الدرجة ، إن جيل جولدا مائير هو الذي ثار على أوضاع اليهود في العالم ، وآبائى هم الذين أكملوا هذه الثورة ، أما نحن فنريد أن تكون لنا حياة عادية .. إننا نتعلم كراهية العرب ، واحتقارهم ، ولكننا

لانستطيع أن نعيش حياة عادية كالعرب ، إننا نحسدهم على حياتهم الهادئة .. إن كل ما أريده أن أكون إنساناً عادياً ، ولا أريد أن أكون حيواناً شرساً خائفاً طوال الليل والنهار .. ومطلوب مني باسم الوطنية والدين — أن أحب زوجتي وابنتي ووطني ، فمن أين آتي بهذا الحب ، إذا كان كل ما ينفجر في داخلي هو آبار المرارة والكراهية والثأر ؟

يقول المؤلف : إنه التقي بمئات الشباب يكررون نفس هذه المعاني بعبارات مختلفة ، إنهم ساخطون على زعمائهم ، كارهون لحياتهم ، يتمنون لو ولدوا على أرض أخرى ، أو عادوا ليصبحوا مثل كل الناس العاديين في بلاد أخرى ، لايحملون السلاح ، ولايحملون تحت السلاح شظايا شائكة من الخوف والكراهية .

تقول (يائيل ديان) في قصتها (طوبى للخائفين) في رسالة من (جيدون) إلى (نيمرود) :

(لقد كنت فاسداً وقوياً في البداية ، وهأنذا أنتهى فاسداً وضعيفاً .. إن المرء يحتاج إلى شجاعة لكي يخاف .. ولم تكن لدى هذه الشجاعة ، ولا أنت ، فأنا مهدد بمصيرى ... سوف تجن وتدمر كل ما حولك ، وتدمر نفسك قبل كل شيء .. نصيحتي لك أن تترك الأولاد يلعبون كالأطفال لاتدعهم يشبون على هذا الطراز الجديد الذي يزعمون ، لاتصنع منهم صخوراً ، إنني أترك الأرض لألحق بمن هم أحسن منى ، مثل لاميش) الاسكافي العجوز الإنسان .

هذا ....

ولو أننا وضعنا (خطة كونيغ) في الاعتبار لكان لنا أن نستفيد من هذه التيارات الجديدة ، ونأخذ بزمام المبادرة ، من داخل إسرائيل ذاتها .

خطة كونيغ :

في السابع من أغسطس ١٩٧٦ قدم إسرائيل كونيغ — مفتش وزارة الداخلية للمقاطعة الشمالية — لرئيس الوزراء والسلطات المختصة (خطة)

على شكل وثيقة سرية تحمل هذا العنوان ، بشأن وضع العرب في إسرائيل وما يجب اتباعه في معاملتهم .

وقد جاء فيها (أن إحدى الظواهر الأكثر بعثاً للقلق تتمثل في غياب التسامح الذي يبديه اليهودي المتوسط تجاه المواطن العربي ، وفي بعض الأحيان يمكن أن يصل الأمر إلى حد الحقد الحقيقي الذي يمكن لأية إثارة — مهما كانت تافهة — أن تحوله في أي وقت إلى انفجار غير مراقب من جانب الطرفين ، مع كل ما يترتب على ذلك من آثار سيئة ، داخل البلاد وخارجها) .

ونتيجة الاستفزاز الملح ، والعدوان المستمر (كف العربي في إسرائيل عن أن يكون مستسلماً ، وانتقل إلى مرحلة قومية ، عبرت عن نفسها بشكل شفهي — في مناسبات ، مثل :

أولاً : أ — زيارة رئيس الوزراء للناصرة ، منذ سنة تقريباً .

ب — تبني الشعارات التي تعبر عن تمسكهم بمنظمة التحرير الفلسطينية ، أثناء مظاهرات طلابية ، وفي مناسبات أخرى .

ج — الموقف الذي اتخذه الطلاب العرب في الجامعات ، فيما يتعلق بدورات الحراسة .

د — المظاهرات القومية أثناء انتخابات البلدية في الناصرة .

ه — التعبئة الاستثنائية وغير الاستثنائية لسكان الناصرة ، طالبين رفع ما عليهم من ضرائب محلية متأخرة ، لمساعدة (راكاح) في تسيير المدينة .

و — التجمع الجماهيري الاحتجاجي الذي نظم في ١٤ / ٢ / ١٩٧٥ بقرية (سخنين) ، رصرح خلاله رئيس المجلس المحلي لمدينة (تامرا) أن على إسرائيل أن تخشى العرب في إسرائيل أكثر مما تخشى العرب في الخارج .

ز — القرارات المتبناة أثناءالتجمع الجماهيري في الناصرة ، يوم السبت ٦ / ٣ / ١٩٧٥ .

حـ ـ إعلان إضراب عام ينفذه كل السكان العرب في إسرائيل ، لمدة يوم كامل ، يطلق عليه اسم (يوم الأرض) .

ثانيـــاً : توجيه نداء إلى السكان العرب يطالبهم بعدم الاكتفاء بالاحتجاج السلمي ، بل الاحتجاج بالكفاح وعدم التخلي عن هذا الكفاح إلا بعد تحقيق النصر .

ثالثـــاً : إضراب جوع أمام مقر الأمم المتحدة ، كما يفعل بعضهم بخصوص يهود الاتحاد السوفيتي .

رابعـاً : تصريح يقول : إن الحكومة في بيت من الزجاج ، وسنكون نحن أول من يقذف الحجارة لكسره .

خامساً : تصريح (سعد قاسم) رئيس المجلس المحلي لـ (ملولة) الذي يعتبر عنصراً إيجابياً ، وقد انتخب نائباً عن لائحة تنتمى إلى (المعاراك) حيث يقول : (إلى أي حق تستند الحكومة لمصادرة أراضى لم تكن تشكل جزءاً من الأراضي الإسرائيلية ، حسب مخطط التقسيم الذي أقرته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ ؟) .

ومن أجل هذا ، يرى (كونيغ) من الناحية الديمغرافية :

أ – توسيع وتكثيف الاستيطان اليهودي في كل المناطق ، حيث يقيم العرب ، بصفة دائمة ، ودراسة كل إمكانيات بعثرة التجمعات العربية الموجودة من قبل،ويجب توجيه اهتمام خاص إلى المناطق المحاذية للحدود الشمالية الغربية ، ومنطقة الناصرة ، وإلى جانب ذلك يجب الحرص على تطبيق حازم للقوانين التي يمكنها أن تمنع إنشاء مستوطنات عربية في مختلف أنحاء البلاد .

ب – ينبغي إقامة زعامة يهودية في عكا والناصرة العليا ، تكون قادرة على مواجهة التطورات المقلقة التي يمكن أن نتوقعها .

جـ – اعتماد سياسة الجزاء والعقاب تجاه المسئولين ، وتجاه المناطق العربية التي تظهر بشكل أو بآخر عداءها للدولة أو للصهيونية .

د – لكي نسحب من يدى (راكاح) احتكار الكفاح الوطني ، وتمثيل العرب في إسرائيل ، ولمنح وسيلة تعبير للمترددين ، يجب خلق حزب يكون مماثلًا لحزب العمل ، يشدد على معاني المساواة والإنسانية والثقافة واللغة والسلام في الشرق الأوسط .. وعلى المؤسسات الإسرائيلية أن تتهيأ لممارسة حضور خفي ورقابة داخل الحزب .

هـ – يجب إقامة تنسيق دائم ومطلق بين مختلف الوزارات والهستادروت والسلطات المحلية ، خاصة على صعيد العمليات الميدانية ، وتطبيق القرارات المتخذة بطريقة لارجوع عنها .

و – بذل كل الجهود الممكنة لدفع كل الأحزاب الصهيونية على إيجاد إجماع وطني بخصوص العرب في إسرائيل ، لتفادى الصراعات السياسية الداخلية في هذا المجال .

كما يرى من الناحية التربوية :

أ – يجب تشجيع توجيه الطلاب العرب نحو الدراسات التقنية والرياضية والعلوم الطبيعية ، فإن هذا النوع من الدراسات يقلل من الوقت الحر المتروك لهم ، والذي يمكنهم توظيفه لصالح الالتزام بالقضية القومية ، وسيؤدى أيضاً إلى تخلى عدد كبير عن دراساتهم قبل نهايتها (١) .

ب – يجب تشجيع الطلبة الذين يذهبون لمتابعة دراستهم في الخارج ، وزيادة المصاعب ، أمام عودتهم ، وأمام حصولهم على عمل في إسرائيل ، إن بمقدور هذه السياسة حثهم على الهجرة .

جـ – اتخاذ إجراءات صارمة ـ بأشكال مختلفة ـــ ضد كل المشاغبين الذين ينشطون في الجامعات .

---

(١) لعله يقصد : عن طريق وضع العقبات أمامهم ، او الاقتصار على الدراسة المهنية ، أو الطعن في قدراتهم الذاتية .

ويرى من الناحية الأمنية :

يجب تكثيف تواجد قوات الشرطة والأمن ـ من جميع الأنواع ـ فى القطاع العربي ، من آجل إرهاب المتطرفين والمترددين الذين قد ينساقون إلى آعمال التمرد والمظاهرات .

* * *

أما بعد ..

فهل ترانا نقرأ ما بين هذه السطور ، ونعيد رسم مخططاتنا ؟

إن الدول العربية لاتزال تصعد صراعاتها ، والسلاح العربي لايستنزف إلا دماء عربية ، والمال العربي لايسترخص إلا ذمماً عربية ، بينما السلاح الإسرائيلي يعمل في لبنان ، وفي جنوب السودان ، وعلى أرض العراق ، والنفوذ الإسرائيلي يهدر قيمة البترول العربي ، ويتسلل إلى أخطر المواقع تأثيراً ، و (الإقتصاد الإسرائيلي كله مكرس للاستيطان في الضفة الغربية وغزة والجليل والجولان) !!

على العرب أن يعوا ـــ إذا صح لهم ذلك ـــ أن خطة (دوبلس) الرئيس الثاني في قسم الاستيطان بالوكالة اليهودية ـــ تقضي في الفترة ما بين ١٩٧٧ و ١٩٨٠ بإقامة ١٢ إلى ١٥ مستوطنة سنوياً في الضفة الغربية ، على أن يتم استيعاب ١٢٠ إلى ١٥٠ ألف مستوطن خلال خمس سنوات .

وفي تقرير نشرته (الأهرام) في ٢٦ / ٨ / ١٩٨٦ ـــ عن مسئول أردني : أن إسرائيل أقامت ١٩٠ مستعمرة في الضفة وغزة منذ ١٩٦٧ ، وصادرت حوالى ثلاثة ملايين دونم (٢٧٦٨ كيلو متراً مربعاً) من أراضي الضفة الغربية وغزة (ما بين يونية ١٩٦٧ ويونية ١٩٨٦) .. كما أعلن الوزير الأردني لشئون الأرض المحتلة (أن هناك تهويداً نشطاً للأرض المحتلة ، بينما لم يزد عدد السكان العرب ، مما ينذر بالخطر ، بسبب دفع السكان العرب إلى الهجرة) .

إن الحركة الصهيونية واضعة في اعتبارها سلبيات وإيجابيات التجربة

الفرنسية في الجزائر ، والتجربة العنصرية في جنوب أفريقيا ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية ، إنهم يدرسون التاريخ ، ويطوعونه ، ويستصفون التجارب ، ويأخذوا بالوسائل والأسباب .

ولاجدوى ــ في مواجهة إسرائيل ــ بدون بناء الشعب العربي على أسس ديمقراطية سليمة ، وبدون تنمية اقتصادية قائمة على تخطيط سليم ، وحماية كاملة من (السلبيات الخلقية والإدارية المتفشية في هذه الأيام) .

إن ما بيننا وبين إسرائيل هو سباق حضاري ، يتمثل اليوم في أن الناتج القومي للفرد في إسرائيل بالنسبة إلى الناتج القومي للفرد (المتوسط) في العالم العربي حوالي ٧ر٢ : ١ بالرغم من الثراء الفاحش في بعض الدول والإمارات البترولية .

إنه لابد من إعادة (تقييم) كل شيء ، على أساس من الصدق مع النفس ، والإصلاح الداخلي في كل دولة ، واحترام الحريات ، وبخاصة الحرية الفكرية والحرية النيابية ، وتوثيق الروابط بين الشعوب والحكومات العربية ، وتوسيع التبادل التجاري ، واستغلال الأرصدة العربية (الفاحشة) في تنمية القدرات العربية زراعياً وصناعياً وعسكرياً ، ووضع سياسة (شاملة) بعيدة المدى ، تضع في حسبانها أن إسرائيل ليست داخل حدود فلسطين فقط ، وأن حدود المواجهة يجب أن تتسع وتتنوع .

إن من واجب الشعب العربي أن يتخلص من كل زعيم يعمل من واقع نظريته الشخصية المحدودة ، ومن واقع الاستهواء بالتصريحات والشعارات (الجوفاء) .

ومن واجب المنظمات الفلسطينية (التقليدية) أن تتحرك بحركة استعادة الأرض ، بعيداً من (الحضّانات) التي تسببت في تمزيق الكيان الفلسطيني ، والتضحية بآلاف الشهداء بعيداً من التراب المقدس .

إن ليالي شديدة الحلكة لاتزال على مرمى البصر من طريقنا ، لكن ــ مما لاشك فيه ــ أن ثمة فجراً مشرق الجبهات ليس بعيداً منا . لكنه ليس ذلك الذى تصنعه حجارة تلاميذ المدارس ، فتهلل له العواصم العربية ، وتنشد فيه الأشعار .

الفصل الثانى

النشاط العقائدى

١ - العهد القديم
٢ - التلمود
٣ - العقائد اليهودية
٤ - الفرق اليهودية
٥ - الأعياد اليهودية

العهـــد القـــديم

سمى بالعهد القديم تمييزاً له من العهد الجديد (الإنجيل) ويتألف (الكتاب المقدس) من العهدين .

والعهد القديم عبارة عن مجموعة أسفار رجال المجمع الأكبر الذي تأسس عقب العودة من السبى البابلى ، وكان مؤلفاً من مائة وعشرين عضواً ، ينظرون في شئون الشعب ، ومن أشهر رجاله عزرا ونَحْمِيا وزروبابل ودانيال وحجاي وزكريا وملاخي ومردخاي .

وكان في القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً ثلاث مدونات للنص العبري للتوراة ، على الأقل .

وفي القرن الأول قبل الميلاد كان اتجاه إلى تدوين نص واحد ، لكن ذلك لم يتم إلا فى القرن الأول بعد الميلاد .

ومع هذا فأقدم نص عبري يرجع عهده إلى القرن التاسع بعد الميلاد .

وثمة نصان باليونانية يرجعان إلى القرن الرابع الميلادي ، أحدهما بمكتبة الفاتيكان ، والآخر بالمتحف البريطاني .

أما المدونات الآرامية والسريانية فغير كاملة .

وكان (العهد القديم) قبل أن يكون مجموعة أسفار ــ تراثاً شعبياً ، لاسند له إلا الذاكرة ، وهي العامل الوحيد الذي اعتمد عليه في نقل الأفكار .. وكان هذا التراث يغني .

يقول إدموند جاكوب : (يحتمل أن ما يرويه العهد القديم عن موسى والآباء الأولين لايتفق إلا بشكل تقريبي مع المجرى التاريخي للأحداث ، ولكن الرواة كانوا يعرفون ، حتى في هذه المرحلة من النقل الشفهي ، كيف يضفون الأناقة والخيال ، حتى يربطوا بين أحداث شديدة التنوع) [1] .

---

(١) موريس بوكاى (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) دار المعارف – ١٩٧٩ – ص ٢١ .

ويضم العهد القديم ثلاث مجموعات من الأسفار ، كتبت على مدى تسعة قرون تقريباً ، بلغات مختلفة ، اعتماداً على التراث المنقول شفوياً ، وقد صححت وأكملت أكثرية هذه الأسفار ، بسبب أحداث حدثت ، أو ضرورات خاصة ، في عصور متباعدة أحياناً .

ويمكن القول إنه في القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً ، تم تحرير النص المعروف بالرواية (اليهوية) — نسبة إلى الإله (يهوه) — وهي التي شكلت فيما بعد بنية الأسفار الخمسة التي عرفت باسم أسفار موسى ، وهو يعالج الفترة من أصل العالم إلى موت يعقوب ، وهو صادر عن مملكة الجنوب ، ثم أضيف إلى هذا النص الرواية (الإلوهيمية) نسبة إلى الإله (إلوهيم)، ثم الرواية الكهنوتية .

من نهاية القرن التاسع حتى أواسط القرن الثامن قبل الميلاد تكون وذاع النفوذ النّبوى مع إيليا واليشع ، وهي أيضاً فترة النص الإلوهيمي ، الذي يعالج الأحداث الخاصة بإبراهيم ويعقوب ويوسف ، ويرجع سفرا يشوع والقضاة ، وكتابات إيليا واليشع ، إلى هذه الفترة .

أما القرن الثامن قبل الميلاد فهو عصر الأنبياء عاموس وهوشع في إسرائيل ، وأشعيا وميخا في مملكة الجنوب .

أما رسائل صَفْنِيا وحبقوق ، فيرجع تاريخها إلى ما قبل النفى الأول إلى بابل سنة ٥٨٧ ق. م ، وكان حزقيال يمارس النبوة في أثناء النفي ، وكتابه لم يدون في شكله الحالي إلا بعد موته ، وقد دوَّنه الكتبة الذين أصبحوا ورثته الروحيين .. وقد قام نفس هؤلاء الكتبة بتدوين رواية ثالثة لسفر التكوين ، وهي الرواية الكهنوتية التي أوردت الجزء الخاص بالخلق حتى موت يعقوب .

وانتهى النفي إلى بابل بأمر سيروس (قورش) في سنة ٥٣٨ ق. م ، فعاد اليهود إلى فلسطين ، وأعيد بناء معبد القدس ، واستؤنف النشاط النبوي ، ومن هنا كانت كتب حجاي وزكريا وأشعيا الثالث وملاخي ودانيال وباروك ، وقد كتب هذا الأخير باليونانية .

وفترة ما بعد النفي هي فترة كتب الحكمة ، إذ حُررت الأمثال في سنة ٤٨٠ ق. م ، وحرر سفر أيوب في القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً ، كما يرجع تاريخ سفر الجامعة إلى القرن الثالث ق. م تقريباً ، وهو عصر نشيد الإنشاد وكتابي أخبار الأيام ، وكتب عزرا ونحميا ، أما كتاب (بن سيراخ) فقد ظهر في القرن الثاني ق . م ، وأما سفر الحكمة وسفرا المكابيين فقد كتبت في القرن الأول ق . م ، وأسفار راعوث وأستير ويونس وطوبيا ويهوديت فيصعب تأريخ تحريرها .

وكل هذه معلومات خاضعة لتحفظات التعديلات اللاحقة ، لأن كتب العهد القديم لم تتخذ هيئتها الأولى إلا قبل قرون من ميلاد السيد المسيح ، ولم تكتسب شكلها النهائي إلا في القرن الأول بعد الميلاد ، كما يرى الكثيرون [١] .

١ ــ **التوراة** : معناها البشرى أو التشريع ، وتطلق على الأسفار الخمسة الأولى : تكوين ، خروج ، لاويين ، عدد ، تثنية .. وهي تحتوى على تاريخ الإسرائيليين حتى سنة ٢٤٠ ق. م .

تكوين : يتحدث عن بدء الخلق ، وقصة الخطيئة ، وأبناء آدم ونوح ، والطوفان ، ومواليد سام بن نوح ، وقصة سدوم وعمورة ، ورحلة إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحق ، وما كان من أمر عيسو ويعقوب ، أبناء يعقوب ، وقصة يوسف ، تجمع بني إسرائيل في مصر .. يتخلل هذا السرد التاريخي أحداث تكشف عن طبيعة العلاقة بين (الشعب والرب) ، وبين (الشعب) وغيره من الشعوب .

خروج : يتحدث عن إقامة بني إسرائيل في مصر نحو مائتي سنة ، وميلاد موسى ، ودعوة فرعون إلى الله ، وقصة الخروج إلى سيناء ، والوصايا العشر ، وقصة عبادة العجل .

لاويين : يهتم بالتشريع ، وبخاصة القرابين والطقوس التي تهم الكهنة أبناء لاوي ، كما يحدّث عن النجاسة والطهارة وأيام الأعياد والعطلات .

---

(١) موريس بوكاي ص ٢٣ / ٢٥ .

عدد : إحصائيات عن الشعب المختار ، وأنساب القبائل الإسرائيلية ، وتصوير ما حدث في سيناء حتى دخول (أرض الميعاد) .

تثنية: تكرار وتتمة لشريعة موسى ، إذ يحوي كلماته الأخيرة ، وخبر وفاته ، ووصيته أن يخلفه يشوع ، كما أنه يتضمن توزيع الأراضي على الأسباط .

٢ ــ **الأنبياء** ــ ويتحدث عن الأنبياء الأول ، والأنبياء المتأخرين .

القسم الأول يحتوى على ثمانية أسفار ، تبحث الستة الأولى في تاريخ إسرائيل بعد وفاة موسى إلى خراب الهيكل وخراب أورشليم (١٤٥١ / ٥٥٩ ق. م) والاثنان الآخران يتناولان تاريخ إسرائيل حتى العودة من السبي إلى أورشليم ، وبناء الهيكل مرة ثانية .

وهذا القسم يضم سفر يشوع الذي مكّن لإسرائيل في أرض كنعان ، وسفر القضاة الذين تولوا الأمر بعد يشوع ، ثم سفري صموئيل ، ويتناولان أيام صموئيل آخر القضاة وعهد شاءول وداود من الملوك ، ثم سفري الملوك ، ويتناولان تاريخ الملوك حتى السبي البابلي ، ثم سفري أخبار الأيام ، وفيهما وثائق وسلالات وروايات منذ بدء الخليقة حتى قورش .

والقسم الثاني من (الأنبياء) يضم خمسة عشر سفراً : أشعياء ، وأرمياء ، وحزقيال ، ويوئيل ، وعاموس ، وهوشع ، وعويديا ، ويونان ، وميخا ، وناحوم ، وحبقوق ، وصَفْنِيا ، وحجاي ، وزكريا ، وملاخي .. وكلها أخبار محدودة تدور حول جهود هؤلاء الأنبياء ، من أجل تقوية عزيمة بني إسرائيل ، وبيان سبب غضب الرب عليهم ، وبعضها يدين المظالم الاجتماعية (عاموس) وبعضها يدين الفساد الديني (هوشع) .

٣ ــ **الكتابات والأشعار** ــ وتضم الأناشيد والحكم والأمثال والمزامير والقصص ، وصوراً من تاريخ اليهود وفلسفتهم .. وهي أحد عشر سفراً : مزامير دواد ، وإن كان الكهنة قد أضافوا إليها كما حدث مع أمثال سليمان ، وأيوب ، ونشيد الانشاد ، وراعوث ، ومراثى أرميا ، والجامعة ، وأستير ، ودانيال ، وعزرا ، ونَحْمِيا.

●● ومع أن كتاب (العهد القديم) أصبح في المرتبة الثانية بعد التلمود في حياة اليهود ، فإنه بالنسبة لبعض طوائف اليهودية ولجميع المسيحيين ، يعد الكتاب الأول قداسة وتشريعاً .

وهو ذخيرة إنسانية حية ، على أى التقديرات ، إذ يضم رصيداً هائلًا من المعاني الإنسانية والقيم الحضارية .

وقد يضم إلى العهد القديم ما يسمى (الأبوكريفا) أي الأسفار غير الشرعية ، وهي أربعة عشر سفراً ، موجودة في اللاتينية ، نقلًا عن الترجمة السبعينية ، وأشهرها سفر يهوذيت ، وطوبيا ، ويشوع بن سيراح ، وباروخ ، وسفرا المكابيين ، وحانوخ ، واليوبيل ، وحكمة سليمان ، وهي تحتوي على حكايات أخلاقية النزعة ، محشوة بالأخطاء التاريخية .

تدوين العهد القديم :

من يطالع العهد القديم يلتقي بمثل هذه العبارة : (كان جميع المغنين والمغنيات يندبون يوشيا في مراثيهم إلى اليوم ، وجعلوها فريضة على إسرائيل ، وما هي مكتوبة في المراثي ، وبقية أموريوشيا ومراحمه ، حسبما هو مكتوب في ناموس الرب ، وأموره الأولى والأخيرة ها هي مكتوبة في سفر ملوك إسرائيل ويهوذا) أخبار الأيام الثاني ـــ ٣٥ مما يشير إلى أن الكتاب ينقل عن كتب أخرى ، مثل ما جاء في أخبار الأيام الأول : (مكتوبة في سفر أخبار صموئيل الرائي ، وأخبار ناثان النبي ، وأخبار جاد الرائى) أخبار الأيام الأول ـــ ٢٩ .

وغير هذه إشارات كثيرة إلى النقل عن كتب أخرى .

يقول فرويد : (إن التوراة أعيدت كتابتها عدة مرات ، وفي إحدى هذه المرات ضاعت وفقدت تماماً ، فاجتمع سبعون من كبار رجال الدين العبريين ، وأعادوا كتابتها من الذاكرة .. وهناك عوامل أخرى وراء إعادة كتابتها والإضافة إليها ، منها إعطاء بعض القوانين والطقوس الحديثة العهد قداسة واحتراماً ، بنسبتها إلى موسى ، ومحاولة إخفاء حقيقة أن العبريين هم الذين قتلوا موسى) .

فمتى تمت الكتابة أو النقل ؟ وبأى لغة كانت الكتابة أو النقل ؟ ومن الكاتب أو الناقل ؟

سبقت الإشارة إلى ما يقوله العلماء من أن الكتابة استمرت زمناً طويلاً ، تعرضت معه للإضافة والحذف والتنقيح والتهذيب ، وكان الكتاب يستعينون بالنقول الشفوية ، وبتراث الشعوب التي نزلوا بها ، وبالثقافات التي كانت تروج في عصورهم .. لهذا يرون (أن تفهُّم الديانة العبرية مستحيل ، ما لم تؤخذ في الاعتبار ، وبشكل مستمر ، الديانات والثقافات الأخرى التي نمت وترعرعت في وادي الفرات .. إن الأصول القضائية البابلية ، وكذلك الطقوس المعمول بها في المعابد البابلية ، يجب أن تؤخذ كعوامل حاسمة التأثير على الشرائع العبرانية في الأصول القضائية والطقوس الدينية) .

ويلاحظ أنه — بعد أربعمائة وثمانين عاماً لخروج بني إسرائيل من أرض مصر — لم يكن يوجد في بيت الرب الذي بناه سليمان إلا لوحا الشهادة اللذان كتبهما الرب بإصبعه لموسى (الملوك الأول — ٨و٩) ، ومع هذا يدعي مدع أن موسى أعد إعداداً خاصاً حوالي سنة ١٥٠٠ ق. م ، ليبدأ كتابة الأسفار المقدسة التي فيها يسجل تاريخ ٢٥٠٠ سنة خلت من قبله (١) .

ثم إن الكتابة — فيما يتصل بالألواح — يرجح أنها كانت بالمصرية القديمة التي كان يعرفها موسى بحكم نشأته ، فالآرامية فاللاتينية فالعربية ، إذ مانه (بعد السبي البابلي واندماج اليهود مع البابليين قلّ استعمال اللغة العبرية (٢) تدريجياً بين الشعب كلغة قومية ، وإن ظلت لغة مقدسة ، وأوشكت على الزوال ، حتى إن اليهود حوالي القرن الثاني ق. م ، احتاجوا إلى تراجم لقراءة الصلوات وتأدية الطقوس في السبوت والأعياد ، وحلّت محلها اللغة الآرامية ، فظهرت تراجم للعهد القديم في لغات مختلفة ، أهمها الأرامية ، ثم في اليونانية الترجمة السبعينية التي قام بترجمتها في الإسكندرية

(١) القس صموئيل شرقي — مصادر الكتاب المقدس — ص ١٢ .

(٢) يلاحظ أن العبرية هي الكنعانية المكتسبة في أرض كنعان مع قدر من المصرية القديمة .

سبعون عالماً في سبعين يوماً ، ثم إلى اليونانية الحديثة ، ثم إلى اللاتينية والسريانية ، ثم العربية على يد سعديا الفيومي ، حوالي عام ٩٤٢ م ، وهلم جرا) (١) .

فالنقل تم بلغات مختلفة ، ولكل لغة عاداتها ومصطلحاتها ، ولكل زمن لغته وموحياتها ، ولكل كاتب قدراته ومكوناته النفسية ــ مما أدى إلى أننا نعثر في أماكن كثيرة من التوراة على آثار حذف ملموس ، أو تكرار ممل ، أو تناقض واضح .. وثمة (عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة في مختلف أدوار تاريخهم الطويل)(٢) .

ولقد (استهلك ما دون من كثرة الاستعمال ، أو طوحت به السنون في زوايا النسيان ، وبعضها قد أفسد عمدا ، أو أهلك عرضاً ، وبعضها ضاع واختفى في فترات الاضطهاد .. هذا كله بالإضافة إلى ما تطلبه وضع العهد القديم ، من زمن قد امتد إلى نحو ألف عام ، كما أن جمعه قد استغرق قروناً عديدة) (٣)

والكهنة كانوا يعتمدون في التدوين والجمع على ما سمعوه ، وما تلقاه الخلف عن السلف من أخبار وأساطير ، وكثيراً ما كان الكهنة يكتبون ما يجيش بصدورهم ، أو ما يأملونه ، على أنه حقيقة واقعة ، أو تاريخ سابق ، وليس ذلك في الحقيقة إلا تصديقاً للخيال ، وإلا من الوهم الذي يتخذ في نفس الواهم صورة الحقائق المقررة ، ومن ذلك ما جاء في (سفر صموئيل الثاني ــ ٨) من أن داود (ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات) .

وإنا لنجد أخيراً من العلماء اليهود أنفسهم من يشكك في كل ما جاء بالعهد القديم ، حتى الوصايا العشر .

نشر العالم الفرنسي ريتشارد سيمون سنة ١٦٧٨ كتاباً عن (التاريخ النقدي للعهد القديم) نفي فيه نفياً قاطعاً نسبة أسفار الشريعة إلى موسى عليه السلام ، مؤكداً أنها مجموعة من مدونات مختلفة الأصول ، عكفت أجيال متعاقبة من الأحبار على إعادة تسجيلها باجتهاد وهوى ، تحويراً

(١) د. فؤاد حسنين علي – اليهودية واليهودية المسيحية – ص ١٠٢ .
(٢) د. علي عبد الواحد وافي – اليهودية واليهود – ص ١٣ .
(٣) مصادر الكتاب المقدس – ص ٦/٧ .

وحذفاً وإضافة ، حتى يتوفر عليها آخر الأمر عزرا ومريدوه ــ خلال القرن الرابع قبل الميلاد ــ فتستقر على الوجه الذي تطالعنا به اليوم (١) .

وقد بدأ العالم اليهودي باروخ أسبنوزا الدراسة النقدية الحق لأصول سفر التكوين ، وأظهر أن هذا السفر لايمكن أن يكون كاتبه مؤلفاً واحداً في أي وقت واحد ، وقدم الدليل الذي ينقض نظرية تأليف موسى للأسفار الخمسة .

ويذكر بارنز أن الباحثين المحدثين ، مثل دلينزس وونكلر وروجرز ، قد أظهروا تأثير الأساطين البابلية والتقاليد الدينية في الديانة اليهودية ، وبخاصة في اقتباس قصة الخليقة وبرج بابل والطوفان ، إلى ذلك من العقائد والأساطير البابلية ، كما أشار غيرهم من الباحثين إلى الأسس الفارسية في اقتباس فكرة الجحيم والشيطان وخلود الروح (٢) .

ويقول باهليل سلفر العالم اليهودي ، في كتابه (موسى والتوراة الأصلية) (حتى الوصايا العشر التي يكاد يجمع العلماء على أنها الشيء الوحيد المتبقى من التوراة الأصلية ــ لم تكن بكاملها ، وعلى هيئتها الحالية ، كالتي أتى بها موسى) .

وهناك من يرى شبهاً كبيراً بينها وبين المعاهدات والوثائق في عهد ملوك الحيثيين .

وهناك من يرى أن نُبوءة حزقيال تتجاهل تجاهلًا تاماً الأسفار الستة الأولى من التوراة ، مما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الأسفار الستة لم تكن موجودة في زمن حزقيال .

ومما يلفت النظر بشكل خاص أن حزقيال لم يأت البتة على ذكر موسى ، الرجل الأكبر لدي اليهود قاطبة ، وقد قام حزقيال عوضاً عن ذلك بوضع الشريعة منفرداً .

ونبوءة حزقيال بقيت وحدها صافية غير محرفة من بين باقي كتب العهد القديم .

---

(١) حسين ذو الفقار صبري – مجلة العربي – نوفمبر ١٩٧٩ – ص ١٤٦ .

(٢) على أدهم – تاريخ التاريخ كتابك عدد ٦ – دار المعارف ١٩٧٧ – ص ٢٠ .

وليس هناك من شك في أن الكثير من الكتب المقدسة اليهودية الأخرى كانت موجودة ، لكنها اندثرت ، ككتاب (حروب الرب) ، وكتاب (شريعة الكهنة) ، وكتاب (السجلات الملكية) ، وكتاب (سجلات السلالات) .

وكما ذكرت (الموسوعة اليهودية) فقد أعيد وضع كل تاريخ اليهود من وجهة نظر فريسية بعد حزقيال ، كما أعيد وضع جميع الكتب المقدسة السابقة المخالفة للنصوص الجديدة .

بل هناك من الباحثين والعلماء من يرى أن كتاب (حزقيال) وضع أولًا ، ومن ثم ركبت من حوله الكتب الأخرى ، وعلى رأس هؤلاء الباحثون اليهود أنفسهم .

ومع هذا .. فنحن لانملك ــ حين الحديث عن العقائد اليهودية ــ إلا الرجوع إلى ما جاء في العهد القديم الذي بين أيدينا ، وفي التوراة بصفة خاصة ، هذه التوراة التي يقول فيها الدكتور صبري جرجس [١] .

(إنها لاتكاد تزيد عن كونها مجموعة من الخرافات والقصص التي صيغت في جو أسطوري حافل بالإثارة ، مجافٍ للعقل ، والمنطق ، غاص بالمتناقضات ، مشبّع بالسخُف ، مفعم بمشاعر العدوان والتعطش إلى الدِّماء) .

(١) د. صبرى جرجس – التراث اليهودي الصهيوني – ص ٥١ .

التلمـــــود

يعد التلمود المصدر الثانى للتشريع اليهودي ، والمصدر الأول للسياسة الصهيونية .

ولايوجد منه إلا عدة مخطوطات قديمة ، منها نسخة (ميونخ) لتلمود بابل التي كتبت عام ١٣٦٩ م ، أما تلمود أورشليم فيوجد مخطوط قديم له في (ليدن) .

حين يقرأ المرء في هذا الكتاب ، وينظر في خفايا المعتقدات اليهودية ، ويتعرف على هذه (المبادىء) والأفكار اليهودية جيداً ـــ يقف على حقيقة مذهلة ، وهي ـــ كما يقول الدكتور جوزيف باركلي ـــ (بعض أقوال التلمود مغال ، وبعضها كريه ، وبعضها الآخر كفر ، لكنها تشكل في صورتها المخلوطة أثراً غير عادي للجهد الإنساني ، وللعقل الإنساني ، وللحماقة الإنسانية) .

مع هذا ، فإنه لاإيمان لليهودي بدون معرفة أحكام التلمود ، على أساس أن هذا الكتاب يحتوى على أهم التعاليم التي يحترمها اليهود ، أو يجدون فيها خلاصهم .

والتلمود معناه التعليم ، وهو يتكون من :

المشناة ـــ وهي الروايات التي تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل ، ويدعون أنها تعاليم شفوية من النبي موسى .

وقد جمعها (يوضاص) أحد حاخامات اليهود ، بعد السيد المسيح بمائة وخمسين عاماً .

ولفظ (المشناه) يعني الشريعة المكررة ، فهي تكرار لشريعة موسى ، كما يفيد معنى (المتن) أي الأصل ، ويفيد معنى المعرفة .

ومن هذا يتبين أن لموسى شريعتين : مكتوبة ، وهي التوراة ، ومروية ، وهي المشناه .

ولقد أدخل حاخامات بابل وفلسطين الكثير من الزيادات على ما كتبه (يوضاص) ضمها أحد حاخاماتهم المدعو (يهوذا هاناسى) ، فيما بين ١٩٠ و ٢٠٠ م ، أي بعد قرن تقريباً من تدمير تيطس الروماني للهيكل .

وقد كتب الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون تعريفاً بالمشناه يقول : (منذ أيام معلمنا موسى حتى حاخامنا المقدس (يهوذا هاناسى) لم يتفق أحد من علماء اليهود على أي عقيدة من العقائد التي كانت تدرس علانية باسم القانون الشفهي ، بل كان رئيس محكمة كل جيل أو نبيه يضع مذكرة عما سمعه من سلفه وموجهه ، لينقلها شفهياً إلى شعبه ، وهكذا ألف كل فرد من العلماء كتاباً مماثلًا ليستفاد منه ، حسب درجة كفاءته ، إذا كان متمكنا من القوانين الشفهية ، وما توصل إليه السابقون من تفسير التوراة ، والقرارات التي أعلنت في مختلف الأجيال ، وقررتها المحكمة العليا «السنهدرين» ، وهكذا تقدم الزمن ، حتى أتى حاخامنا المقدس الذي جمع لأول مرة كل ما يتعلق بالسنة [1] والقرارات ، وشرح القانون المروى عن موسى معلمنا المأمور به في كل جيل) .

●● وهناك سفر آخر مماثل للمشناه هو بريثا Braitha الذي يضم تعاليم العلماء التنائيم ، الذين جاءوا بعد الحاخام يهوذا هاناسى واضع المشناه .

الجمارا : وقد استعصى فهم المشناه على كثير من قرائها اليهود ، مما أدى بالحاخامات إلى تدوين شروح وحواش وزيادات ، دعيت جميعها بالجمارا .

وقد أخذ فى تدوينه لأول مرة ابنا الحاخام يهوذا هاناسى ، وأكمله الحاخام أبينو ، ووضعه فى صورته الختامية الحاخام جوسى Jose سنة ٤٩٨ م تقريباً ، وكان الحاخام جوسى آخر من سمى لدى اليهود بالملقن أو الامر Dictator ، والذين اتبعوه من العملاء أطلق عليهم أصحاب الرأى Opinionists حيث لم يعد من اختصاصهم الأمر بشىء ، وإنما كانوا

---

(١) استخدم ابن ميمون (طبيب صلاح الدين الأيوبي) هذا اللفظ الإسلامي ، ليفيد أن التلمود بمثابة الحديث أو السنة في التشريع الإسلامي (!!) ، من حيث كونه منقولاً شفاها ، وكونه وحيا بلسان الرسول ، وكونه تفسيراً أو تفصيلاً لما جاء في التوراة .

يستطيعون الاستنباط من الأحكام السابقة .

وصارت المشناه والجمارا ما يعرف اليوم بالتلمود .

* * *

وتعزو الموسوعة اليهودية أهمية التلمود إلى أن انحطاط الحياة الفكرية لدى اليهود ـ وهو الانحطاط الذى بدأ فى القرن السادس عشر ـ جعل أكثريتهم الساحقة تنظر إليه كأنه السلطة العليا ، حتى إنهم أنزلوا التوراة مرتبة ثانية .

وفى عبارة التلمود ما يؤكد هذه المأساة ، إذ نجد (أن من درس التوراة فعل فضيلة لا يستحق عليها المكافأة ، ومن درس « المشناه » فعل فضيلة استحق أن يكافأ عليها ، ومن درس « الجمارا » فعل أعظم فضيلة) .

ويبدو التلمود كأنه تطبيق لأحكام التوراة ، رغم الفروق الكثيرة بينهما ، وهو سجل حافل يبين لنا – من خلال مناقشاته وشروحه وأمثلته الكثيرة ورواياته – كيف كان اليهود يحاولون تطبيق الوصايا والفرائض التوراتية فى حياتهم اليومية .

لهذا أصبح التلمود موضع التقديس .. وصار (من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت ، دون من احتقر أقوال التوراة ، ولاخلاص لمن ترك تعاليم التلمود ، واشتغل بالتوراة فقط ، لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في توراة موسى) .

ولم يكتف الحاخامات بهذا العبث ، بل انتهوا إلى (أن الله يستشير الحاخامات على الأرض ، عندما توجد مسألة معضلة لايمكن حلها في السماء) .

وجاء فى التلمود (أن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ، ولو بأمر الله .. وقد وقع اختلاف بين الرب وعلماء اليهود فى مسألة ، فبعد أن طال الجدال تقرر إحالة فصل الخلاف إلى أحد الحاخامات الربانيين ، واضطر الرب أن يعترف بخطئه) .

وزعموا (أن الله لا شغل له فى الليل غير تعلّم التلمود مع الملائكة ، ومع ملك الشياطين ، فى مدرسة السماء) .



(وفى النهار يطالع الله الشريعة فى ثلاث ساعات ، ويحكم فى ثلاث ، ويطعم العالم فى ثلاث ، ويلعب مع الحوت فى ثلاث)، ذلك لأن زمن النهار اثنتا عشرة ساعة .

ومن ثم كان عقاب من خالف تعاليم التلمود الحرمان الذى نصه :

(بناء على حكم إلهنا ، إله الآلهة ، يحرم فلان بن فلان من المحكمتين ، محكمة أول درجة ، والمحكمة العليا ، ومن القديسين والملائكة ، ومن الجمعيات الكبيرة والصغيرة ، ويضار بالقروح والأمراض الخبيثة كلها ، ويكون منزله مسكناً للجن ، ويكون نجمه مظلماً فى السماء ، ومن المغضوب عليهم ، ويطرح جسده للوحوش المفترسة والثعابين ، ويفرح أعداؤه ، ومن يريد له الشر ، وتعطى أمواله من الذهب والفضة لغيره ، وتسقط تلك الأموال تحت سلطة العدو ، ويلعن أولاده حياته ، ويكون ملعونامن فم عبد بريرون وعشتاربال وصندلفون وعزرائيل وغسيل وباشتيل ، ويسقط ولا يقوم ، ويلفظ من قبور بني إسرائيل ، وتعطى امرأته لغيره ويميل إليها آخرون بعد موته ، ويسقط هذا الحرمان على فلان بن فلان ، ويكون من نصيبه ، أما أنا وبنو إسرائيل فتكون لنا بركة الله وسلامه ، آمين) .

●● ومن هذا العبث يوجد تلمودان :

الأول يسمى التلمود البابلى ، وهو ما جمع وشرح فى بابل ، وأساسه (مشنا) هاناسي مع الشروح التى كتبها (أبا أريكا) المولود فى بابل سنة ١٧٥ م ، وأول من قام بتدوين هذا التلمود الحاخام (آشى) ، بهدف وضع لائحة قانونية معتمدة لليهود ، وقد كتب فى القرن الرابع للميلاد ، وهو أوسع من الأورشليمى ، الذى كتبه حاخامات طبرية ، ما بين القرنين الثالث والخامس للميلاد .

ويختلف تلمود أورشليم كثيراً عن مثيلهِ البابلى ، كمّا وكيفاً ، فمادة تلمود أورشليم ثلث ما يحتويه تلمود بابل ، كما أن تلمود فلسطين ينقصه العمق المنطقى ، والشمول الجامع ، اللذان يمتاز بهما تلمود بابل .

ويرجع هذا إلى أن تلمود بابل ألّف فى فترة استغرقت قرنا من الزمان فى

سلام وأمن ، أما تلمود أورشليم فجمع على عجل ، وفى ظروف غير مساعدة، بسبب اضطهاد الرومان .

وتلمود أورشليم يختلف كذلك فى لغته ، فلغته عبرية تتخللها عبارات بالأرامية الغربية ، أما تلمود بابل فأكثره بالأرامية الشرقية ، نسجت فيه عبارات عبرية ، ويتضمن كلمات عربية وسريانية ويونانية ولاتينية وكلدانية .

وهناك أوجه تشابه كثيرة بين التلمودين ، لأن مصدرهما واحد ، كما أن بابل ليست بعيدة من فلسطين ، فكان علماء البلدين يتبادلون الزيارات و يتبادلون الرأى والمعرفة .

والتلمود بعامة يعد أخطر وثيقة ضد الإنسان والإنسانية ، إذ يدعو إلى تحطيم كل العقائد والقيم والحضارات ، لإقامة مجتمع عالمى صهيونى يسيطر على كل دول العالم ، بكل الوسائل الممكنة ، من الغش والقوة والسلب والخداع والكذب .. كما يستبيح دماء وأموال الأجناس الأخرى ، ويعدهم فى منزلة الحيوانات .

ويكفى فى شريعة التلمود أن يظهر اليهودى بشكل الحمل الوديع ، تقية وخداعاً ، ثم ليعتقد ما شاء ، وليفعل ما شاء ، (إن الإنسان مهما كان شريراً فى الباطن ، وأصلح ظواهره ، يخلص) .

وتأكيداً لمبادىء الاستعلاء اليهودى ، والتفوق العنصرى على بقية الشعوب – كان العمل على اتخاذ الناس عبيداً ، لأن اليهود هم الشعب الذى اختاره الله ، دون بقية الشعوب ، فإن أرواح اليهود تتميز عن باقي الأرواح بأنها(جزء من الله كما أن الابن جزء من والده) ومن ثم كانت أرواح اليهود عزيزة عند الله ، بالنسبة لباقى الأرواح ، لأن (الأرواح غير اليهودية أرواح شيطانية أو شبيهة بأرواح الحيوانات) ، وقد خلق الله الأجنبى على هيئة الإنسان ، (ليكون لائقاً بخدمة اليهود ، الذين خلقت الدنيا من أجلهم) .
ويرى التلمود أنه(لولا خلق الله اليهود لا نعدمت البركة من الأرض ، ولما خلقت الشمس والأمطار ، ولما عاشت بقية المخلوقات) .

و(الشعب المختار فقط يستحق الحياة الأبدية ، أما باقى الشعوب فمثلهم

مثل الحمير) ، أو مثل الكلاب ، لأن سفر الخروج يقول : (إن الأعياد المقدسة لم تُجعل للكلاب أو الأجانب) ، ولأن إبراهيم الخليل ، حين توجه ليذبح ابنه إسحق ، كان يصحبه خدمه ، فقال لهم : امكثوا هنا والحمار ، بينما نذهب أنا وولدى إلى الأمام) ، ومن هنا عرف أن غير اليهود حمير .

لهذا ، (إذا قصد يهودى قتل حيوان فقتل شخصاً خطأ ، أو أراد قتل وثنى أو أجنبى فقتل يهودياً ،فخطيئته مغفورة) .

و(من العدل أن يقتل اليهودى بيده كل كافر ، لأن من يسفك دم الكافر يقدم قرباناً لله) .

و (من يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً يكافأ بالخلود في الفردوس والجلوس هناك في السراى الرابعة ، أما من يقتل يهودياً فكأنه قتل العالم أجمع ، ومن تسبب في خلاص يهودي فكأنه خلص الدنيا كلها) .

و(الذى يرتد عن الدين اليهودى يعامل معاملة الأجنبى ، غير أنه إذا فعل ذلك من أجل خداعهم فلا جناح عليه ، لأنه إذا أمكن لليهودى أن يغشّ أجنبياً ، ويوهمه بأنه غير يهودى – فهو مسموح به ، أما من اختلط بالمسيحيين ،.وعبد مثلهم الأصنام ، فهو منهم ، وينطبق عليه ما ينطبق عليهم) .

و (يجب علي اليهودي أن يبذل جهده لمنع امتلاك باقي الأمم للعقار ، وألا يمدحهم أو يصفهم بالحسن والجمال ، ولا يهبهم شيئاً بدون ثمنه) .

●● بهذا يكون التجسيم لانعزالية اليهود ، والتأكيد على حقهم في خيرات الأرض ، وامتلاكهم ما عند الآخرين ، على أساس أنهم البشر الوحيدون على وجه الأرض .

وبناء عليه فقد أصبح لهم الحق في قتل أو استعباد من شاءوا من البشر الآخرين ، دون استعمال الرأفة معهم ، ولايسمح لليهودي أن يكون مؤدباً مع الكافر ، أو يدّعى محبته ، إلا إذا خاف أذاه .. وإذا ألقي علية أجنبي السلام هزئ به وسخر .

(إن الله لايغفر ذنباً ليهودي يرد للأمي ماله المفقود) .

(غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبي إلا بربا) .

(إتيان زوجات الأجانب جائز ، لأن المرأة غير الإسرائيلية كبهيمة ، ولاعقد مع البهائم) ، و (إن لليهود الحق في اغتصاب غير اليهوديات) .

(من رأى أحد الأمميين يقع في حفرة لزمه أن يسدها بحجر) .

(مصرح لليهودي أن يغش غير اليهودي ، ويحلف له أيماناً كاذبة ، بشرط ألا يكشف الأخير غشه ، حتي لايضر بالدين في عيون الآخرين) ، (ويجوز لليهودى أن يحلف زوراً ، لأن اليمين التي يقسم بها لغير اليهودى لا تعد يميناً) .

(سرقة مال غير اليهودي استرداد لأموال اليهود من سالبها) .

(محرم على اليهودي أن ينجى أحداً من باقي الأمم من هلاك ، أو يخرجه من حفرة وقع فيها) .

ويحث التلمود جميع اليهود على بذل جهودهم بمنع وصول غير اليهود إلى السلطة ، حين يحين الوقت لتولي اليهود إياها ، وإلا فسيظلون مشتتين وأسرى .

والوصية الجامعة : (اهدم كل قائم ، لوث كل طاهر ، احرق كل أخضر ، كي تنفع يهودياً بفلس) .

(اقتلوا جميع من في المدن من رجل وامرأة وطفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير ، بحد السيف) .

(اقتل أفضل من قدرت عليه من غير اليهود) .

(العن رؤساء الأديان سوى اليهود ثلاث مرات كل يوم) .

ويزيد التلمود ، فيحدد أنواعاً من الطهر لايصل لها اليهودي إلا باستعمال الذبائح البشرية من المسيحيين .

وقضية مقتل الأب توما وخادمه إبراهيم عمار مشهورة ، ففي سنة ١٨٤٠ في دمشق احتال سبعة من كبار اليهود على هذا الأب وخادمه ،

وذبحوهما بتدبير من الحاخام موسى أبو العافية والحاخام موسى سلونكلي ، وبأمر من الحاخام يعقوب العنقابي الذي أوحى إليهم بأنه يلزمه دم بشري لعيد الفصح ، ووقع الاختيار على الأب توما ، لأنه يوجد في حارة اليهود أغلب الوقت ، وساق القدر خادمه ، يسأل عنه ، فكان خيراً وبركة ، من أجل الخبز الفطير الذي لايعطى عادة إلا للأتقياء من اليهود ، لهذا يرسل من هذا الدم إلى حاخام بغداد ، ليتم الغرض الديني ، وتتحقق السعادة .. ولأن الدم عند اليهود محرم ، حتى ولو كان دم حيوان ، فقد استثنى التلمود دم الفصح ودم الطهور .

●●لهذه العدوانية الصارخة أخفى اليهود هذا الكتاب عن بقية البشر قروناً طويلة ، وبخاصة عن العالم المسيحي ، إذ لم يكتف التلمود بوصف السيد المسيح بأنه لقيط (ممزير) ابن زنا ، وأنه تعلم ما كان يقوله للناس على يد (يوشوا بن برخيا)،وأن يوشوا حين علم بما يقوله حرمه وألقاه بين قرون أربعمائة كبش لتفتك به ، وأن معجزاته من أعمال السحر الذي تعلمه في مصر ، واختص المسيح وأتباعه بكثير من الألفاظ المهينة الدالة على الكذب والخداع والسحر والجنون والحمق والتضليل واللؤم والتفاهة والحقارة ، وادعى أنه قبل صلب المسيح أعلن في المدينة أن يحضر الذين يريدون الشهادة ببراءته ، فلم يتقدم أحد ، ووصف الإنجيل بأنه (وثيقة الكذب والخداع) ، وقال على مريم البتول : (إنها امرأة ساقطة ، مصففة شعور النساء ، وهي البغي المتجولة في الأزقة والأسواق) .

ومع هذا .. فاليهود في انتظار دائم لظهور المسيح (الماشيح) الذي حين يأتي (تطرح الأرض فطيراً وملابس من الصوف وقمحاً حبه بقدر كلاوي الثيران الكبيرة ، وفي ذلك الزمن ترجع السلطة لليهود ، وكل الأمم تخدم ذلك المسيح ، وتخضع له ، وفي ذلك الوقت يكون لكل يهودى ألفان وثمانمائة عبد يخدمونه وثلاثمائة وعشرة تحت سلطته ، لكن المسيح لايأتي إلا بعد انقضاء حكم الخارجين عن دين بني إسرائيل) .

ويوم الغفران هو اليوم الذي يصلي فيه اليهود صلاة يطلبون فيها الغفران عن خطاياهم التي فعلوها ، والأيمان التي أدوها زوراً ، والعهود التي

تعهدوا بها ولم يفوا .. ومن هنا سهل عليهم ارتكاب الخطايا ، مهما بلغ تجاوزها ، ما دامت تعود عليهم أفراداً وجماعات بما هو كسب لدنياهم ، إلى أن تقوم دولتهم أو دولة المسيح ، فلا يكونون في حاجة إلى الخطايا ، لأن كل شيء يأخذ طريقة لصالحهم .

يقول جنزبرج Ginzberg : (أعطى التلمود اليهودي جنة روحية خالدة ، يلجأ إليها كيفما شاء ، هارباً من العالم الخارجي ، بكل ما فيه من حقد ومظالم ، وعلى صفحات التلمود وجدت أجيال اليهود المتعاقبة إشباعاً لأعمق أمانيها الدينية ، وكذلك وجد اليهود في التلمود نافذتهم لأسمى استلهاماتهم الفكرية ، ورغم أن العالم قد انقطع عن قرونه الماضية ، فإن التلمود لايزال بعد التوراة القوة الروحية والأخلاقية المثمرة في الحياة اليهودية) .

ويقول إسرائيل إبراهامز : (بقي اليهودي بسبب التلمود ، بينما بقي التلمود في اليهودي) .

ويقول د. فابيان : (الحياة اليهودية ـــ حتى هذا اليوم ـــ مؤسسة إلى حد كبير على التعاليم والأسس التلمودية ، فطقوسنا ، وكتاب صلاتنا ، واحتفالاتنا ، وقوانين زواجنا ، بالإضافة إلى قوانين وأسس أخرى كثيرة مستخرجة مباشرة من التلمود ، والتلمود هو الذي تعزي إليه الصفات التي يتميز بها اليهودي ، فالاتزان في الشخصية ، والصدق ، ونزعته إلى الحرية الاجتماعية ، وعلاقته العائلية الوطيدة ، وتعطشه للتعليم ، وإمكانياته العقلية ، كلها ترجع إلى التلمود ، فالحياة اليهودية قد أثرت بهذا الكتاب) .

* * *

لقد هوجم التلمود بشدة منذ ظهوره ، على أساس أنه (انحرف بالتوراة انحرافاً شديداً ، وجاء لتلويث دعوة التحرير ، وصنع ديناً جديداً) فيه عنف وعصبية ونقمة على الآخرين .

في عام ٥٥٣ م ـــ أي بعد الفراغ منه بزمن قصير ـــ قرر القيصر جستنيان مصادرته ، ثم جاءت الكنيسة واقتفت أثر القيصر ، واستمرت الكنيسة والدولة تتعقبانه ، مصادرةً وحرقاً وإتلافاً ، قرابة ألف عام ،

باعتباره أهم مصدر للتعاليم اليهودية التي أدت إلى مقاومة اليهود للسلطة والدين المسيحي ، سراً وعلانية .

واشتدت حملات الملوك والبابوات ضد التلمود ، منذ القرن الثالث عشر ، وصدرت الأوامر بإتلاف نسخه في فرنسا من سنة ١٢٤٤ إلى ١٢٧٠ م ، كما حدث ذلك في انجلترا سنة ١٢٩٠ ، حين أمر الملك بطرد اليهود عن البلاد ، بعد أن اكتشف حيلهم ومكرهم ومقتهم للشعب الإنجليزي المسيحي .

وفي أواخر العصور الوسطى لم يحرق التلمود ، واكتفت السلطات الحاكمة والكنيسة بالرقابة على طبعه، فأجازت تداول نسخ معدودة ، بعد حذف فصول عديدة .

وقد عقدت مناظرة كبرى بين بابلو كريستياني والحاخام موسى بن نحمان ، في برشلونه سنة ١٢٦٣ م ، فاقتنع البابا مكيمنت بأخطاء التعاليم التلمودية ، فأصدر مرسوماً بتحريم قراءة التلمود أو حيازته ، ومصادرة ما وجد من نسخه ، كما فرض رقابة على طبع نسخ جديدة ، وأعاد تنفيذ القانون الذي كان لويس الحادى عشر قد أصدره ، وهو يلزم اليهود بوضع علامة مميزة على أكتافهم .

وجرت محاكمة عادلة في عهد الملكة بلانش ، في ٢٤ يونية ١٢٤٠ م ، اعترف فيها اليهود بكثير من معتقداتهم الخطيرة ، وكان مما ترجم من التلمود في هذه المحاكمة ما يلي :

(إن يسوع الناصرى موجود في لجات الجحيم ، بين الزفت والقار ، وإن أمه مريم أتت به من العسكري باندارا ، بمباشرة الزنا ، وإن الكنائس النصرانية هي بمستوى القاذورات ، وإن الواعظين فيها أشبه بالكلاب النابحة ، وإن قتل المسيح من الأمور المأمور بها ، وإن العهد من المسيحي لايكون عهداً صحيحاً يلتزم القيام به ، وإن من الواجب أن يلعن يومياً ثلاث مرات رؤساء المذهب النصراني ، وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة ضد بني إسرائيل) .

وإلى هذا كله .. يضم التلمود خليطاً من الأفكار التي دعت إلى القول (إنه دائرة معارف تشمل كل نواحي الحياة الانسانية) .

إنه بالإضافة إلى القوانين الحاخامية المنشودة للسيطرة على رقاق الضمائر والمتيشككين من اليهود ، يضم كل نوع من الفلسفات التي كانت في تلك العصور الغابرة ، وهو مستودع لكثير من أحداث التاريخ والاكتشافات العلمية .

ويقف التلمود مع المرأة موقفاً متشدداً ، فهو ينتقصها ، ولا يلحقها بالمدارس الدينية ، (وإن امرأة أساءت إدارة البيت ، أو وجد الرجل امرأة أجمل منها ، فله الحق في أن يطلقها) .

واليهود إلى اليوم يحرمون المرأة من حقوق كثيرة .. وفي الدعوات يقول الرجل على مسمع من زوجته وابنته : (حمداً لله أنه لم يخلقني امرأة) .

وفي التلمود أن اليهود الذين يرتدون عن دينهم بقتلهم يهودياً آخر لايدخلون الجنة ، وإنما (تدخل أرواحهم في النباتات والحيوانات ثم تذهب إلى الجحيم ، وتعذب عذاباً أليماً مدة اثني عشر شهراً ، ثم تعود ثانية لتدخل في النباتات والحيوانات ، ثم ترجع إلى جسد يهودي بعد تطهيرها)، أقرب إلى المعتقدات الهندوسية .

كما أن التلمود يؤكد أن غير اليهود نجسون ، ولا يمكن لليهودي أن يدخلهم بيته ، أو يأكل معهم ، وليس له أن يعاملهم إلا بغرض التجارة .. نفس موقف الهندوس من المنبوذين والمسلمين والمسيحيين وغيرهم .

ويزعم التلمود أن سبب نجاسة الأجانب أنهم لم يقوموا على جبل سيناء ، بعد أن نجس إبليس حواء ، أما الإسرائيليون فقد تطهروا وحدهم بوقوف (آبائهم) على هذا الجبل .

يقول الرابي (مناحم) : إن أرواح اليهود مصدرها روح الله ، أما باقي الأمم فمصدر أرواحها الروح النجسة .

والحاخام (أيل) يعد الخارجين على ديانة اليهود خنازير نجسة تسكن الغابات ، ويجب على المرأة أن تعيد الاغتسال إذا رأت عند خروجها من

الحمام شيئاً نجساً ، ككلب أوحمار أو جمل أو خنزير أو مجذوم أو آدمي غير يهودي .

ويزخر التلمود بشتى الخرافات ، كالتنجيم وطقوس السحر والشعوذة والعرافة ، ويؤكد أن الأرواح الشريرة والشياطين والجنيات من ذرية آدم ، وهؤلاء يطيرون في كل اتجاه ، ويعرفون أحوال المستقبل ، باستراق السمع عن السماء ، وهم يأكلون ويشربون مثل الإنسان ، ويكثرون من جنسهم ، وبعض الشياطين يسكن الهواء ، وهؤلاء يسببون الأحلام للإنسان ، وبعضها يسكن قاع البحر ، وهؤلاء إذا تركوا وشأنهم تسببوا في خراب الأرض ، وبعض الشياطين تسكن أجسام اليهود المتعودين على ارتكاب الخطايا .. والشيطان يحب الرقص بين قرني الثور في المربط ، ولهذا يمنع الناس من أن يركبوا ظهور الثيران التي كانت مربوطة في كشك داخلي ، كما يمنع الناس من أن يسلموا على أصدقائهم في الليل ، خوفاً من أن يسلموا على الشياطين ، وعلى كل شخص أن يغسل يديه بعد الفجر ، لأن الروح الشريرة تستريح على الأيدي القذرة ، كما أن على الناس أن يريقوا بعض الماء من الإناء قبل أن يشربوا منه ، خشية أن تكون الأرواح الشريرة شربت منه .

ويعلل التلمود كون الشياطين بلا أجسام وملابس بأن الله خلق الشياطين يوم الجمعة عند الغسق ، فأعجله يوم السبت عن أن يتم خلقهم . (لاحظ أنه سبق أن قال إنهم من ذرية آدم) .

ويؤكد أن الشياطين لاقوة لها على من يقرءون التلمود ، ويعكفون على دراسته .

وهناك قصص وخرافات لانهاية لها عن معجزات الحاخامات وأساطير الأفاعي والضفادع والأوز والطيور والأسماك .

ويرى التلمود أن الله خلق آدم ذا وجهين ، رجلًا من ناحية ، وامرأةً من ناحية ، ثم قطعه من النصف ، وأن طوله كان يصل إلى القبة الزرقاء ، ولكن بعد خطيئته وضع الله يده على رأس آدم وكبسه حتى صار صغيراً ،

وأنه أتى الخطيئة في الساعة العاشرة بعد خلقه ، ثم طرد من الجنة في الساعة الثانية عشرة .

ويذكر التلمود أن هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل كان خطأ ارتكبه الله ، واعترف به ، وندم عليه ، وحاول التكفير عنه بتخصيص ثلاثة أرباع الليل للبكاء والندم .

ولأن الله ترك اليهود في حالة من التعاسة ندم وصار يلطم ويبكي كل يوم ، فتسقط من عينيه دمعتان في البحر يسمع دويهما من بدء العالم إلى منتهاه ، وتضطرب المياه ، وترتجف الأرض ، فتحدث الزلازل .

* * *

ومن حكم التلمود وآدابه :

كل من يعلّم أمام أساتذته يستحق أن تلدغه حية .
الرجل الذي في سلته خبز ليس كالذي لاشيء في سلته .
الأجدر بك أن تكون رأس ثعلب من أن تكون ذنب أسد .
الخلاعة في بيت مثل دودة في يقطينة .
صديقك له صديق ، وصديق صديقك له صديق ، فكن حصيفاً .
الولد الطالح للأب الصالح كالخل من الخمر .
الشباب تاج الورود ، والشيخوخة تاج الأشواك .
كثيرون يعظون جيداً ، لكنهم لايعملون جيداً .
عقاب الكاذبين أنه لايصغى إليهم عندما يصدقون .
المغرور عابد وثن .
كل من يتفقد ممتلكاته كل يوم يجد قطعة من النقود .
المنصب لايشرف الإنسان ، الإنسان يشرف المنصب .
ليس الاعتبار بما تقوله عن نفسك ، لكن بما يقوله أصدقاؤك عنك .
الصدقة ملح المال .
دع السكران يذهب وحده ، ليسقط وحده .
الأجدر بك أن تكون ملعوناً من أن تصبح من اللاعنين .
هذا العالم مثل منزل على الطريق ، والآخرة هي البيت الحقيقي .

الطفل يحب أمه أكثر من أبيه ، لكنه يخاف أباه أكثر من أمه .
البيت الذي لايفتح بابه للفقير سيفتح الباب للطبيب .
اهبط خطوة عند اختيار الزوجة ، واعلُ خطوة عند اختيار الصديق .

* * *

ويضم التلمود ستة أبواب ، يسمى كل منها سدر ، وهي :

١ ــ سدر زراعيم Zeraim أو البذور ، يتناول قوانين التوراة الزراعية ، من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، ويشرح الأحكام التوراتية المتعلقة بحقوق الفقراء والكهنة واللاويين في غلال الأرض وحصادها ، ويتألف من ١١ سفراً .. وهو يؤكد تطور اليهود من الرعوية إلى الزراعية ، وأنهم على مر التاريخ نجحوا في الميدان الزراعي ، كغيرهم من الشعوب ، وفي العصور الوسطى كانت لهم أراض واسعة في أسبانيا الإسلامية والمسيحية ، وفي صقلية وسيليزيا وبولندا وانجلترا وفرنسا .. ومن أعيادهم عيد الحصاد . (شفاعوت) مما يفيد أن نشاطهم في المجال التجاري والمالي إنما كان رهناً بالظروف الاجتماعية والاقتصادية الأوربية .

٢ ــ سدر ناشيم Nashim أو المرأة ، وفيه قواعد الزواج والطلاق ، وغير ذلك من الأحكام التي تتعلق بالعلاقات الزوجية .. وأسفاره سبعة .

٣ ــ سدر موعيد Mo'ed أي الأعياد والمواسم ، والمناسبات الدينية ، والطقوس والشعائر والفرائض والقرابين ، وكيفية معرفة الأشهر العبرية والقمرية .. الخ .. ويقع في ١٢ سفراً .

٤ ــ سدر نزيقين Nezikin أو الأضرار ، ويضم القوانين المدنية والجنائية ، كما اختص بالحديث عن عصر المسيح ومحاكمته وصلبه وحوارييه ، وبالغ في الحط من السيد المسيح .. في عشرة أسفار .

٥ ــ سدر قداشيم Kodashim أو المقدسات ، ويتناول التضحيات وشعائرها ، والأحكام الخاصة بالهيكل ، والإثم والخطيئة ، وكفاراتها .. ويقع في ١١ سفراً .

٦ ــ سدر طهاروت Tohorot أي الطهارة ، ويضم مجموعة من قوانين الطهارة والنجاسة والرجاسة ، التي تؤكد الخشية والإجلال .. ويتكون من ١٢ سفراً .

وبالإضافة إلى هذه الأبواب الستة توجد سبع رسائل تلمودية صغيرة : توراة .. ميزوزاه .. تفلين .. تزيت زيت .. أباديم .. كوثيم .. جريم .

وهناك ست رسائل أخرى تضاف إلى طبعات التلمود الجديدة ، وهي : أبوث الحاخام ناثان .. سوفريم .. سيماهوث .. كالاح .. درش أرتز إسرائيل .. درش أرتزنزونا.

وثمة سفر مماثل للتلمود ، يسمى مدراش Midrash وهو يجمع الحكم والقصص والأحكام التي جمعها ، أو اختلقها الحاخامات بعد إتمام التلمود ، وقد دونت في هذا السفر مخافة أن تضيع .

وتذكر دائرة المعارف اليهودية أنه (أثناء انحطاط الحياة العقلية اليهودية الذي بدأ في القرن السادس عشر كان التلمود يعد – على وجه التقريب – السلطة العليا ، عند أكثرية اليهود ، وفي نفس الوقت أصبحت أوربا الشرقية ، خصوصاً بولندا ، مركز دراسة التلمود ، والتوراة أصبح مكانها ثانوياً ، وكرست المدارس اليهودية جميعاً لدراسة التلمود ، حتى إن كلمة الدراسة أصبحت مرادفة لكلمة التلمود) .

ويقال إن النسخة العبرية الأصلية من تلمود بابل يجرى إعادة طبعها الآن في إسرائيل ، ويقوم على ذلك الحاخام آدين شتانيزالتز ، وسيطبع منها ـــ كما أعلن ـــ ستة آلاف نسخة ، ستوزع بسعر رمزي (قدرة عشرة دولارات لكل جزء من أجزائه الخمسة والثلاثين) على المشتركين فقط،وقد غطيت الاشتراكات منذ عام ١٩٦٠ م .

ويلاحظ أن محاولة طبع التلمود بدأت عام ١٤٨٤ م ، إذ ظهر الفصل الخاص بالبركات في نسونسيتو بإقليم لومبارديا ، وفي عام ١٥٢٠ م ، ألغى البابا (ليو) العاشر الأمر الخاص بمنع طبع التلمود ونشره ، فأخذ (دانيال بومبرج) في البندقية ينشره مستعيناً بعدد كبير من العلماء والباحثين ،

واستطاع إخراجه في ثلاثة أعوام ، وتجددت الطبعات متقنة .. وبعد أن ظهرت أربع طبعات له في منتصف القرن السادس عشر ، بتصريح من الفاتيكان، عادت الحركة المعادية إلى الظهور ، فأصدر البابا يوليوس الثالث في ١٠ أغسطس سنة ١٥٥٣ م قراراً بإعدام طبعاته ، لكن ما لبث أن طبع في بولندا وتركيا .. وظهرت في بازل ما بين ١٥٧٨ / ١٥٨١ طبعة أخرى تعتبر المرجع الأصيل الذي تعتمد عليه الطبعات المتأخرة ، وأخذت الطبعات المختلفة تتوالى في عدد من الدول الأوربية ، وفي القرن الأخير ظهرت من التلمود سبعون طبعة ، إلى جانب المختارات التي نشرت مئات المرات .. ويوجد في نسخ كثيرة من التلمود المطبوع في المائة سنة الأخيرة بياض أو رسم أو دائرة ، بدلًا من ألفاظ السب في حق المسيح والسيدة العذراء والرسل .

وقد وجه دعاة حركة الاستنارة اليهودية سهام نقدهم للتلمود ، واعتبروا أنه لاأمل يرجى في تطور اليهود إلا بالإطاحة بسلطة التلمود ، وكانوا كثيراً مايوجهون نظر الحكومات إلى ضرورة القضاء على هذا (الكتاب الضار) ، بسبب مبالغاته عن اليهود وتصعيده لأوهامهم عن أنفسهم ، ولكن الحاخامات الأرثوذكس وكل دعاة السيطرة على قلوب الجماهير اليهودية وعقولها تدافع دفاعاً مستميتاً عن التراث التلمودي ، بالرغم من العزلة الوجدانية والروحية والعقلية التي ضربها التلمود على اليهود ، حتى أن (هيني) الشاعر الألماني سماه وطن اليهود المتنقل .

ويلاحظ فى الأيام الأخيرة أن بعض المثقفين العرب جعل ينادى بضرورة نقله إلى اللغة العربية ، فى طبعة شعبية !!

العقـائد اليـهوديـة

أ ــ الله ــ نجد (العهد القديم) يعرض الله في صورة لاتلتقي مع صفاته جل شأنه في القرآن الكريم ، إذ هو ﴿ **الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر** ﴾ ﴿ .. **الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ (الحشر ٢٣ ــ ٢٤) .

لكنه في (العهد القديم) أقرب إلى الآلهة التي كانت تعبد في الشعوب التي نزل بها اليهود ، أو عبروا .

وإذا كان سفر (تكوين) قد أشار إلى أن (يهوه) قد تجلى لإبراهيم ، فأمره بالرحيل عن بلاده ، وفي أثناء رحلته (قطع الرب مع أبرام ميثاقاً ، قائلًا : لنسلك أعطى هذه الأرض ، من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات) تكوين ــ ١٥ وقد اشترط على إبراهيم أن يختص الله وحده بالعبادة ، ولا يشرك به أحداً فإن سفر (خروج) قد أشار إلى هذه الوحدانية كذلك ، فقال : (لايكن لك آلهة أخرى أمامي .. لاتصنع لك تمثالاً منحوتاً ، ولا صورة ما مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض .. لاتنطق باسم الرب إلهك باطلاً) خروج ــ ٢٠

لكن هذه الوحدانية ــ في سياق ورودها ــ تفيد أن هذا الإله ليس للناس جميعاً ، إنما هو إله (خاص) بالشعب الإسرائيلي .

ولأنه إله إسرائيل ، فلابد من أن يكون قريباً من (الشعب المختار) حيثما حل ، وأينما ارتحل .. ولا يكفي أن يكون هذا القرب بعونه ورعايته ، بل بصورته كذلك (مجسداً) .

فهو (في وسط هذا الشعب الذي أنت يارب قد ظهرت لهم عيناً لعين ، وسحابتك واقفة عليهم ، وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهاراً ، وبعمود نار ليلًا) عدد ــ ١٤ .

ولقد (صعد موسى وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل ، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف ،

وكذات السماء في النقاوة ، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل ، فرأوا الله وأكلوا وشربوا) خروج — ٢٤ .

ويتكرر ذكر هذا التجسيم لله في كل كتب (العهد القديم) تقريباً ، مما يثير أكثر من تساؤل .

لقد عاش الإسرائيليون في مصر خمسمائة عام تقريباً ، ومرت بهم دعوة (اخناتون) إلى الوحدانية ، وهاجروا بعدها بقليل ، وكانت هجرتهم مرتبطة بدعوة موسى إلى التوحيد ، فكيف أنهم بمجرد غياب موسى لفترة محدودة ، يصنعون ﴿ **عجلًا جسداً له خوار** ﴾ من الذهب الذي جمعوه من مصر ، وتنتشر بينهم الأفكار البدائية كالخوف من الشياطين والأرواح الشريرة ، ويعبدون الحجارة والأغنام والأشجار ، ويتخذون في بيوتهم أصناماً صغيرة يعبدونها ، وينتقلون بها من مكان إلى آخر ؟!

أيكون ذلك بسبب الرعب الشديد الذي أصابهم في رحلة الخروج ، وجيوش فرعون تلهب أقدامهم ؟

أم هو ذلك الضياع أربعين عاماً في صحراء خرقاء ، تهوي بهم الريح حيث لايجدون بابا للرجاء ؟

لقد أصيب القوم باضطرابات نفسية ، وعناء شديد ، أفقدهم الإيمان بالقيم ، وربطهم بالخرافات والأوهام .

هذا إلى أن كتّاب (العهد القديم) وقعوا تحت تأثير الحضارات من حولهم ، وهم الآخرون أصيبوا برواسب الأسر الطويل ، فخلطوا بين ما ترسب في وجدان الشعب من أوهام ومخاوف ، وبين ما أخذوا به أنفسهم من ثقافات جديدة ، وما بقي من آثار موسى .

إن واقعة (العجل الذهبي) قد تفيد أن الإحساس المادي عند هؤلاء القوم كان أقوى من الإحساس الروحي ، فهم لايقدرون إلا ما يرونه ويلمسون وجوده ، من أجل هذا كان التجسيد ، وقد قوي في نفوسهم نتيجة الإحساس بالذل والهوان والفزع عقب الخروج من مصر ، فكان لديهم استعداد قوي لقبول ما عند الشعوب الأخرى التي مروا بها —

وكانت أقوى منهم حضارة ، ولها آلهة مجسدة ــ كنوع من الاستئناس أو إعلان الخضوع .

وقد يكون اختيار (العجل الذهبي) نوعاً من الحنين إلى مصر التي (نَفشَ فيها غنم القوم) ، وتحققت فيها سعادتهم عدة قرون ، وبخاصة أن العجل كان معبوداً مصرياً .

●● ويلاحظ أن الصفات التي ألبسوها لإلههم (يهوه) أو (إلنوهيم) إنما هي أحاسيسهم المتسمة بالاستعلاء والعنف والأنانية شديدة التقتير ، ومرد ذلك إلى العزلة والخوف والحرمان وعدم الاطمئنان إلى الآخرين ، لذلك أصبحوا والإله يعملون لغاية واحدة ، وبأسلوب واحد .

إنه إله يعد ويخلف ، لايملك نفسه عند الغضب ، يأخذ الإبن بجريرة الأب ، منتقم شديد الانتقام ، لا ينسى أن يثأر حين يقدر ، فظ غليظ القلب ، يحابي على حساب الآخرين .

هو إله تذهب به الظنون مذاهب ، لأنه حصيلة انفعالات نفسية ذات أعماق رهيبة ، حصيلة ضياع في التِّيه أربعين عاماً ، وحروب وحشية مدمرة لاتبقي ولا تذر ، تحت قيادة يشوع ثم داود ، وتمزقات قاسية في عهد رَحبعام بن سليمان ويربعام ، ثم الوقوع تحت وطأة الأشوريين في عهد سرجون ، وأخيراً الأسر والشتات الكبير في عهد نُبوخذنصر.. وقد بدأت الكتابة للتوراة في الأسر .

فإذا وجدنا في (أشعياء) بعد ذلك ملامح الوحدانية الحقة :

(أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض ، أنت صنعت السموات والأرض) .

(هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها ، باسط الأرض ونتائجها ، معطى الشعب عليها نسمة ، والساكنين فيها روحاً) .

(أنا الأول ، وأنا الآخر ، ولا إله غيري) .

(مصدر النور ، وخالق الظلمة ، صانع السلام) .

إذا وجدنا مثل هذه الصفات فإنا لانجد تعليلًا إلا أنها ثمرة ثقافات طارئة ، أدت إلى مراجعة عقائدية في مرحلة من مراحل حياتهم ، أو هي قدر مما بقي من آثار أنبياء بني إسرائيل ، مختلطاً بكثير ما دخل عليها من ديانات وخرافات الشعوب التي نزلوا بها أو أحاطت بهم .

وهذا ما يؤكده صاحب كتاب (التوراة تاريخها وغاياتها) من أنه (لم يكن «يهوه» قبل حزقيال سوى إله آخر من الآلهة القبلية السامية ، لايختلف عنها بشيء ، مثله مثل بعل مردوخ في بابل وملكارت في صور ، وآشور إله الأشوريين ، وقد أتي حزقيال فأضفى عليه صفات من الألوهية لم تكن موجودة) ص ٢٧ وبالطبع لم يأت بها حزقيال من عنده ، إنما هي مراجعات طويلة للتراث اليهودي وغيره من الروافد .

ب ــ **الأنبياء** ــ إذا كان هذا هو إله (الشعب المختار) فما الظن بأنبيائه ؟

إن المتتبع لحال الأنبياء الذين جاء ذكرهم في التوراة لايكاد يجد نبياً سوياً .. كلهم أصابتهم أقلام كتاب (العهد القديم) في خير ما يملكون من صفات .

نوح [1] يشرب الخمر ، فيسكر ويتعرى ، وحين يفيق يصب لعنته على (كنعان) حفيده فيقول : (ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته) تكوين ٩ ـ لأن الكنعانيين هم أصحاب الأرض التى يطمع فيها الإسرائيليون .

وإبراهيم ، أبو الأنبياء ، يقف موقف المتاجر بعرضه ، المحتمى بامرأته الجميلة سارة ، ويصير له من وراء ذلك (غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال) تكوين ١٢ .

ولوط ابن أخي إبراهيم يضطجع مع ابنتيه ، لينجب بني عمون وبني يواب الذين سيصبحون من أعداء بني إسرائيل – تكوين ١٩ .

ويعقوب تآمر مع أمه على أخيه عيسو ، فنال حق البكورية وبركة

(١) لم أتبع اسم كل نبي بالتحية الإسلامية (عليه السلام) لأن هؤلاء الأنبياء في منطوق العهد القديم يختلفون تماماً عن أنبياء الله الحقيقيين ، عليهم أفضل الصلاة والسلام .

إسحق ، دون أن يدري إسحق النبي بشيء من هذه الخديعة – تكوين ٢٧ .

وداود زَنَى بزوجة أوريا الحثي ، الجندي المخلص في جيشه ، وعمل على قتل أوريا ، حتى لايرى أن امرأته حملت سفاحاً ، وحتى تنضم العشيقة إلى حريم داود بعد ذلك وتلد سليمان – صموئيل الثاني ١١ .

وسليمان قتل أخاه (أدونيا) ، وقائد جيش أبيه (يواب بن صروية) ، وطرد (أبياثار) الكاهن ، ليخلص له الحكم. ثم تزوج (سبعمائة من النساء السيدات ، وثلاثمائة من السراري ، فأمالت نساؤه قلبه) ، وبنى لجميع نسائه الغريبات مرتفعات لآلهتهن ، فكن (يوقدن ويذبحن لآلهتهن) – الملوك الأول ١١ .

هؤلاء هم أعلام أنبياء بني إسرائيل ، مجرمون مشركون أيضاً ، فإذا أضفنا ما كان يفعل قادتهم باسم الرب من خراب ودمار وإبادة كاملة لكل نفس حية ، وصلب وتمثيل بالجثث وحرق – حرنا في تفسير هذا كله .

أيكون محاولة للتخفيف من أعباء الجرائم اليهودية على نفوس الأجيال الجديدة ؟

أهو تهوين من أمر الجريمة ، وتبرير لارتكابها في حق الشعوب الأخرى ؟

أم هو صورة التمزق النفسي الذي أصاب اليهود بعد الشتات ، فصرنا لا نرى إلا تنبؤات عن غضب الله ووعيده ، وعن رجاء في الخلاص مما حاق بهم ، وكأنهم يقولون للرب : لقد غفرت لأنبيائك جرائمهم ، فلماذا لاتغفر لنا ، وما نحن إلا أتباع هؤلاء الأنبياء ، ولم تعطنا قدراتهم ؟

ومن العجيب أننا نجد القمص صموئيل مشرقي يعلل هذه الجرائم بأنها تؤكد (أن الكمال لله وحده ، وأن الجميع زاغوا وفسدوا ، لأننا نعرف أنهم جميعاً بشر متناسلون من آدم الساقط ، ووارثون منه الطبيعة الفاسدة التي تميل إلى الشر) – مصادر الكتاب المقدس ص ١١٩ .

فماذا أبقي هذا القس الكبير لغيره من القول ؟

لقد تميز أنبياء بني إسرائيل بحلول روح الله فيهم ، إذ تقفز روح الله على النبي ، كما يقفز الطير الجارح – صموئيل الأول ١٠ / ١٠ – وكان بعض الأنبياء مثل أليشع يجري طقوساً خاصة لاستقبال روح الله ، إذ يروى أنه كان يستدعي عازفاً على الأوتار ليعزف له بعض الألحان – الملوك الثاني ١٨ / ٣٦ – ويقف وقفة هادئة – الملوك الأول ١٨ / ٤٢ – وإذا ما حلت الروح بالنبي انطرح أرضاً طوال النهار والليل ، فاقداً وعيه ، وهو في حالة غيبوبة ، وقد يظهر في حالة تشبه حالة المجانين – صموئيل الأول ١٩ ى ١٨ / ٢٤ – فمرض شاءول العقلي اعتبر نبوءة ، والنبي كالمجنون غير مسئول عما يفعل ، فهو يأتي بحركات تريدها الروح ، كأن ينتقل من مكان إلى آخر مثلًا – الملوك الأول ١٨ / ١٢ – وإبّان فترة حلول الروح بالنبي يتفوه بألفاظ وعبارات هامة جداً ، يتلقفها الجمهور ، لأنها نبوءات تتحدث عن المستقبل ، لذلك يحرص القوم على تدوينها .

وكان الأنبياء يتميزون بلبس الفراء ، والتمنطق بمنطقة من الجلد ، كما كانوا يقصون شعورهم قصاً خاصاً ، شأنهم شأن رجال الدين اليسوعي اليوم ، وكان للنبي الحق فى الزواج والتناسل والملكية .

ج – **المسيح المنتظر** ـ بشّر أشعياء ودانيال بمجيء السيد المسيح ، لكن الصيغة التي وردت في أشعياء تبدو مقحمة ، إذ يقول الرب : (يعطيكم السيد نفسه آية ، ها العذراء تحبل وتلد ابناً ، وتدعو اسمه عمانويل ، زبداً وعسلًا يأكل، متى عرف أن يرفض الشر ، ويختار الخير) – أشعياء ٧ .

فإذا قلنا إنه يتحدث عن السيد المسيح ، كان لنا أن نسأل ، كيف تكون (الآية) لقوم يعيشون قبل زمن وجودها أكثر من سبعة قرون ؟ (تاريخ تدوين سفر أشعياء) أي دور تلعبه هذه الآية في حياتهم حتى تكون في موضع البشرى ؟

وإذا قلنا إنه حديث المستقبل لأبناء هذا المستقبل كان الهدف بعث الأمل في النفوس ، والتعلق بالخير عن طريق رفض الشر ، كما أنه حديث الحاضر حثاً على مجاهدة النفوس ، وخلاصاً من القشور السوداء ، رجاء ميلاد جديد لكل نفس ، وصفاء جديد لكل حس ، تتحول معه الأشياء إلى ما

يشبه مذاق الزبد والعسل .. وهو من المعاني الدينية القريبة من التصوف ، أو هو حالة من حالات التصوف .

ولعل هذه العبارة من صناعة كتاب المسيحية الذين أكثروا من ترديد هذه (البشرى) في الأناجيل ، وبخاصة (متى) الذي يقول : إن ملاك الرب قال ليوسف زوج مريم ، (ستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع ، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم ، وهذا كله لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل : هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً ، ويدعون اسمه عمانويل ، الذي تفسيره الله معنا) متى ١ .

وعلى كل حال فإن هذه البشرى كانت في صالح الكهان للتأثير على النفوس ، لهذا كانت أوصافه – التي هي من أوصاف السيد المسيح في الأناجيل – ملهبة للخيال والشوق ، بحيث تظل الجموع متطلعة إليه ترجو لقاءه .

إنه إنسان سماوي ، كائن معجز ، خلقه الله قبل كل الدهور ، وهو في السماء حتى تحين ساعة إرساله ، تجمع طبيعته بين اللاهوتية والناسوتية ، ولابد أن يكون من نسل داود .

وقد تنبأ (ميخا) أنه سيخرج من بيت لحم ، ويعيد العدالة والحق إلى سائر العالم – ميخا – ١ / ٣ / ٦ .

ويمكن القول إن البشرى برسول قادم سنّة إلهية لتهيئة النفوس ، لكن العبارة التي صيغت البشرى في طياتها هي محل نظر ، كما يقول العرب ، وبخاصة أن بشرى (المسيح المنتظر) لم تظهر إلا في كتابات ما بعد السبي ، أشبه بما جاء في عبارة مترا الفارسية التي انتشرت في العالم لمدة تقرب من ستة قرون ، ذاكرة أن (مترا ولدته عذراء في كهف في ٢٥ ديسمبر ، وأنه جاب الآفاق يبشر برسالته ، وكان حواريوه اثنى عشر رجلًا ، وأنه مات في سبيل البشرية ، واحتفل بقيامه من القبر بفرح عظيم ، وقد أطلق عليه اسم المخلص .. ومما هو جدير بالذكر أن هذا الدين كان قوياً إلى القرن الثالث الميلادى) [1] .

---

(١) د. جابر الحيني – في العقائد والأديان – ص ٢٤٩ / ٢٥٠ .

وقول (روبرتسون) هذا عن (مترا) يفيد أن (المسيح المنتظر) ثمرة اتصال بالثقافة الفارسية ، وإحساس بالحاجة إلى من يخلص اليهود من أسر البابليين .

من أجل هذا ، لم يؤمن (أصحاب المصالح الحقيقية) بالسيد المسيح حين ظهوره ، بالرغم من اتفاق الصفات ، وظلت الكتابات اليهودية على حالها تدعو إلى ظهور (المسيح المنتظر) حتى أيامنا هذه ، فاليهود القاطنون في حي (مياشعاريم) بالقدس يعتبرون دولة إسرائيل ثمرة (الغطرسة الآثمة) ، لأنها قامت على يد نفر من الكافرين الذين حرّفوا مشيئة الله بعلمهم ، وتطاولوا على وعد الرب ، بدلًا من انتظار المسيح الموعود . وتدخل الرب بصورة (عجائبية) ، فالمسيح المنتظر هو وحده القادر على إقامة الدولة ، حيث تكون (مملكة الكهنة والقديسين) .

وهؤلاء سكان (مياشعاريم) يعبرون عن إيمان صادق بما أوحاه الكهان وعمقوه في نفوسهم .

ج – **الآخرة والبعث** – من خلال دراسة العهد القديم نجد أنه لم يمس العالم الآخر من قريب أو بعيد ، وكأنه اكتفي بالعقوبات الشديدة التي تنزل بالمجرمين ، أو لعله تأسى بديانة إخناتون ، دون ما سبقها من الديانات المصرية التي كانت تؤمن بالحياة الثانية ، بعد الموت ، والمعروف أن إخناتون أغفل العالم الآخر بسبب محاربته الديانات الشعبية التقليدية ، حيث يحتل إله الأبدية (أوزوريس) مكاناً رئيسياً ، وربما كان بدوره أنشط أدوار الآلهة .. فإذا كان موسى (العهد القديم) من رجال إخناتون ، أو أحد دعاته ، وإذا كان (الخروج) في عهد أعداء إخناتون ، فقد كان على كتّاب العهد القديم أن يراعوا هذه العلاقات السياسية (!!)

إن أول إشارة إلى البعث لانكاد نجدها قبل سفر (دانيال) .. وإذا كان دانيال قد أشار إلى البعث وإلى الحساب والجزاء بقوله . (كثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الأبدية ، وهؤلاء إلى العار ، إلى الازدراء الأبدى) ــ دانيال ١٢ ــ فهذا دليل على تحول في العلاقات السياسية والثقافية ، أو دليل على ما أصاب (التوراة) من تحريف

وتزييف ، إذ إنه أثر الاتصال بالديانة الزرادشتية ، زمن الأسر الطويل ، وإبّان الاتصال بدولة الفرس في عهد قورش (المخلّص) وهو احتمال يؤكده المؤرخ اليهودى الفريسى يوسيفوس ، بقوله : (إن الفريسيين قد سلموا الشعب وصايا وفرائض تسلموها من الآباء ، وليست مما جاء في شريعة موسى) .

هـ ـ شعب الله المختار[1] ـ (إله إسرائيل .. قدّوس إسرائيل .. الساكن في بيت إسرائيل .. شعب الله المختار .. تراث الرب .. أفرزتهم لك ميراثاً من جميع شعوب الأرض .. اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض) .

تعبيرات كثيرة تزخز بها أسفار (العهد القديم) تؤكد الرابطة بين (الرب) و (الشعب) ، مما يوحي بأن الشعب ــ على جميع مستوياته ــ يقف أمام الرب ، أو إلى جانبه ، على مستوى واحد ، وهذا ما يخالف التاريخ اليهودي الذي سجله (العهد القديم) .

يرجع اختيار الرب لهذا الشعب منذ أخطأ (حام) فلم يغط عورة أبيه (نوح) الذي سكر وتعرى ، وغطاه سام ويافث ، فلما أفاق قال : (ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته ، وقال : مبارك الرب سام ، وليكن كنعان عبداً لهم ، ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام ، وليكن كنعان عبداً لهم) تكوين ــ ٩ .

فإذا كانت تخوم الكنعاني (من صيدون ، حينما تجيء نحو جرار إلى غرفة ، وحينا تجيء نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم إلى لاشع) ــ تكوين ــ ١٠ أدركنا لماذا كان الحكم على آل كنعان بالعبودية ، ولا ذنب لهم فيما حدث !!

ويمضى كاتب التوراة ، فيوقع ميثاقاً بين الرب وإبراهيم قائلاً : (لنسلك أعطى هذه الأرض ، من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات) تكوين ــ ١٥ أي أن الرب لايكتفي بلعن كنعان ، وأن يكون عبداً لسام ، وأن تصبح أرض كنعان ملك أبناء سام ، بل يتسع الميثاق حتى

---

(١) انظر (شعب صلب الرقبة) من كتاب (دراسة في التوراة والإنجيل) للمؤلف .

يتحقق (حلم صهيون) المدون على جدار الكنيست (من النيل إلى الفرات) ، ولم يحدث خلال سبعة وأربعين قرناً تقريباً ، منذ كان هذا الميثاق ـــ أن كان لليهود دولة في هذا الإطار (!!) لكنه الخيال المريض والحلم السوداوي الذي لا يزال يحرك الهمم ويأخذ بالأسباب (!!) .

وبحث (الرب) عن علامة مميزة لهذا (الشعب) من غيره ، فاهتدى إلى (الختان) الذي لا يعدُّ وسيلة (تمييز) إلا إذا مر بوسيلة (كشف) ابتلي بها (نوح) في حالة سكر ، فأصابت اللعنة كنعان .

وكان أن عاهد (الرب) إبراهيم : (يختن منكم كل ذكر ، وأما الذكر الأغلف الذي لايختن في لحم غُرلته ، فتقطع تلك النفس من شعبها) ـــ تكوين ١٣ .

ولايقف الأمر عند هذه العلامة التي لاتبين إلا بعد (التعرية) ، فقد طلب (الرب) من موسى : (أن يصنعوا لهم أهداباً من أذيال ثيابهم في أجيالهم ، ويجعلوا على هدب الذيل عصابة من اسمانجونى) عدد ١٥ .

وينبغي ملاحظة أن هيرودوت الملقب بأبي التاريخ أخبرنا أن عادة الختان قد مورست منذ زمن طويل في مصر ، وثبتت صحة هذا القول بفحص موميات المصريين القدماء ، بل حتى من الرسوم الموجودة على جدران المقابر .

ولعل هذه العادة انتشرت بين القبائل التي سكنت شرقي البحر المتوسط ، بعدما خضعت هذه البلاد زمناً طويلاً للحكم المصري ، قبل ظهور اليهود بها .

هذا إلى أن إبراهيم عاش زمناً في مصر ، وتنقل في مناطق كانت خاضعة للحكم المصري ، والإسرائيليون عاشوا في مصر زمناً طويلًا ، وتناسلوا أجيالًا عديدة ، وأخذوا عن المصريين الكثير من عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ، مما يبين أن (الختان) ليس مظهراً يهودياً خاصاً ، ولهذا ينفي الأستاذ العقاد (أن الإسرائيليين اعتبروه ـــ الختان ـــ علامة لقبيلتهم ، تميز الإسرائيلي من غيره ، وإنما الصحيح أنهم اعتبروه علامة تسليم لربهم) ،

مؤكداً ذلك بأن الختان (اختصار لعادة الضحية البشرية نشأ مع تقدم الإنسان في الحضارة والمدنية .. ففي أقدم العصور كان الفاتح ا لمنتصر يقتل الأسرى ، قرباناً على محراب إلهه ، ثم تدرجوا من قتلهم إلى قطع أعضائهم ، وتدرجوا من قطع أعضائهم إلى قطع أغلفتهم ، وجعلوا ذلك علامة على تسليم الأعداء بالهزيمة ، وقد فعل ذلك الإسرائيليون مع أعدائهم في مواقف مختلفة ، كما فعله المكابيون مع أعدائهم) (١) .

لكن مافعله الإسرائيليون مع شكيم – كما أورد سفر تكوين٣٤ — لم يكن إلا تأكيداً للعلامة المميزة ، وإن اتخذت وسيلة انتقام .

ثم إن التقرب بقطع الأغلفة – وهى عملية جراحية دقيقة – يكلّف الفاتح المنتصر مشقة بالغة ، تحرمه شهوة الانتصار وشهوة الانتقام .

وتدوس العقلية الصهيونية كل الحقائق التاريخية من أجل توثيق نقل ملكية أرض كنعان إلى (الشعب) ، وكان لا بد أن يتحقق التوثيق على أيدى إبراهيم وهاجر وإسماعيل ، حتى لا يأتى العرب فى يوم ويدعوا ملكية هذه الأرض .

تقول التوراة : (حين غضبت سارة على هاجر ، لم يذهب بها إبراهيم إلى الصحراء العربية – كما حكى القرآن الكريم : ﴿ **بواد غير ذى زرع** ﴾ عند البيت الحرام – بل ذهب بها وبابنها إلى صحراء « فاران ») سيناء .. وكان أن (تاهت فى برية بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار .. ورفعت صوتها ، وبكت .. وفتح الله عينيها ، فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء ، وسقت الغلام ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من مصر) – تكوين ٢١ – لا من جرهم ، ولا من ذرية (الشعب المختار) .

ويستمر التحريف والتضليل ، ويصبح (الذبيح) إسحق لا إسماعيل ، لأن إسحق أبو يعقوب الذى ينسب إليه الإسرائيليون – تكوين ٢٢ (ينساق بعض المفكرين الإسلاميين خلف هذا الزعم) !!

---

(١) أبو الأنبياء – ص ٢٠٩ / ٢١٠ .

وحين يكبر إبراهيم ويشيخ يحدّث (عبده كبيرَ بيته المسئول على ما كان له) قائلا :(أستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض ألا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم ، بل إلى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى إسحق) – تكوين ٢٤ .

وزيادة فى الحيطة والحرص على الطهارة والنقاء (أعطى إبراهيم إسحق كل ما كان له – مع أنه ليس بكره – وأما بنو السرارى اللواتى كانت لإبراهيم – ومنهن هاجر أم إسماعيل جد العرب – فأعطاهم إبراهيم عطايا ، وصرفهم عن إسحق شرقاً ، إلى أرض المشرق ، وهو بعد حى) – تكوين ٢٥ – حتى لا يختلط نسل إسحق بغيره من نسل إبراهيم ، أوإسماعيل خاصة .

وحين ماتت سارة اشترى لها أرضاً فى أرض الحيثيين ، ودفن (إبراهيم امرأته فى مغارة حقل المكفيلة ، أمام مَمْرا التى هى حبرون ، فى أرض كنعان) – تكوين ٢٣ – حتى يحيط (الشعب) هذه المقبرة برعايته وعنايته ، فيتملك كل ما حولها شمالا وجنوبا وشرقاً وغرباً ، على أساس نظرية الأمن الإسرائيلى .

و (كان فى الأرض جوع) .. وأراد إسحق أن يهاجر ، فظهر له الرب ، (وقال : لا تنزل إلى أرض مصر ، اسكن فى الأرض التى أقول لك ، تغرّب فى هذه الأرض فأكون معك ، وأباركك ، لأنى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد ، وأفى بالقسم الذى أقسمت لأبيك إبراهيم ، وأكثّر نسلك كنجوم السماء ، وأعطى نسلك جميع هذه البلاد ، وتتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض .. فأقام إسحق فى جرار) – تكوين ٢٦ .

وإذا كان (الرب) قد سمح بعد ذلك ليعقوب بالهجرة إلى مصر فى حالة جوع مماثلة ، فلم يكن ذلك إلا بعد أن توثقت (الملكية) على يد إسحاق ، وإلا بعد أن وطد يوسف لأبيه فى مصر ، وحتى يكون مولد يعقوب فى (أرض الميعاد) ، لا فى الأرض التى انصبّت على رءوسهم فيها لعنة الفراعنة ، وحتى يكون الطريق إلى مصر امتداداً وتوسعا .

وكما فعل إبراهيم حفاظاً على نسل إسحق (دعا إسحق يعقوب ،

وباركه ، وأوصاه ، وقال له : لا تأخذ زوجة من بنات كنعان ، ثم اذهب إلى فدان آرام ، إلى بيت بتوئيل أبي أمك ، وخذ لنفسك زوجة من هناك ، من بنات لابان أخى أمك) – تكوين ٢٨ .

وخرج يعقوب من بير سبع ذاهباً نحو حاران ، واضطجع فى الطريق ، فأتاه الرب قائلا : (الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك ، ويكون نسلك كتراب الأرض ، وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ، ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض) – تكوين ٢٨ .

ويضرب الجوع (شعب الله المختار) – الذي كان يبلغ إذا ذاك سبعين نسمة – فلا يجد القوت إلا فى مصر .

ويستيقظ المصريون فى يوم ، وقد أصبحت الثروة والسلطة فى أيدى الغرباء .

وتشتد قبضة سفنن رع وكامس وأحمس ، فيطرد الهكسوس ، ويعرف أصحاب الأرض الدور الاستعمارى الذى لعبه الإسرائيليون ، فيضيق رمسيس عليهم الخناق، حتى يضطروا إلى الخروج، ويعلم منفتاح أنهم سرقوا ذهب مصر وفضتها ، وأنهم بسبيل الاستيلاء على مخازن الحبوب ، وهُمْ فى الطريق إلى سيناء ، فيلاحقهم .

أمكنهم الإفلات من قبضة فرعون ، لكن بعدما قذف فى قلوبهم الرعب ، حتى جعلهم يتيهون فى الصحراء أربعين عاماً ، لا يقدرون على مواجهة تجربة جديدة ، لا يدرون مصيرهم معها .

لهذا ، قالوا على لسان الرب :(لا يُرد الشعب إلى مصر ، الرب قد قال لكم : لا تعودوا ترجعون فى هذه الطريق) – تثنية ١٧ .

حاول(موسى) أن يبث فى نفوسهم الأمل فلم يفلح .

صعد موسى في الجبل ، والتقى بربه ، وعاد ببشارة :(الآن ، إن سمعتم صوتى ، وحفظتم عهدى ، تكونون لى خاصة ، من بين جميع الشعوب ، فإن لى كل الأرض ، وأنتم تكونون لى مملكة كهنة ، وأمة مقدسة) خروج ـ ١٩ .

ومادامو قد أصبحوا بمثابة أبناء الله وخلفائه في الأرض ، فلا بد من أن يحقق الله لهم ما وعدهم من (أرض تفيض لبناً وعسلًا) .

لقد فجر لهم على يدي موسى اثنتى عشرة عيناً بعدما استبد بهم العطش ، وأغدق عليهم المنّ والسلوى حين اشتد بهم الجوع ، أفلا ينصرهم على (القوم الجبارين) ؟

وكان أن حارب الرب معهم ، أرسل هيبته أمامهم ، (وأزعج جميع الشعوب التي تأتي عليهم) ، وأرسل أمامهم الزنابير ، فطردوا الحوريين والكنعانيين والحيثيين ، تحت قيادة يشوع ، وتملكتهم شهوة التملك والتسلط والانتقام والغدر والحرق والتدمير .

وحين شاخ يشوع (دعا جميع إسرائيل وشيوخه ورؤساءه وقضاته وعرفاءه ، وقال لهم : أنا قد شخت ، تقدمت بي الأيام ، وأنتم قد رأيتم كل ما عمل الرب إلهكم بجميع أولئك الشعوب من أجلكم ، لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم ، انظروا ، قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكاً حسب أسباطكم ، من الأردن ، وجميع الشعوب التي قرضتها ، والبحر العظيم نحو غروب الشمس ، الرب إلهكم هو ينفيهم من أمامكم ، ويطردهم من قدامكم ، فتملكون أرضهم ، كما كلمكم الرب إلهكم ، فتشددوا جداً ، لتحفظوا وتعملوا كل المكتوب في سفر شريعة موسى .. ولكن إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب ، أولئك الباقين معكم ، وصاهرتموهم ، ودخلتم إليهم وهم إليكم ، فاعلموا يقيناً أن الرب لايعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم ، فيكونوا لكم فخاً وشركاً وسوطاً على جوانبكم ، وشوكاً في أعينكم ، حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التي أعطاكم إياها الرب إلهكم) يشوع ٢٣ .

وأتى سليمان بن داود ، فأكد الرابطة بين الرب وإسرائيل ، قائلًا : (لأنهم شعبك وميراثك الذين أخرجت من مصر ، من وسط كور الحديد ، لتكون عيناك مفتوحتين نحو تضرع عبدك وتضرع شعبك إسرائيل ، فتصغي إليهم في كل ما يدعونك ، لأنك أنت أفرزتهم لك ميراثاً من جميع شعوب الأرض) ــ الملوك الأول ٨ .

ونسى سليمان أنه تزوج ــ كما جاء في الملوك الأول ١١ ــ بحوالى سبعائة امرأة من شعوب أخرى ، وتسرى بثلاثمائة ، كما نسي أن بني إسرائيل لم يعتزلوا الشعوب الأخرى عزلة كاملة ، وبخاصة خلال الهزائم التي لحقت بهم ، وخلال التطواف الطويل ، والإقامة في أكناف شعوب كثيرة .. فإذا انتهى بهم الأمر إلى الشتات الكبير على أيدى البابليين والأشوريين ، وتمزق مجتمعهم كل ممزق ، بين بلاد ذات حضارة وأصالة وقوة شكيمة ــ اختلط الزرع المقدس ، وهذا ما يؤكده جوستاف لوبون ولومبروزو، بل يعلنه سفر عزرا صراحة فيقول : (لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويون من شعوب الأرض ، حسب رجاساتهم ، من الكنعانيين والحيثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والموابيين والمصريين والأموريين ، لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم) عزرا ٩ .

وهذا الإعلان اعتراف من الرؤساء لعزرا الذي أصدر أمراً جديداً لاستنقاذ بقية الدم المقدس : (لاتعطوا بناتهم لبنيكم ، ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد ، لكي تتشددوا وتأكلوا خير الأرض ، وتورثوا بنيكم إياها إلى الأبد) عزرا ٩ .

لكن الرؤساء في حيرة بالنسبة لما حدث .. ماذا وقد (أكثرنا الذنب في هذا الأمر ، ووجد بين بني الكهنة من اتخذ نساء غريبة ، ومنهن نساء قد وضعن بنين) ؟

أفتى عزرا بأن يقربوا (كبش غنم لأجل إثمهم)!!

●● مع هذا تظل دعوى (شعب الله المختار) على حين ترتفع أصوات كثيرة تقول : ان تاريخ اليهود مختلق ، على نطاق واسع ، اختلقه المتآمرون البابليون ــ اليهود في أسر بابل ــ وهدفهم خلق تقاليد قومية لها غاية قائمة بذاتها لدى المنفيين وذريتهم ، تفرض عليهم تنظيماً باطشاً ، تحت إمرة الشريعة ، ومن ثم كان إضفاء ثوب الدين عليهم ، لإخفاء وتبرير غاياتهم الإجرامية ضد العالم ، وقد استعار واضعوا المؤامرة الأفكار من مضيفيهم البابليين ، ثم أضافوا إليها تقاليدهم القبلية الخاصة ، بعد تنميتها وتزيينها ، ثم أطلقوا لمخيلاتهم الخصبة العنان .

يفسر هذا أن كل كتب الأنبياء تنبأت بقيام مملكة (يهوه) حيث يسيطر اليهود على شئون العالم ، (ويرثون الأمم) إلى حد أن (أشعياء ٦٠ / ٢٠) يقول : (لاتغرب شمسك من بعد ، وقمرك لاينقص ، لأن الرب يكون لك نوراً أبدياً ، وتكون أيام مناحتك قد انقضت ، ويكون شعبك كلهم صديقين ، وإلى الأبد يرثون الأرض) .

وما أتى (دانيال) حتى كان اليهود قد أخذهم الاستنكار والسخط ، لأن (الوعد) لم يتحقق ، فسارع دانيال إلى تهدئتهم ، منبئاً إياهم أن الرب سيعلمهم في الوقت المناسب متى سيتحقق الوعد وينتهى سخطهم :

(وقال : إني أعلمك بما سيكون في آخر السخط ، فإنه يتم في الميعاد المحدد) دانيال ــ ٨ / ١٩ ــ فلا تقلقوا يابني إسرائيل ، ولا تتحول مناحتكم إلى سخط ، لأنه في الوقت المحدد تكون (الضربة التي يضرب بها الرب كل الشعوب الذين تجندوا على أورشليم ، لحومهم تذوب وهم واقفون على أقدامهم ، وعيونهم تذوب في أوقابها ، وألسنتهم تذوب في فمهم) زكريا ١٤ / ١٢ .

إن صلاة اليهود الأكثر تردداً اليوم هي (فليتمجد ويتقدس اسم الرب العظيم في كل العالم الذي خلقه حسب مشيئته ، ولتتحقق مملكته أثناء حياتكم ، وخلال أيامكم ، وأثناء حياة كل بني إسرائيل ، بسرعة وبالقريب العاجل ، آمين) .

هذا الحلم الذي طال أكثر من ثلاثة آلاف عام ، هو الذي حرك ويحرك عبقرية هؤلاء القوم إلى تزييف كل شيء ، الدين والتاريخ والضمير والمبادىء والشعارات والمذاهب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

قال فيلون الفيلسوف اليهودي الذي عاش في القرن الأول الميلادى : (إن اليهود يكونون شعباً يجاوز حدود الوطن والجنس المحلي ، وتصبح معه القومية مفهوماً لايستند إلى الجنس أو الحدود الجغرافية ، أو نوع الحكومة السياسى ، ولكن إلى الدين والوضع الحضارى) .

وقال يهوذا بن غاليف الفيلسوف : (إن تشتت الشعب الإسرائيلي

يعتبر قراراً ربانياً مدهشاً ، وضع لإلهام بقية شعوب الأرض) .

وقال هرتزل : (إن جنسنا أكثر فاعلية في كل شيء من باقي شعوب الأرض) .

وقال فرويد : (إن اليهود هم الذين أعطوا البشرية الشريعة ، وكانوا لها الضمير ، وإن اليهودية مصدر للطاقة لايعوض) .

وقال ناحوم جولدمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية السابق : (إن اليهود لم يكونوا أبداً مثل الشعوب الأخرى ، كانوا دائماً شيئاً مميزاً ، أكبر من مجرد شعب ، وأكبر من مجرد دين ، وأكبر من مجرد حضارة ، هم كل أولئك مجتمعين ، ولا توجد هناك جماعة تماثلهم ، فتاريخهم شيء مميز خاص) .

وقال بن جوريون : (إنني أومن بتفوقنا الخلقي والفكري ، بحيث يستخدم كنموذج لإصلاح الجنس البشري) .

هذه الأقوال مجرد نماذج للدعاوي المستمرة لتغذية الشعور بالتفوق ، أو بالأحرى العنصرية ، الشعب المختار ، بالرغم من أن (واقع تطور علم السلالات الإنسانية أثبت – منذ زمن طويل – أن اليهود لا يمثلون عنصراً مستقلا ، وجاء فى إعلان الأجناس والتبايُنات العرقية الذى أقرته مجموعة من علماء السلالات البشرية البارزين عام ١٩٥١ أن المسلمين واليهود لا يمثلون أجناساً ، شأنهم فى ذلك شأن الكاثوليك والبروتستانت ، وسكان أيسلندا أو الهند ، والشعوب الناطقة بالانجليزية أو أى لغة أخرى)[١] .

●● وسكان إسرائيل اليوم يتكونون من عدة مجموعات : السابرا ، وهم اليهود الذين ولدوا في فلسطين .. والاشكنازى : اليهود ذوو الأصل الأوربي ، واليهود الشرقيون ، ومن بينهم جزء كبير من السفارديم : اليهود المنحدرين من بلدان أفريقا وآسيا .

والمجموعتان الأخيرتان لاتمثلان شيئاً موحداً ، من وجهة نظر علم السلالات البشرية ، إذ إنهما لم تتخلصا بعد من التقاليد الثقافية والمعيشية لبلدان إقامتهما السابقة .

---

(١) البروفيسورة ميلينا مود رجينسكايا – مجلة آفاق عربية – عدد يناير ١٩٧٧ .

وعلى الرغم من أن المهاجرين من بلدان آسيا وأفريقيا يشكلون ٦٠٪ من سكان إسرائيل اليهود فإنهم يعانون من التفرقة ، سواء في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية .

وتعمي العيون عن هذا التمزق الداخلي ، لتنطلق الألسنة محدثة عن الانتخاب العرقي والسيادة العالمية .

و – **الكهنة** ـ قد يثير الدهشة أن الرب – في كثير من أسفار التوراة وكتب الأنبياء – يستغل استغلالاً قاسياً في سيطرة طبقة ، أو في ابتزاز خيرات (الشعب) لصالح سبط من الأسباط (فريضة دهرية) .

ويتخذ (تابوت الرب) الذي هو نصُب من الأنصاب ، بمثابة شرك ، للإيقاع بالشعب المخدوع ، بين أنياب ومخالب لا تشبع ولا ترتوى .

فإذا كان (هرون) في عبارة (القرآن الكريم) فصيحاً شجاعاً ، وشريكاً فى أداء الرسالة : ﴿ **وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً** ﴾ القصص ٣٤ . ﴿ **اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى** ﴾ طه ٣١ ، ٣٢ . فإنه فى عبارة (العهد القديم) يهودى ، قبل أن يكون ربانياً .

(لما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل ، اجتمع الشعب على هرون . وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه ، فقال لهم هرون : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم ، وائتوني بها ، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم ، وأتوا بها إلى هرون ، فأخذ ذلك من أيديهم ، وصوره بالأزميل ، وصنعه عجلًا مسبوكاً ، فقالوا : هذه آلهتك ياإسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر ، فلما نظر هرون بني مذبحاً أمامه ، ونادى هرون ، وقال : غداً عيد للرب ، فبكروا في الغد ، وأصعدوا محرقات ، وقدموا ذبائح السلامة) خروج ٣٢ .

طلب الشعب إلهاً مصنوعاً ، وكان بوسع هرون أن يجعله من طين ، أو من خشب ، أو من نحاس ، مثلًا ، لكنه أراده من ذهب ، في صورة الإله

المصري القديم ، قبل عهود الذلة والعبودية في مصر ــ وصنعه بيده لا بيد أخرى ، وبني له مذبحاً ، وجعل له عيداً ، وأصعد المحرقات ، وقدم الذبائح .

ويلاحظ أن عبادة (العجل) تتكرر وتتجدد فى حياة بني إسرائيل .. فقد عمل يربعام عجلي ذهب ، ليعبدهما أتباعه في دولة إسرائيل ، حتى لايحتاجوا للذهاب إلى الهيكل الذى يقع فى دولة يهوذا ، برئاسة رحبعام ــ الملوك الأول ١٢ .

وملك بعشا بن أخيا على جميع إسرائيل ، وسار في طريق يربعام ، في خطيئته التي جعل بها إسرائيل تخطىء ــ الملوك الأول ١٥ .

وكذلك فعل عمرى ، وجاء أخاب بن عمرى ، فتزوج ابنة ملك الصيدونيين ، وعبد البعل ، وسجد له ، وأقام مذبحاً – الملوك الأول ١٦ .

كما يلاحظ أن الإله من ذهب دائماً ، كأنما هو التعبير عن القوة في عرف اليهود .

●● عاد موسى من لقاء الرب ، وحين ابصر هذا الانقلاب الذي أحدثه هرون (حمى غضب موسى ، وطرح اللوحين من يديه ، وكسرهما في أسفل الجبل ، ثم أخذ العجل الذي صنعوا ، وأحرقه بالنار ، وطحنه حتى صار ناعماً ، وذراه على وجه الماء ، وسقى بني إسرائيل) خروج ٣٢ .

أراد موسى أن يحطم الوثنية ، فأجراها في دمائهم ذرات ذهبية صارت نسيج أبدانهم ، وميراث أجيالهم .

وكانت مكافأة هرون على ما فعل أن قال الرب لموسى : (قرّب إليك أخاك وبنيه معه ، من بين بنى إسرائيل ، ليكهن لي) خروج ٢٨ .

وكانت أول (تقدمة) للرب – أي لحساب هرون وبنيه الكهنة – من (ذهب وفضة ونحاس وأسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة ، وجلود تخس ، وخشب سنط ، وزيت للمنارة ، وأطياب لدهن المسحة ، وللبخور العطر ، وحجارة جزع ، وحجارة

ترصيع للرداء والصُّدرة) ، حتى يصنعوا للرب (مقدساً ، لأسكن في وسطهم) .

هذا ، مع أن تعاليم الرب لموسى في أول لقاء (لاتصنعوا معى آلهة فضة ، ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب ، مذبحاً من تراب تصنع لي ، وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك .. وإن صنعت لي مذبحاً من حجارة فلا تبنه منها منحوتة ، وإذا رفعت عليها أزميلك تدنسها ، ولا تصعد بدرج إلى مذبحي ، كيلا تنكشف عورتك عليه) خروج ٢٠ .

صورة مبسطة ارتضاها الرب لعبادته ، وحذر من المغالاة في المظاهر ، حتى لاتصبح هذه المنشآت أوثاناً ، ومن ثم اشترط أن تكون من تراب ، فإذا استخدمت الحجارة لاتكون منحوتة ، بل بصورتها الطبيعية ، لم يستخدم معها أزميل ، وإلا تدنست ، لأنها ستكون سبيلًا إلى الإعجاب ، فالتقدير ، فالإجلال ، فالوثنية ، فتنكشف عورة المتقرب إلى (الرب) .

●● ومع هذا ، وضع الرب أمام موسى رسماً تفصيلياً للمقدس ، في صورة (مشروع) هندسي معد للتنفيذ : (بحسب ما أنا أريك من مثال المسكن ، ومثال جميع آنيته ، هكذا تصنعونه) .

(فيصنعونه تابوتاً من خشب السنط ، طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وارتفاعه ذراع ونصف ، وتغشيه بذهب نقي ، من داخل ومن خارج تغشيه ، وتصنع عليه إكليلًا من ذهب حواليه ، وتشبك له أربع حلقات من ذهب ، وتجعلها على قوائمه الأربع ، على جانب الواحد حلقتان ، وعلى جانبه الثاني حلقتان ، وتصنع عصويه من خشب السنط ، وتغشيهما بذهب ، وتدخل العصوين في الحلقات على جانبي التابوت ، ليحمل التابوت بهما ، تبقي العصوان في حلقات التابوت ، لاتنزعان منها ، وتضع في التابوت الشهادة التي أعطيك) .

نلاحظ من هذا الوصف المطول أن التابوت لايخرج عن صندوق فيه لوحا الشهادة ، وقاية لهما .. وكان بوسع (الرب) أن يؤكد على صيانة اللوحين ، وعلى شعبه المختار أن يختار الطريقة التي تتناسب مع ظروف حياتهم ، كأن تحفظ التعاليم وترتل ، أو تكتب منها نسخ مختلفة ، حتى

يكون عهد الطباعة ، فتطبع آلاف النسخ أو ملايينها .

لكن (الكهنة) أرادوا شيئاً ، أو صنماً [1] ، يلتف حوله الشعب أو أرادوا حقل تجارب لمعرفة إمكانيات الشعب ، وقدرته على الحركة ، داخل اقتصاديات الشعوب المستغلة .

لهذا لزم أن (تبقي العصوان في حلقات التابوت ، لاتنزعان منها) رمزاً للحركة المستمرة .
(وتصنع غطاء من ذهب نقي ، طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وتصنع كروبين من ذهب ، صنعة خراطة ، تصنعهما على طرفي الغطاء .. ويكون الكروبان باسطين أجنحتهما إلى فوق ، مظللين بأجنحتهما على الغطاء ، ووجهاهما كل واحد إلى الآخر) .

من وصف التابوت وغطائه نجد أن الرب مهتم بأن يكون الإكليل والحلقات والغطاء والكروبان من ذهب نقي ، لأن حديث الرب بعد ذلك سيكون (من على الغطاء ، بين الكروبين) ، فلابد وأن يكون (العرش) ذهبياً ، حتى يتناسب ومكانته (العلية) !!
●● ثم يمضي في وصف المائدة والمنارة التي هي (من ذهب نقي ، عمل الخراطة) ، حتى ليحار القارىء :

من أين هذا الذهب كله ، وقد جمعه هرون في العجل الذهبي الذي أحرقه موسى فصار رماداً فشراباً ؟ وإذا كان الرب قد صنع صورة هذا كله ، فلماذا لم يقدمها هدية إلى شعبه المختار ، ويعفيه من هذا الابتزاز الذهبي العجيب [2] ؟!

لكن يبدو أن سياسة (الرب) مستقبلية ، فهو يضع أسس المذاهب الاقتصادية التي ستنبثق في صورة إلهام من العقلية اليهودية .. فتركيز الثروة في يد (اللاويين) يعني سيطرة الطبقة ، أو السياسة الرأسمالية ، وأن تجتمع

---

(١) قال الدكتور فؤاد حسنين علي : وظل الإسرائيليون زمناً طويلاً يقدسون التابوت ، ويستخدمونه مجلبة للخير .
(٢) قال الدكتور فؤاد حسنين علي : في نصوص قديمة لم يرد ذكر لهذه الطبقة الذهبية ، أو الحلقات أو القوائم ص ٥٩ – اليهودية ، واليهودية المسيحية .

الثروة في يد (المشرعين) يعني عدم الملكية الفردية ، أو السياسة الشيوعية ، وتتجلى السياسة الاشتراكية فيما سنعرضه بعد بناء (المسكن) من ألوان الضرائب التي تثقل كاهل (الشعب) أو المنتجين .

ويمضي في وصف المسكن ، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وحدد مقاييسها ومادتها ، وطريقة صنعها ، وارتباطها بغيرها .. ولم يكتف بهذا ، بل صنع بيتاً في الجبل ، لينقل موسى صورة على مثاله : (كما أظهر لك في الجبل ، هكذا تصنعونه) .

وزاد الرب فدعا (بصلئيل بن أورى بن حور من سبط يهوذا باسمه ، وملأته من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة ، لاختراع مخترعات ، ليعمل في الذهب والفضة والنحاس ، ونقش حجارة للترصيع ، ونجارة الخشب ، ليعمل من كل صنعة ، وهأنذا جعلت أهولياب بن أخيساماك من سبط دان ، وفي قلب كل حكيم القلب جعلت حكمة ، ليصنعوا كل ما أمرتك) – خروج ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ .

ويلاحظ أن هذا البيت صمم على أساس إمكانية نقله مع هذا (الشعب) الذي لم يستقر به المقام بعد ، وتبعاً للأحداث المريرة والحروب التي خاضها لم يكن بمستطاع أحد أن يجدد البناء .

يقول الدكتور فؤاد حسنين على [١] : جاء فى الخبر الصادق أن داود فكر في إقامة معبد ليهوه في عاصمة ملكه ، وعاصمة أسرته ، أورشليم ، حتى يكون هذا المعبد عاملًا من عوامل اتحاد الأمة وجمع شمل البلاد ، إلا أن معارضة بعض المحافظين من رجال الدين ، وعلى رأسهم النبي ناثان ، عرقلت تنفيذ الفكرة – صموئيل الثاني ٧ .

فلما كان عهد سليمان ، حيث (لايوجد خصم ولا حادثة شر) ، واتسعت إمكانيات الشعب بأموال اغتنموها ، ومزارع أبادوا أصحابها ، وتجارة ازدهرت مع (حيرام) ملك (صور) – تهيأ لسليمان بناء البيت ، فسخر ثلاثين ألف رجل يساعدون عبيد (حيرام) في قطع أخشاب الأرز

---

(١) المصدر السابق – ص ٦٠ .

والسرو ، وثمانين ألفاً يقطعون حجارة كريمة مربعة في الجبل ، وسبعين ألفاً يحملون الأخشاب والحجارة ، (ما عدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل ثلاثة آلاف ، وثلاثمائة المتسلطين على الشعب العاملين العمل) واجتمع بناءو حيرام وبناءو سليمان والجبليون ، (وهيئوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت) .. وعلى صورة بيت الرب الذى أشرف على بنائه موسى ، أعاد سليمان بناء البيت ، لكن بإمكانيات باهظة التكاليف ، وعلى أساس أن يكون البيت ثابت الدعائم في أورشليم – الملوك الأول ٥ / ٨ .

(ومقابل خدمات حيرام قدم سليمان لصور كثيراً من الحبوب والزيت ، كما تنازل عن جزء من مملكته لصور)[1] .

ثم .. إن هذا العدد الضخم من العاملين كان قادراً على صناعة مدينة لابيتاً ، لكن يبدو أن (البطالة المقنعة) التي تزدهر بازدهار (البيروقراطية) ، كان لها في هذا العهد أي شأن !!

* * *

خرب بنوخذنصر ما بني سليمان ، وقضى على وجود إسرائيل في أرض كنعان سنة ٥٨٧ ق. م ، ثم استولى قورش ملك فارس على بابل ، وفك أسر بني إسرائيل ، فأخذ الرب (حزقيال) وصعد به في جبل عال جداً ، و (إذا برجل منظره كمنظر النحاس ، وبيده خيط كتان ، وقصبة القياس ، وهو واقف بالباب ، فقال لي الرجل : يابن آدم ، انظر بعينيك ، واسمع بأذنيك ، واجعل قلبك إلى كل ما أريك ، لأنه لأجل إراءتك أتي بك إلى هنا ، أخبر بيت إسرائيل بكل ما ترى) .

ومضى به الرجل يقيس السور خارج البيت ، ويرسم أبوابه ، ورواق الباب ، وغرفات الباب ، ثم أتى إلى الدار الخارجية ، ومخادعها ، وأبوابها ، وغرفاتها ، وكواها ، وقببها ، ونخيلها ، ثم الدار الداخلية ، وغرفاتها ، وأروقة أبوابها ، وموائدها ، ومخادعها ، والهيكل ، وعضائده ، وقوائمه ، والبيت ، وغرفاته ، ومخادعه ، وكواه ، وعتباته ، وأساطينه ، وكروبيمه ، ونخيله ، والمذبح بكل تفصيلاته .

---

(١) المصدر السابق – ص ٦١ .

واشترط أن تكون (المخادع العليا أقصر ، لأن الأساطين أكلت من هذه من أسافل البناء ، ومن أواسطه ، لأنها ثلاث طبقات ، ولم يكن لها أعمدة كأعمدة الدور ، لذلك تضيق من الأسافل ، ومن الأواسط من الأرض) .

يلاحظ أن بيت (حزقيال) أكبر كثيراً مما بنى سليمان ، فبيت سليمان (طوله ستون ذراعاً ، وعرضه عشرون ذراعاً) على حين نجد أن سور بيت حزقيال بلغ خمسمائة قصبة طولاً وعرضاً ، و (قصبة القياس ست أذرع طولاً بالذراع وشبراً) .

كما يبدو اهتمام (الرب) ببيت (حزقيال) إذْ اتخذ له من البيت مقاماً :

(يابن آدم .. هذا مكان كرسيّ ، ومكان باطن قدمي ، حيث اسكن وسط بني إسرائيل إلى الأبد) – حزقيال ٤٠ / ٤٣ .

* * *

إذا كان الرب قد اهتم ببيته هذا الاهتمام ، فإن عنايته بالقوامين عليه ، وبخُدامه تبدو واضحة ، من خلال الأوصاف التي تتمثل فيهم ، والملابس التي يتحلون بها ، والحقوق التي كفلها لهم .

وفي هذا يقول الرب لهرون : (إذا كان رجل من نسلك ، في أجيالهم ، فيه عيب ، فلا يتقدم ليقرب خبز إلهه ، لارجل أعمى ، ولاأعرج ، ولاأفطس ، ولازوائدي ، ولا رجل فيه كسر رجل ، أو كسر يد ، ولا أحْدب ولاأكثم ، ، ولا من في عينه بياض ، ولاأجرب ، ولاأكلف ، ولامرضوض الخصى، لئلا يدنس مقدسى) لاويين ٢١ .

وأوصي موسى أن (اصنع ثياباً مقدسة لهرون أخيك ، للمجد والبهاء) وهذه الثياب التي يصفها (حكماء القلوب الذين ملأتهم روح حكمة .. صُدرة ، ورداء ، وجبة ، وقميص مخرم ، وعمامة ، ومنطقة) .

ويمضي في وصف هذه الملابس بدقة أبرع مما فعل في وصف البيت .

لم ينس (الرب) أن يذكر ملابس بني هرون ، من أقمصة ، ومناطق ، وقلانس ، (للمجد والبهاء) لكنه سكت عن وصفها ، لتأخذ نفس صفات ملابس أبيهم ، وبخاصة أنه اتبع ذكر ملابس الأبناء بقوله : (وتلبس هرون أخاك إياها ، وبنيه معه ، وتمسحهم ، وتملأ أياديهم ، وتقدمهم

ليكهنوا لي ، وتصنع لهم سراويل من كتان لستر العورة ، من الحقوين إلى الفخذين تكون ، فتكون على هرون وبنيه ، عند دخولهم إلى خيمة الاجتماع ، أو عند اقترابهم إلى المذبح للخدمة في القدس ، لئلا يحملوا إثماً ، ويموتوا ، فريضة أبدية له ولنسله من بعده) خروج ٢٨ .

يحار المرء – دون شك – في تكاليف هذه الثياب أكثر من حيرته في أوصافها !!

هذا الذهب وهذه الحجارة الكريمة كلها ، ممن ؟ من شعب ضائع في الصحراء ؟ ولماذا ؟ من أجل المثول بين يدي الرب ؟

أي رب هذا الذي يستولى على كل ما يملك شعبه ، ليصنع ثياب أسرة لاشرف لها إلا الانتساب إلى موسى الرسول ؟ ويجعل هذه الثروة في بيتها وسيلة ترف وخداع ، بحسبان أن البيت بيت الرب ، ولابد أن يتناسب المكان مع جلاله (سبحانه) !!

هذا الرب الذي يحتاج إلى أن يلبس من يدخل عليه رمانات وجلاجل تحدث صوتاً ، حتى لايفاجأ متلبساً بما لاينبغي ، فيغضب ، وتكون النتيجة موت من انكشف له مالا ينبغي أن يرى !!

وهل يكفي أن تسجل أسماء الأسباط على حجارة الصدرة ، لينساق الجميع وراء هذا الشرف العظيم ؟

هل يظل (الشعب) أسير هذه الترهات أبد الدهر ، من أجل مغفرة آثامه ، ونيل مرضاة (الرب) ؟

أليس هذا الشعب لايؤمن بالآخرة ، والشريعة المدونة في لوحي التابوت لاتشير إلى ما بعد الموت من ثواب وعقاب ؟

ماذا يدفع (الشعب) إذن إلى أن يجوع ويعرى ، من أجل أن يأكل الكهنة القادة في صحاف من الذهب ؟ .

أهو ذلك الوهم الكاذب الذي يربط بين الشعب والرب ؟ أهو الدجل الطويل الذي ألقي في قلوب هؤلاء القوم الرعب من المجهول ، والسخط

والحقد على كل الشعوب ؟ أهو الأمل الخادع في مملكة للرب تسيطر في يوم على كل العالم ؟

لننظر في الالتزامات التي فرضها الكهنة على هؤلاء الأشقياء باسم (الرب) ، وتكررت بصورة أو بأخرى في معظم الأسفار ، حتى تنغرس في قلوبهم ، وتسرى في دمائهم مسرى إله الذهب الذي سقاهم موسى ترابه .

يتحدث سفر (لاويين) الكهنة عن القرابين من الفطير والرقاق ، وما هو على الصاج ، وفي الطاجن ، والفريك المشوى بالنار ، والذبائح من البقر والغنم والماعز ، ومن أخطأ فعليه ثور صحيح (للرب ذبيحة خطية) ، ومن أخطأ بسهو ، ثم أعلم بخطيئته (يأتي بقربان تيساً من المعز ذكراً صحيحاً) ، فإن كان من عامة الأرض (يأتى بقربانه عنزاً من المعز أنثى صحيحة) ـ لاويين ١ ـ ٤ .

بهذا يكفر عنه الكاهن ، ويصفح الرب .

و (ذبيحة الإثم كذبيحة الخطيئة ، لها شريعة واحدة ، الكاهن الذي يكفّر بها تكون له ، والكاهن الذي يقرب محرقة إنسان ، فجلد المحرقة التي يقربها يكون له ، وكل تقدمة خبزت في التنور ، وكل ما عمل في طاجن أو على صاج يكون للكاهن الذي يقربه ، وكل تقدمة ملتوتة بزيت أو ناشفة تكون لجميع بني هرون ، كل إنسان كأخيه)

(وهذه شريعة ذبائح السلامة التى يقربها للرب) .

(إن قربها لأجل الشكل يقرب على ذبيحة الشكر أقراص فطير ملتوتة بزيت ، ورقاق فطير مدهونة بزيت ، ودقيقاً مربوكاً أقراصاً ملتوتة بزيت ، مع أقراص خبز خمير ، يقرب قربانه على ذبيحة شكر سلامته ، ويقرب منه واحداً من كل قربانه رقيقة للرب ، يكون للكاهن الذي يرشّ دم ذبيحة السلامة ، ولحم ذبيحة شكر سلامته ، يؤكل كل يوم قربانه ، لايبقى منه شيئاً إلى الصباح) .

(وإن كانت ذبيحة قربانه نذراً أو نافلة ، ففي يوم تقريبه ذبيحته تؤكل ، وفي الغد يؤكل مافضل منها ، وأما الفاضل من لحم الذبيحة في اليوم

الثالث فيحرق بالنار ــ إذ لم تكن الثلاجات اخترعت بعد ، وحتى لايذوق الفقراء طعمها ، فتتسع أشداقهم ــ ويكون الصدر لهرون وبنيه .. فريضة دهرية ، تكون هذه لهم فى أجيالهم) لاويين ١٧ .

ولم يكتف رب اللاويين بهذا ، فأوصى بأن (قرباني طعامي مع وقائدى رائحة سرور ، تحرصون أن تقدموه في وقته .. وقل لهم : هذا الوقود الذي تقربون للرب خروفان حوليان صحيحان ، لكل يوم محرقة دائمة) .

(وفي يوم السبت خروفان حوليان صحيحان ، وعشران من دقيق ملتوت بزيت ، تقدمه مع سكيبه) .

(وفي رءوس شهوركم تقربون محرقة للرب ثورين ابني بقر ، وكبشاً واحداً ، وسبعة خراف حولية صحيحة ، وثلاثة أعشار من دقيق ملتوت بزيت ، تقدمة لكل ثور ، وعشرين من دقيق ملتوت بزيت تقدمة للكبش الواحد ، وعشراً واحداً من دقيق ملتوت بزيت تقدمة لكل خروف ، وسكائبهن تكون نصف الهين للثور ، وثلث الهين للكبش ، وربع الهين للخروف ، من خمر) .

(وفي الشهر الأول ، في اليوم الرابع عشر من الشهر ، فصح للرب) .

(وفي اليوم الخامس من هذا الشهر عيد ،سبعة أيام يؤكل فطير) عدد ٢٨ ٢٨ .

وتستمر المحافل المقدسة والقرابين في أيام محددة ، واجبة الالتزام ، على مر العام ، عدد ٢٨ ــ ٢٩ .

هذا ، بالإضافة إلى (كل عُشْر الأرض ، من حبوب الأرض ، وأثمار الشجر ، فهو للرب ، قدس للرب ، وإن فَكّ إنسان بعض عشره يزيد خمسه عليه ، وأما كل عشر للبقر والغنم فكل ما يعبر تحت العصا يكون العاشر قدساً للرب ، لايفحص أجيد هو أم ردىء ، ولا يبدله ، وأن أبدله يكون هو وبديله قدساً لايفك) لاويين ٢٧ .

ومن الغنائم يؤخذ واحد في المائة زكاة للرب ، من البقر والغنم

والحمير ، غير رفيعة للرب ، نفس من كل خمسمائة ، من الناس والبقر والحمير والغنم ، فضلًا عن كل ما يوجد من أمتعة ذهب (حجولًا وأساور وأقراطاً وقلائد) وغيرها ــ عدد ٣١ .

●● ويؤكد الرب حقوق هرون وأتباعه من هذا كلـه ، بتقسيمـه بينهم ، على أساس أن لهرون (من قدس الأقداس ، من النار ، كل قرابينهم ، مع كل تقدماتهم ، وكل ذبائح خطاياهم ، وكل ذبائح آثامهم التي يردونها لي ، قدس الأقداس هي لك ولبنيك ، في قدس الأقداس تأكلها .. كل ذكر يأكلها .. الرفيعة من عطاياهم .. لك أعطيتها ولبنيك وبناتك ، فريضة دهرية) .

(كل دسم الزيت ، وكل دسم المسطار والحنطة ، أبكارهن التـي يعطونها للرب ، لك أعطيتها) .

(أبكار كل ما في أرضهم التي يقدمونها للرب ، لك تكون) .

(كل طاهر في بيتك يأكلها .. كل محرم في إسرائيل يكون لك) .

(كل فاتح رحم – البكر من كل جسد – يقدمونه للرب ، من الناس ، ومن البهائم يكون لك .. غير أنك تقبل فداء بكر الإنسان ، وبكر البهيمة النجسة) .

(جميع رقائق الأقداس ، أعطيتها لك ، ولبنيك وبناتك معك ، حقاً دهرياً) .

(وأما بنو لاوى فإنى قد أعطيتهم كل عشر فى إسرائيل ميراثاً ، عوضً خدمته التي يخدمونها ، خدمة خيمة الاجتماع) .

لكن على بني لاوى أن يرفعوا عشر ما يحصلون عليه لهرون الكاهن ــ عدد ١٨ .

●● ثم تكون واجبات تدشين المذبح :

(قال الرب لموسى : رئيساً رئيساً في كل يوم يقربون قرابينهم لتدشين المذبح) .

(أطباق فضة اثنا عشر ، ومناضح فضة اثنا عشر ، وصحون ذهب اثنا عشر ،كل طبق مائة وثلاثون شاقل فضة ، وكل منضحة سبعون ، وجميع فضة الآنية ألفان وأربعمائة ، على شاقل القدس .. وصحون الذهب اثنا عشر مملوءة بخوراً ، كل صحن عشرة ، على شاقل القدس ، جميع ذهب الصحون مائة وعشرون شاقلاً .. كل الثيران المحرقة اثنا عشر ، والكباش اثنا عشر ، والخراف الحولية اثنا عشر ، مع تقدمتها، وتيوس المعز اثنا عشر لذبيحة الخطية ، وكل الثيران لذبيحة السلامة ، أربعة وعشرون ثوراً ، والكباش ستون ، والتيوس ستون ، والخراف الحولية ستون)

(هذا تدشين المذبح بعد مسحه) عدد ٧ .

* * *

من كل ما سبق تتجلى الأطماع اليهودية التي لا تقف عند حد ، مع استغلال كل الوسائل الممكنة ، دون تقدير للظروف القاسية التي كان يمر بها الشعب .

وقد حدث أن كان (قورح بن يصهار بن قهات بن لاوي ، وداثان وأبيرام ابنا ألياب ، وأون بن فالت بن رأوبين) غير راضين عن هذه الامتيازات التي فرضت لهرون وبنيه ، وأخذوا (يقاومون موسى مع أناس من بني إسرائيل ، مائتين وخمسين رؤساء جماعة) وقالوا : (كل الجماعة بأسرها مقدسة ، وفي وسطها الرب ، فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب) ؟

ثورة على وضع شاذ .. وحتى لايكون سابقة خطيرة في حياة هذه الجماعة المقدسة ، كان لابد من ضربة قاصمة تردع من توسوس له نفسه بأن يفكر فيما فرض (الرب) .

قال موسى لشيوخ إسرائيل : (اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ، ولاتمسوا شيئاً مما لهم ، لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم) .

ثم أعلن : (إن مات هؤلاء كموت كل إنسان ، وأصابتهم مصيبة كل إنسان ، فليس الرب قد أرسلني ، ولكن ، إن ابتدع الرب بدعة ، وفتحت الأرض فاها ، وابتلعتهم ، وكل مالهم ، فهبطوا أحياء إلى الهاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب) .

(فلما فرغ من التكلم بهذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم ، وفتحت الأرض فاها ، وابتعلتهم وبيوتهم ، وكل ما كان لقورح من كل الأموال ، فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية ، وانطبقت عليهم الأرض ، فبادوا من بين الجماعة ... وخرجت نار من عند الرب ، وأكلت المائتين والخمسين رجلًا الذين قربوا البخور) عدد ١٦ .

ومع أن تقديم البخور كان بأمر موسى ، وفي الطاعة نوع من التوبة ، والإستغفار ، فإن الرب قد قضى ، ولا راد لقضائه ، (لكيلا يقترب رجل أجنبي ليس من نسل هرون ، ليبخر بخوراً أمام الرب) عدد ١٦ .

ومن ثم سارت الجماعة في أسر الكهنة والقضاة والأدعياء (أمة متمردة) مغلولة بقيود لاتملك الخلاص منها .

فلما كان أول تجمع إسرائيلي في أورشليم ، بعد السبى ، تزعّم نحميا وصدقيا وسرايا وعزريا ويرميا وفشحور وأمريا وملكيا ، وغيرهم من الكهنة جموع الشعب (في قسم وحلف) أن يسيروا في شريعة الله ، وأن يلتزموا – ولم تستقر الحياة بهم بعد – بهذه الفرائض الجائرة :

(أقمنا على أنفسنا فرائض ، أن نجعل على أنفسنا ثلث شاقل كل سنة لخدمة بيت إلهنا ، لخبز الوجوه ، والتقدمة الدائمة ، والمحرقة الدائمة ، والسبوت ، والأهلة ، والمواسم والأقداس ، وذبائح الخطية ، للتكفير عن إسرائيل ، ولكل عمل بيت إلهنا ، وألقينا قرعاً على قربان الحطب بين الكهنة واللاويين والشعب ، لإدخاله إلى بيت إلهنا ، كما هو مكتوب في الشريعة ، ولإدخال باكورات أرضنا ، وباكورات ثمر كل شجرة ، سنة فسنة ، إلى بيت الرب ، وأبكار بنينا وبهائمنا ، كما هو مكتوب في الشريعة ، وأبكار بقرنا وغنمنا ، لإحضارها إلى بيت إلهنا ، إلى الكهنة الخادمين في بيت إلهنا ، وأن نأتي بأوائل عجيننا ورفائعنا وأثمار كل شجرة من الخمر والزيت إلى الكهنة ، إلى مخادع بيت إلهنا ، وبعشر أرضنا إلى اللاويين ، اللاويون هم الذين يعشرون في جميع مدن فلاحتنا) نحميا ١٠ .

وتستمر هذه الأوضاع الشاذة ، حتى نجد لعاموس ما يشبه الثورة على

الكهنة والأغنياء ، إذ يقول : (من أجل أنكم تدوسون المسكين ، وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ، ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروماً شهية ، ولاتشربون خمرها ، لأنني علمت أن ذنوبكم كثيرة ، وخطاياكم وافرة ، أيها المضايقون البارّ ، الآخذون الرشوة ، الصادّون البائسين عن الباب) عاموس ٥ .

ولا تلبث أن تمضي صرخة عاموس ، بلا صدى !!

ز ـــ **الشريعة** [١] ـ تقول الوصايا : (أكرم أباك وأمك ، لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك) (لاتقتل .. لا تزن .. لاتسرق ..) .

(لاتشهد على قريبك شهادة زور) .

(لاتشته بيت قريبك) .

(لاتشته امرأة قريبك ، ولا عبده ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولاشيئاً مما لقريبك) .

(أما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك .. لاتصنع عملاً ما أنت وابنك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك) خروج ٢٠ .

نلاحظ جانب الخير في هذه الوصايا ، لكنه ليس الخير المطلق ، لأن ربط النهي بالقرابة ، يوحي بإباحة المنهي عنه مع غير الأقرباء .. ثم إن التوقف عن العمل يوم السبت مرده إلى أن الله خلق الخلق في ستة أيام ، ثم استراح في اليوم السابع ، لكن أي أيام هذه ؟ وهل كان زمان الإنسان قبل أن يكون الإنسان ؟ وهل ثم دليل على أن يوم السبت هو السابع ؟ وهل كلمة (سبت) في غير العبرية والعربية ، ولم يكن موسى يعرف إحداهما ؟ وأين السبت في أيام (الأسبوع) العشرة عند الصينيين ؟ ثم ما علة (الاستراحة) في اليوم السابع ؟ والله سبحانه لايمكن أن يوصف

(١) انظر : (شريعة سماوية .. ولكن) من كتاب (دراسة في التوراة والإنجيل) للمؤلف .

بالتعب ، وهو القائل في قرآنه الكريم : ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب** ﴾ سورة ق٣٨- أليس اللغوب من صفات المخلوق الضعيف ؟ ثم إذا كان اليوم في تقدير الخالق ﴿ **كألف سنة مما تعدون** ﴾ فما علاقته بالأربع والعشرين ساعة في حياتنا الدنيوية ؟

وإذا كان إكرام الوالدين حقاً وواجباً ، فهل التفريط في هذا الواجب يوجب القتل ؟

(من ضرب أباه أو أمه يقتل قتلًا .. ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلًا) خروج ٢١ .

أليس من سبيل إلى الندم والتوبة والمغفرة ؟ ألا تضع محكمة العدل السماوية في اعتبارها العوامل النفسية التي تثور بالابن فيخطىء ، وتدور بالأب فيعفو ؟!

هل من العدل السماوي أن تكون الشريعة لصالح فريق دون فريق ؟

(للأجنبي تقرض بربا ، ولكن لأخيك لاتقرض بربا ، لكي يباركك الرب) تثنية ٢٣ .

هل تحل بركة الرب على من يستغل حاجة المحتاجين ؟

ما ذنب ابن الزنى وغير الإسرائيلي حتى يحرم من خدمة الرب ؟

(لايدخل ابن زنى في جماعة الرب ، حتى الجيل العاشر .. لايدخل عموني ولا موابي في جماعة الرب ، حتى الجيل العاشر) تثنية ٢٣ .

كيف للرب أن يقول : (لاتضطهد الغريب ولا تضايقه) خروج ٢٢ ثم يقول : (لاتأكل جثة ما ، تعطيها للغريب الذي في أبوابك فيأكلها أو يبيعها لأجنبي ، لأنك شعب مقدس) ؟!

هل من القداسة المتاجرة في جثث الموتى ، والعمل على قتل الآخرين أو إيذائهم ، من أجل دراهم معدودة ؟

مع هذا ، فإن تعاليم موسى تحمل – إلى اليوم – قيماً إنسانية راقية ، أثبتها بترتيب ورودها :

(لاتسيء إلى أرملة ولايتيم) خروج ٢٢ .

(لاتقبل خبراً كاذباً ، ولاتضع يدك مع المنافق ، لتكون شاهد ظلم ، لاتتبع الكثيرين إلى فعل الشر ، ولا تُجب في دعوى ، مائلًا وراء الكثيرين للتحريف ، ولا تحاب مع المسكين في دعواه ، إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شارداً ترده إليه ، إذا رأيت حمار مبغضيك واقعاً تحت حمله ، وعدلت عن حله ، فلابد أن تحل معه) خروج ٢٣

(لاتبت أجرة أجيرك عندك إلى الغد) لاويين ١٩ .

(لاتشتم الأصم ، وقدام الأعمى لاتجعل معثرة) لاويين ١٩ .

(لاترتكبوا جوراً في القضاء ، لاتأخذوا بوجه مسكين ، ولاتحترم وجه كبير ، بالعدل تحكم لقريبك ، لاتسع في الوشاية بين شعبك .: لاتبغض أخاك في قلبك ، لاتنتقم ولاتحقد على أبناء شعبك) لاويين ١٩ .

(لايكن متاع رجل على امرأة ، ولا يلبس رجل ثوب امرأة) لاويين ١٩ .

(لاتحرث على ثور وحمار معاً) تثنية ٢٢ .

(لاتكمّ الثور في دراسة) تثنية ٢٢ .

وتضع (التوراة) أسساً صالحة للتعامل الإنساني ، بحيث تساعد على تحقيق العدل ، وعلى أن تستل الأحقاد والضغائن :

(لايقوم شاهد واحد على إنسان في ذنب ما ، أو خطية ما ، من جميع الخطايا التي يخطىء بها ، على فم شاهدين ، أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر) تثنية ١٩ .

(إذا أقرضت صاحبك قرضاً ما ، فلا تدخل بيته ، لكي ترتهن رهناً منه ، في الخارج تقف ، والرجل الذي تقرضه يخرج إليك الرهن إلى الخارج) تثنية ٢٤ .

(إذا ارتهنت ثوب صاحبك ، فإلى غروب الشمس ترده إليه ، لأنه وحده غطاؤه) خروج ٢٢ .

(لاتأخذ رشوة ، لأن الرشوة تعمي المبصرين ، وتعوج كلام الأبرار) خروج ٢٣ .

(لا يكن لك فى كيسك أوزان مختلفة ، كبيرة وصغيرة) تثنية ٢٥ .

(لايكن لك في بيتك مكاييل مختلفة ، كبيرة وصغيرة) تثنية ٢٥ .

(إذا حصدت حصيدك في حقلك ، ونسيت حزمة في الحقل ، فلا ترجع لتأخذها ، للغريب واليتيم والأرملة تكون) تثنية ٢٤ .

ونجد في الكتابات اليهودية التزامات خاصة بالذبح ، أشبه بالطقوس الدينية .. إذ يشترط في الذابح أن يكون يهودياً ، متمسكاً بتعاليم دينه ، ليس كفيفاً ، ولاأصم ، ولاأبكم ، ولاصغيراً ، إلا إذا أثبت أنه كفء للذبح .. ولايجوز للذابح أن يذبح إلا بعد حصوله على ترخيص من الحاخام .

والذبح جائز في أي مكان ، عدا الأنهار والبحار والأوعية المملوءة ماء والحُفَر ، ويجب أن تكون السكين ذات نصل ضعف زور الطائر أو الحيوان المراد ذبحه ، كما يجب أن يكون النصل حاداً ولا عيب فيه من خدش أو ثلم ، وعلى الذابح أن يفحصه بظفره أو طرف إصبعه قبل أن يذبح .

وعلى الذابح أن يبدأ بتلاوة بركة الذبح : (مبارك أنت يارب ، إلهنا ، ملك العالم ، الذي قدستنا بوصاياك ، وأوصيتنا بالذبح) .

والذبح لايتم إلا في الزور ، في القصبة الهوائية والبلعوم ، وفي أول القصبة الهوائية توجد لوزتان ، إذا ذبح الذابح بينهما فهذا حلال ، على أن يبقي على قليل بينهما في أعلى الزور ، وإذا لم يبق على شيء منهما وذبح فوقهما فالذبيحة محرمة .

وإذا ضغط بالسكين على الزور ، كما لو أنه يقطع شيئاً ما ، أو كمن يضرب بسيف ، حرمت ذبيحته .

وقد جرت العادة على تحريم الذبيحة التي تقطع كل رقبتها .

وإذا غطى الريش أو الشعر السكين فالذبيحة محرمة .

وعلى الذابح أن يواري الدم التراب ، ويباركه ، فيقول : (مبارك أنت يارب ، إلهنا ، ملك العالم ، الذي قدستنا بوصاياك ، وأوصيتنا على تغطية الدم بالتراب)[1] .

* * *

وقدمت (التوراة) صوراً من العقوبات المادية ، يمكن أن تكون وسيلة إلى حماية الحقوق :

(إذا رعى إنسان حقلًا أو كرماً ، وسرح مواشيه ، فرعت في حقل غيره ، فمن أجود حقله يعوض) .

(إذا خرجت نار وأصابت شوكاً ، فاحترقت أكداس زرع أو حقل ، فالذي أوقد الوقيد يعوض) .

(إذا أعطى إنسان صاحبه فضة أو أمتعة للحفظ ، فسرقت من بيت الإنسان ، فإن وجد السارق يعوض باثنين ، وإن لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت إلى الله ليحكم ، هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه) .

(وإذا استعار انسان من صاحبه شيئا فانكسر ، أو مات وصاحبه ليس معه يعوض، وإن كان صاحبه معه لا يعوض) – خروج ٢٢ .

●● يؤخذ على هذه العقوبات ، وغيرها كثير ، أنها تتحدث عن التعويض ، دون بيان ما إذا كان المعتدى لايملك ما يعوض به ، كما أن التعويض لايلتزم قاعدة مطردة ، فهو تارة المثل ، وتارة الضعف ، وقد يصل إلى خمسة أضعاف ، مع أن (التكييف القانوني) متشابه .. هذا إلى أن الأحكام ترتبط بحالات ، لابكل الحالات .. (انظر تفصيل ذلك في خروج ٢٢) .

أما بالنسبة لجريمة القتل ، فالأصل (لاتقتل البرىء والبار) خروج ٢٢ – وإذا حدث العدوان (فلا تشفق عينك ، نفس بنفس ، عين بعين ، سن بسن ، يد بيد ، رجل برجل) تثنية ١٩ .

---

(١) اليهودية ، واليهودية المسيحية – ص ١١٩ / ١٢١ .

(كل من قتل نفساً فعلى فم شهود يقتل القاتل ، وشاهد واحد لايشهد على نفس للموت ، ولا تأخذوا فدية عن نفس القاتل المذنب للموت ، بل إنه يقتل) عدد ٣٥ .

حكم صارم ، لايشوبه إلا أن (ولي الدم يقتل القاتل حين يصادفه) عدد ٣٥ ــ مما يساعد على مزيد من القتلى ، لأنه يأخذ طابع الثأر ، لا عدالة القصاص .

وإن كنا نجد في سفر (خروج) أن الكهنة هم الذين يتولون القصاص ، (فمن عند مذبحي تأخذه للموت) خروج ٢١ــفتبعة التغيير تقع على أولئك الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، دون إدراك لقداسة الكلمة .

وفي حالة الخطأ : (إن دفعه بغتة ، بلا عداوة ، أو ألقى عليه أداة ما ، دون تعمد ، أو حجراً ما مما يقتل به ، بلا رؤية ، أسقطه عليه فمات ، وهو ليس عدواً له ، ولا طالباً أذيته ، تقضي الجماعة بين القاتل وولي الدم ، وتنقذ الجماعة القاتل من ولي الدم ، وترده الجماعة إلى مدينة ملجئه التي هرب إليها ، فيقيم هناك إلى موت الكاهن العظيم الذي مسح بالدهن المقدس .. ولكن .. إن وجده ولي الدم خارج حدود مدينة ملجئه ، وقتل ولي الدم القاتل ، فليس له دم) عدد ٣٥ .

من هنا اختلط العدل بالجور ، فقضاء الجماعة بين القاتل خطأ،وولي الدم قد يصل إلى دية مرضية ، وإبعاد القاتل علاج نفسي يدعمه الحزن العظيم على الكاهن العظيم ، أما أن يلتقي ولي الدم بعد ذلك بالقاتل فيقتله ، دون عقاب ، فأمر ليس من العدالة في شيء وبخاصة أن من السهل تحقيق هذا اللقاء .

●● حالات كثيرة تعرضها (التوراة) وصور من العقاب تميل إلى العدل الرادع الذي قد يصل إلى حد القسوة .

لكن .. مع هذا ، فإن أحداث إسرائيل الواردة في التوراة ، كثيراً ما تخرج على ما ورد فى الشريعـة ، فإذا كان كل إنسـان بخطيئته يقتل ــ

تثنية ٢٤ ـ فماذا حدث لداود وقد قتل أوريا الحثى ، حتى يظفر بزوجته ؟ وكيف قتل أبشالوم بن داود أخاه أمنون ، ويكون للملك حق العفو عن القاتل ؟ صموئيل الثانى ١١ و ١٤ .

ثم كيف تقول الشريعة : (لايقتل الآباء عن الأبناء ، ولايقتل الأولاد عن الآباء) تثنية ٢٤ ويقول الرب : (أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء ، في الجيل الثالث والرابع من مبغضي) ؟ خروج ٢٠ .

وتاريخ بني إسرائيل حافل بالقتل الجماعي ، رجالًا ونساءً وأطفالًا وبهائم وكل نسمة حية ، إذا حمي غضب الرب ، أو حمى غضب نبي من أنبيائه ، أو قائد من قادته .

* * *

واهتمام (التوراة) بحماية الأعراض شديد .

من يقرأ الإصحاح الثامن عشر من سفر (لاويين) يجد صورة تكاد تكون مطابقة لما أورد القرآن في سورة النساء عن المحارم ، أو ما جاء في سورة النور من عقاب المعتدين على المحارم ، فإن روح التشريع واحدة ، متمثلة في :

(لاتدنس ابنتك بتعريضها للزنى ، لئلا تزني الأرض ، وتمتلىء الأرض رذيلة) لاويين ١٩ .

(إذا اضطجع رجل مع امرأة طامث، وكشف عورتها، عرى ينبوعها، وكشفت هى ينبوع دمها، يقطعان كلاهما من شعبهما)-لاويين ٢٠ .
(إذا راود عذراء لم تخطب ، فاضطجع معها ، يمهرها لنفسه زوجة .. إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر عذراء) خروج ٢٢ ـ وزاد فى مكان آخر أنه إذا تزوجها (لا يقدر أن يطلقها كل أيامه) تثنية ٢٢ .

(إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل ، فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها ، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة ، وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة ، والرجل من

أجل أنه أذل امرأة صاحبه) .

(ولكن إن وجد الفتاة المخطوبة في الحقل ، وأمسكها الرجل ، واضطجع معها ، يموت الرجل الذي اضطجع معها وحده) ، لأنه (لم يكن من يخلصها) تثنية ٢٢ .

هذه حالات ، وغيرها كثير ، تتسم بالعدالة ، أو لاتبعد عنها .

وقد نجد مبالغة في الأحكام فيما إذا كانت الجريمة بين أبناء الجنس الواحد ، أو مع الحيوانات .

لكن مالانقبله أن تكون هذه التشريعات في (التوراة) إلى جانب اتهام الأنبياء بهذه الجريمة الشنعاء ، حتى جعلوا النبي يضطجع مع بنتيه ، أو زوجة جاره ، وأمنون بن داود يعشق أخته ثامار ، ويحتال حتى يخلو بها ويضطجع معها ، ولاعقاب – صموئيل الثاني ١١ .

وحين أخطأ شكيم مع (دينة) ابنة يعقوب ، وأراد أن يصلح خطأه ويتزوج منها ، فقال حمور أبو شكيم ليعقوب وبنيه : (ابني قد تعلقت نفسه بابنتكم ، أعطوه إياها زوجة ، وصاهرونا ، تعطونا بناتكم ، وتأخذون لكم بناتنا ، وتسكنون معنا ، وتكون الأرض قدامكم ، اسكنوا ، واتجروا فيها ، وتكلموا بها ، ثم قال شكيم لأبيها وإخوتها : دعوني أجد نعمة في أعينكم ، فالذي تقولون لي أعطى ، كثروا عليّ جداً مهراً وعطية ، فأعطى كما تقولون لي ، وأعطونى الفتاة زوجة) .

(فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر) واشترطوا أن يتم ما أراد شكيم وأبوه إذا اختتنا وقومهما .

حسن القول في عيني آل حمور ، (واختتن كل ذكر) .

(وفي اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين ، أن ابني يعقوب شمعون ولاوي ، أخوى دينة ، أخذا كل واحد سيفه ، وأتيا على المدينة بأمن ، وقتلا كل ذكر ، وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف ، وأخذا دينة من بيت شكيم ، وخرجا ، ثم أتي بنو يعقوب على القتلى ، ونهبوا المدينة ، لأنهم نجسوا

أختهم ، غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه ، وسبوا ونهبوا وغنموا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما في البيوت) تكوين ٣٤ .

فإذا عرفنا أن موسى وهارون والكهنة جميعاً من سلالة (لاوي) لم يغب عنا أن ما فعله (لاوي) أصبح من شريعة موسى ، وقامت الكهنة على تنفيذه ، دون تساهل .

وبهذا صار الهدف إبادة الشعوب الأخرى ، والاستيلاء على كل ما يملكون ، دون حاجة إلى جريرة !!

* * *

بقيت الإشارة إلى العناية الكبيرة فى (التوراة) بالنجاسة والطهارة ، إلى حد أن يصبح الأصل هو النجاسة .. وتؤدى للطهارة طقوس معقدة ، حتى يمكن تحقيقها ، بعد تقديم القرابين اللازمة .

مثلًا :

(المرأة التي يضطجع معها رجل اضطجاع زرع يستحمان بماء ، ويكونان نجسين إلى المساء) لاويين ١٥ .

(إذا مات إنسان في خيمة ، فكل من دخل الخيمة ، وكل من كان في الخيمة ، يكون نجساً سبعة أيام) .

(وكل من مسّ على وجه الصحراء قتيلًا بالسيف ، أو ميتاً ، أو عظم إنسان ، أو قبراً يكون نجساً سبعة أيام) .

(فيأخذون للنجس من غبار حريق ذبيح الخطية ، ويجعل عليه ماء حياً في إناء ، ويأخذ رجل طاهر زوفاً ، ويغمسها في الماء ، وينضحه على الخيمة ، وعلى جميع الأمتعة ، وعلى الأنفس الذين كانوا هناك ، وعلى الذين مسّ العظم أو القتيل أو الميت أو القبر ، ينضح الطاهر على النجس ، في اليوم الثالث واليوم السابع ، ويطهره في اليوم السابع ، فيغسل ثيابه ، ويرحض بماء ، فيكون طاهراً في المساء ، وأما الإنسان الذي يتنجس ولا يتطهر ، فتباد تلك النفس من بين الجماعة ، وكل ما مسّه النجس ينجس ،

والنفس التي تمس تكون نجسة إلى المساء) عدد ١٩ .

(كل فراش يضطجع الذي له السيل يكون نجساً ، وكل متاع يجلس عليه يكون نجساً ، ومن مس فراشه يغسل ثيابه ، ويستحم بماء ، ويكون نجساً إلى المساء) .

(وإذا طهر ذو السيل من سيله يحسب له سبعة أيام لطهره ، ويغسل ثيابه ، ويرحض جسده بماء فيطهر ، وفي اليوم الثامن يأخذ لنفسه يمامتين ، أوفرخي حمام ، يأتي إلى أمام الرب ، إلى باب خيمة الاجتماع ، ويعطيهما للكاهن ، فيعملهما الكاهن الواحد ذبيحة خطية ، والآخر محرقة ، ويكفر عنه أمام الرب من سيله) لاويين ١٥ .

أما طهر الأبرص فيكاد يصل إلى الشعوذة والدجل .

ويلاحظ أن موضوع البرص يشغل من شريعة الرب ثلاثة إصحاحات في سبع صفحات .

●● ولم تقتصر النجاسة على ما سبق .. فكل من مس جثة حيوان لايؤكل ، والحيوانات التي لاتؤكل كل مالا يجمع بين الاجترار وشق الظلف ـ (يكون نجساً إلى المساء ، ومن حمل جثتها يغسل ثيابه ، ويكون نجساً إلى المساء) لاويين ١١ .

يدهش المرء إذا علم أن الجمل والحصان والحمار والأرنب مما لايؤكل ، وكان الحمار وسيلة الانتقال قبل أن يعرفوا الجمل ، فكيف ينجس من مسه ؟

ونسأل : لماذا تظل النجاسة حتى المساء ؟ ولماذا يكسر الوعاء الخزفي ، ولايكفي معه الغسل ، مع أن جودة صنعه قد تختفي معها المسام ، فضلًا على أنه يطلى بطلاء أملس ؟

(كل قاع خزف وقع فيها منها ، فكل ما فيه يتنجس وأما هو فتكسرونه) .

(التنور والموقد يهدمان)لاويين ١١ ـ ألا تطهرهما النار ؟!

(وإذا حبلت المرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام ، كما في أيام طمث علتها تكون نجسة ، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً في دم تطهيرها .. وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين ، كما في طمثها ، ثم تقيم ستة وستين يوماً في دم تطهيرها)لاويين ١٢ ـ فلماذا تختلف النجاسة مع الذكر عنها مع الأنثى ؟ وهل تختلف أيام الطمث أو النفاس مع المرأة الواحدة باختلاف ما تلد ؟

وعلى ذكر الطمث ، فأيام نظافة الحائض تبدأ في اليوم الخامس ، إذا ما انقطع الدم ، وأيام النظافة سبعة ، ابتداء من اليوم السادس من مجيء الحيض ، ثم تبدأ الطهارة ، وقبل غروب الشمس لابعده ، تستحم المرأة ، وتغسل الرحم جيداً ، ثم تلبس ملابس بيضاء نظيفة ، وتغطى سريرها بملاءة بيضاء نظيفة ، وتضع قطعة من القماش أو القطن الأبيض في بيت الرحم ، فإذا لم تشاهد أثراً للدم تبدأ بعد هذا اليوم أيام النظافة السبعة ، وعليها أن تفحص نفسها مرتين في كل يوم من أيام النظافة السبعة ، مرة في الصباح وأخرى قبل الغروب ، وبعد إتمام النظافة تتوجه المرأة إلى المغطس ، وتجرى عملية الغسل والطهارة ، وذلك بأن تكون :

١ ـــ في مغطس طاهر أو نبع ماء .

٢ ـــ أن يتم الغطاس ليلًا ، بعد ظهور النجوم ، وإذا حال دون ذلك حائل تغطس في اليوم الثامن نهاراً ، وتخفي ذلك عن زوجها حتى الليل .

٣ ـــ قبل الغطاس تغسل كل جسمها بماء ساخن ، وخاصة الأماكن المستورة من الجسم ، مثل الإبطين والسرة والأنف والأذن ، كما يجب عليها أن تقص أظافر اليدين والرجلين ، وتغسل ما بين الأصابع جيداً ، كما يجب عليها أن تغسل رأسها بماء ساخن ، وتمشط شعرها جيداً ، على ألا تختلط شعرة بأخرى ، وإلا بطل الغطاس ، كما أن عليها أن تنظف أسنانها جيداً ، وتتجرد عند الغطاس من حليها .

٤ ـــ غسل الرأس قبل الغطاس لابد أن يتم نهاراً قبل غروب الشمس بقليل ، أو قبل ظهور النجوم ، ومن ثم تتوجه إلى الغطس ، ولايجوز لها أن

تأكل أو تؤدى عملًا قبل الغطاس ، ويحرم عليها أكل اللحم في اليوم الذي تغطس فيه ليلًا ، عدا يوم السبت ، فأكل اللحم مباح لها .

٥ ــ في الغطس يجب أن يغطى الماء كل جسمها وشعر رأسها ، وإذا ظهرت شعرة فوق الماء تعتبر المرأة نجسة ، وعليها أن تطلق يديها وساقيها ، فلا تقترب اليد من الأخرى ، ولا الساق من الأخرى .

٦ ــ بعد إتمام الغطاس تتلو البركة : (مبارك أنت يارب ، إلهنا ، ملك العالم ، الذي قدسنا بوصاياه ، وأوصانا بالطهارة) [١] .

أسئلة كثيرة حول النجاسة والطهارة تحتاج إلى دراسة نفسية لهذا الشعب المختار .. أمردّ ذلك إلى الخوف أو التسامي ؟ أهي وسيلة الكهنة للسيطرة ؟

حين أراد عيسى ــ عليه السلام ــ أن يقضى على سلطان الكهنة ، قال : (ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان ، بل ما يخرج من الفم ، هو ينجس الإنسان) متى ١٥ ، فلما ازدادت شراسة اليهود في محاربة المسيحيين ، قال بولس : (ليس شيء نجساً بذاته ، إلا من يحسب شيئاً نجساً فله هو نجس) رسالة بولس إلى أهل رومية ١٤ .

لعل موقف عيسى وبولس من النجاسة إشعار بأن الكهنة اتخذوا منها وسيلة قيد وإعنات ، لتظل النفوس رهن الإحساس بالإثم ، ولاتجد خلاصها ، أو ما يشبه الخلاص ، إلا على يد الكهنة ، ومن ثم يظل سلطان الكاهن يلاحق الرعية حيثما وجدوا .

* * *

في نهاية هذا البحث ينبغي أن نشير إلى أن بعض رؤساء الدين الذين فسروا التوراة زعموا أنهم اقتبسوا من العهد القديم والتلمود عقائد جمعها موسى بن ميمون فى ثلاث عشر عقيدة هى :

١ ــ أنا أومن إيماناً تاماً بأن الخالق تبارك اسمه موجود وخالق ومدبر كافة المخلوقات ، وهو وحده صنع ويصنع كل الأعمال .

---

(١) اليهودية ، واليهودية المسيحية ــ ص ١٢٢ / ١٢٣ .

٢ ـ أنا أومن إيماناً تاماً بأن الخالق تبارك اسمه وحيد ، وليس لوحدانيته مثيل ، على أي وجه وهو وحده إلهنا ، كان كائن يكون .

٣ ـ أنا أومن إيماناً تاماً بأن الخالق تبارك اسمه ليس جسداً ، وهو منزه عن أعراض الجسد وليس له شكل مطلقاً .

٤ ـ أنا أومن إيماناً تاماً بأن الخالق تبارك اسمه هو الأول وهو الآخر .

٥ ـ أنا أومن إيماناً تاماً بأن به وحده تليق الصلاة والعبادة ، ولاتليق بغيره .

٦ ـ أنا أومن إيماناً تاماً بأن كل الأنبياء حق .

٧ ـ أنا أومن إيماناً تاماً بأن نبوءة سيدنا موسى عليه السلام كانت حقيقية ، وبأنه كان أبا للأنبياء الذين قبله ، والذين بعده .

٨ ـ أنا أومن إيماناً تاماً بأن الشريعة الموجودة الآن بأيدينا هي المعطاة لسيدنا موسى عليه السلام .

٩ ـ أنا أومن إيماناً تاماً بأن هذه الشريعة لاتتغير ، ولا تكون شريعة من لدن الخالق تبارك اسمه .

١٠ ـ أنا أومن إيمانا تاماً بأنه عالم بكل أعمال بني البشر وأفكارهم .

١١ ـ أنا أومن إيماناً تاماً بأنه يكافىء خيراً الذين يحفظون وصايه ، ويعاقب الذين يخالفونها .

١٢ ـ أنا أومن إيماناً تاماً بمجيء المسيح ، ولو تأخر أني أنتظر مجيئه .

١٣ ـ أنا أومن إيماناً تاماً بأن ستكون قيامة الأموات ، عندما تصدر إرادة من لدن الخالق تبارك اسمه وتعالى ذكره ، إلى أبد الآبدين[1] .

● ● يلاحظ على هذه العقيدة أنها من صناعة موسى بن ميمون ، ولا دليل عليها من (التوراة) التى بيننا ، وإن اكتسبت شيئاً من (التلمود) ، فهو

---

(١) اليهودية ، واليهودية المسيحية – ص ١٤٤ / ١١٥ .

إنكار ماعدا اليهودية (هذه الشريعة لاتتغير ولاتكون شريعة من لدن الخالق) ، وفرض سلطان موسى على التاريخ الإنساني كله ، إذ (كان أبا للأنبياء الذين قبله ، والذين بعده)، وبإنكار الشريعة بعده، يكون الأنبياء بعده مجرد عاملين على صيانة شريعته ونشرها .

ثم إن السيد المسيح عيسى بن مريم يصبح دعياً كاذباً ، ما دام الإيمان قائماً على يد موسى بن ميمون والحاخامات . بمجيء المسيح ، (ولو تأخر إني أنتظر مجيئه) .

ومن سياق (المعتقدات) لايكون دور المسيح إلا (مخلصاً) للأمة اليهودية ، ومقيماً لدولة المجد والبهاء ، التى تبسط سلطانها على العالم ، ومن ثم فهو على دين موسى ، لامبشراً بدين جديد .

مع هذا ، فالعبارات التي صيغت بها المعتقدات تحمل الطابع الإسلامي (سيدنا موسى عليه السلام .. الخالق تبارك اسمه وتعالى ذكره) وكون موسى لارسول بعده ، ثم الأوصاف التي وصف بها الخالق سبحانه ، ليس منها في التوراة والتلمود ، بل والإنجيل ، مما هو بين أيدينا .

أما ما يتصل بقيامة الأموات فقد سبق القول إن التوراة تخلو منها ، وما ورد فى كتب الأنبياء ليس إلا إشارات ، هى صدى للثقافة ، الفارسية ، كما جاء فى (أشعياء ٢٦) و (دانيال ١٢) و (الجامعة ١٢) و (مزمور ١٦) .. لكنها إشارات لا تكسب معتقداً ، لأنها لا تتحدث عما وراء هذه القيامة ، مما قد يذهب بالقارىء مذهباً مجازياً ، أو يقول إنها خطفة ثقافية من هنا ، وخطفه من هناك ، كما فعل موسى بن ميمون ، وليد الثقافة الإسلامية .

* * *

الفرق اليهودية

كثيرة هي الفرق الدينية ، واختلافاتها متشعبة ، من حيث المعتقدات ، والنظرة إلى الكون ، والتعامل في داخل المجتمع اليهودي وخارجه .. ومن أهم هذه الفرق :

١ ــ الفريسيون :

يقول يوسيفيوس ــ وهو منهم ــ أنهم (شيعة من اليهود يجهرون بأنهم أكثر استمساكاً بالدين من سائر أبناء ملتهم ، وبأنهم أدق من غيرهم في تفسير شرائعهم) .

ومن دلالة الكلمة نفهم أنهم المنعزلون ، أو المنشقون ، ذلك لأن أعداءهم كانوا يدعون أنفسهم الأحبار ، أو الربانيين ، وفيما بينهم كانوا يدعون بعضهم بعضاً بالرفقاء .

ظهر الفرّيسيون ــ لأول مرة ــ قبل الميلاد بمائتي عام ، وتبوأوا المسرح اليهودي حتى مائتى سنة بعد الميلاد ، وهم يتبعون الحاخام عزرا Ezra والكتبة اليهود الأقدمين الذين يعتبرون عزرا أكبر معلم يهودي بعد موسى ، عليه السلام .

وأهم معتقدات هذه الفرقة أن الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم مخلوقة منذ الأزل وكانت مدونة على الألواح المقدسة، ثم أوحيت إلى موسى.

وهذا المعتقد قد يكون ناشئاً عن الاتصال بالثقافة الإسلامية التي تتحدث عن أن القرآن كان جملة في اللوح المحفوظ ، ثم نزل إلى السماء السابعة ، فالسماء الدنيا ، فإلى رسول الله محمد ، عليه الصلاة والسلام .

واعتقد الفريسيون كذلك با لبعث وقيامة صالحي الأموات ، ليشتركوا في ملك (المسيح) الذي سيأتي آخر الزمن ، وتزهدوا ، ولم يؤمنوا بتقديم القرابين إلى المعابد .

وتؤمن هذه الفرقة كذلك بالتلمود ، وبسلطة الحاخامات على اليهود ، وعصمتهم ، واعتبار أن مخافتهم هي من مخافة الله .

ومن أهم معتقداتهم الإيمان بمجيء (المسيح المنتظر) ، ليعيد (ملكوت الله) .. ومع ذلك كانوا ــ بسبب تعصبهم ــ الطائفة التي وقفت في وجه السيد المسيح ، وكانت على رأس المؤتمرين به ، ولم ينفكوا يدبرون له الكيد ، حتى حكم بصلبه .

وتتمسك هذه الفرقة بمعتقدات الأنبياء والآباء الأولين ، وترفض الإيمان بالأنبياء اليهود المتأخرين .

وكان الفريسيون يكافحون في سبيل إعلاء سلطة العقيدة اليهودية ، وتقديم العادات ، وتطبيق الطقوس الدينية تطبيقاً دقيقاً .

وكانوا يحسون بأنه لا نجاة لليهودمن انقراضهم وامتصاص الشعوب الأخرى لهم إلا بإطاعة هذه الأوامر المطورة بالحاخامات ، وفق حاجات الظروف المتغيرة .

وكانوا يدعون إلى جعل الكتاب المقدس ملكاً مشاعاً للجميع .

وكانوا يعلمون(الشعب) في الاجتماعات الأسبوعية للكنيس اليهودي ، واعظين مرشدين إلى الحقائق والواجبات الدينية .

وهم يقولون : (إنه لو كتبت النجاة في الدنيا لاثنين ، يجب أن يكون الفريسى أحدهما) .

يقول القس (بوكس) : كافح الفريسيون كفاحاً مستبسلًا في سبيل وضع الحياة تدريجياً تحت سلطة العقائد الدينية ، فتأثرت قلوب (الشعب) بتعاليم الدين ونواهيه ، بفضل ما بذله الفريسيون من العناية في سبيل تقويم العادات ، وتطبيق الطقوس الدينية تطبيقاً دقيقاً ، لكن الظواهر الخارجية كانت دائماً خاضعة للعقائد الكامنة .

وقد نالوا تأييد الطبقات الوسطى ، بفضل مرونتهم وقوة إيمانهم .

ولما خرب الهيكل سنة ٧٠ م فقد الكهنة نفوذهم ، وأصبح الفريسيون ــ عن طريق الأحبار ــ هم المعلمين والرعاة لذلك (الشعب) الذي تشتت في بقاع الأرض .

٢ — الصدوقيون :

قيل إن اسمهم منسوب إلى ملكي صادق ، الذي (كان كاهناً لله العلــى) ، وكـان (ملك شاليـم) ، وبارك إبراهيـم الخليل حيـن لقيـه ، (وقـال : مبـارك أبـرام من الله العلى ، مالك السمـوات والأرض) تكوين ١٤ .

وقيل نسبة إلى صادوق الكاهن الأعظم في عهد سليمان .

وهذه الفرقة أنكرت (التلمود)، ولم تقدس (التوراة) قدسية مطلقة وهم ينكرون البعث واليوم الآخر ، لأنهم يعتقدون أن العقاب والثواب يتمان في الدنيا .

وهم يؤمنون بحرية الاختيار ، ولا يترقبون مسيحاً قادماً ، وفي ذلك يقول (إنجيل متى ٢٢) : (في ذلك اليوم جاء إليه صدوقيون يقولون ليس قيامة) ، كما أنهم لايؤمنون بالأرواح والملائكة ، تقول (أعمال الرسل ٢٣) : (لأن الصدوقيين يقولون ليس قيامة ولاملاك ولاروح) . .

ويرى بعض الكتاب أن هذه الفرقة كانت من طبقة الأرستقراطيين التي كانت تحاول أن تحمي مصالحها ، فمالت إلى احترام القوانين الموجودة ، طالما اعترفت السلطات الحاكمة بيهوه ، واحترمت ديانة اليهود ، لذلك لايميلون إلى العنف ، ولا إلى الحركات الثورية .

وكان عيسى – عليه السلام – على اتصال بهم في بدء دعوته ، إلا أنه انفصل عنهم ، بسبب إنكارهم البعث واليوم الآخر ، ومن ثم كانت مقاومتهم دعوته أكثر من سواهم .

وبالمقارنة بين الفريسيين والصدوقيين نجد :

أ ـــ أنهما تؤمنان بالتوراة ، لكن الصدوقيين قدموا الولاء للدولة على الولاء للأحكام الدينية ، على حين جعل الفريسيون الولاء المطلق للدين .

ب ـــ أن الصدوقيين يرون أن (يهوه) هو إله بني إسرائيل وحدهم ، فهو إله قومي خاص بهم ، مما جعلهم يميلون إلى العنف مع غيرهم من

الأقوام ، على حين يرى الفريسيون أن (يهوه) إله جميع العالمين ، فنزعوا إلى السلم مع غير اليهود .

جـ ـ أن الصدوقيين – كما سبق – أنكروا البعث واليوم الآخر ، بينما صدقه الفريسيون وآمنوا به ، ثمرة اتصالهم بالثقافات الدينية الأخرى ، وتفتحهم العقلي .

د ـ أورد ابن حزم أن فرقة الصدوقيين كانت تقول أن (العزير) ابن الله .

٣ – الحسديون « الأساة » :

ظهرت هذه الفرقة حوالي القرن الثاني قبل الميلاد .

وتختلف عن بقية فرق اليهود اختلافاً جوهرياً ، في عقائدها ، وعباداتها ، ونظامها ، وتقاليدها .

وقد ظل أتباعها يمارسون طقوسهم الدينية إلى القرن الأول الميلادى ، وكانوا يحيون حياة أقرب إلى الرهبنة ، ويكرهون الزواج ، ويميلون إلى الاشتراكية ، ويباشرون الزراعة والحرف المختلفة ، ويهتمون بالغسل اليومى ، حرصاً على الطهارة ، ويحرمون الأضاحي والقرابين ، وينكرون التفرقة العنصرية ، ويحرمون نظام الرق ، ويدعون إلى سلام دائم .

ويرجح أن يوحنا المعمدان كان واحداً منهم .

٤ – القَرّاءون :

فرقة نمت بعد تدهور فرقة الفريسيين ، فورثت الكثير من أتباعها .

أسسها عنان بن دواد في بابل ، في القرن الثامن للميلاد .

وهذه الفرقة لاتعترف بالتلمود ، وتؤمن بتطبيق التوراة حرفياً ، وتحرم التأويل ، وتتشدد في تطبيق الطقوس الدينية ومظاهرها ، وتؤمن بالجبر ، لابالاختيار .

ومن أهم التشريعات التي خالف فيها عنان بن داود الأحكام المقررة عند

الربانيين – تحريم زواج العم من ابنة أخيه ، وتحريم زواج الخال من ابنة أخته ، وسوى بين الابن والبنت في الميراث ، وقرر أن الزوج لاحق له في تركة زوجته ، وفتح باب الاجتهاد في فهم النصوص المقدسة .

يعزو محرر دائرة المعارف اليهودية العامة أسباب ظهور هذه الحركة إلى عوامل ثلاثة :

أ – ظهور الخلافات بين اليهود بسبب التلمود الذي اعتبره بعضهم بدعة في الدين .

ب – تأثر اليهود الشرقيين بالنصر السياسي المدهش الذي أحرزه الإسلام في القرن السابع ، والذي أقام امبراطورية عالمية في بضع سنين .

ج – تأثير المعتقدات الإسلامية ، والتقلبات السياسية ، والصراع بين الفرق الإسلامية .

فتحت راية الإسلام تثقف الشباب الإسرائيلي ثقافة عربية إسلامية ، بفضلها استطاع المحافظة على (الإسرائيلية) والارتقاء بها في العصور الوسطى ، عصور الجهالة والظلام .

وكان لفلسفة المعتزلة أثرها الكبير في العلماء الإسرا ئيليين الذين اتجهوا إلى إيجاد تعليل فلسفي للدين اليهودي وأحكامه ، كما وسع الاعتزال شقة الخلاف بين القرائين والربانيين .

وانشعبت هذه الطائفة إلى طوائف ، من أشهرها طائفة بنيامين بن موسى ، التي تأثرت بأفكار ابن سينا والفارابي ، وطائفة الأكبرية التي اقتربت من السامرية ، في عدم الاعتراف بغير أسفار موسى الخمسة .

٥ – الكتبة :

أطلقت هذه التسمية على جماعة كانت مهمتها كتابة الشريعة ، فعرفوا الكثير من المعلومات التي دونوها من الكتب المقدسة التي نسخوها ، واختاروا وظيفة الوعظ والإرشاد وسيلة ارتزاق .

تسموا بالحكماء ، والآباء ، وكانوا يمثلون الزعامة الدينية أيام الحكم

الفارسي واليوناني والروماني.

وتطورت وظيفتهم الدينية، فأخذ كثير منهم يفتحون المدارس الخاصة، ينشرون من خلالها برامج للتعليم الديني.

تقول الموسوعة اليهودية: (هم هيئة من المعلمين كانت مهمتهم تفسير الشريعة للشعب، وقد ابتدأ تنظيمهم مع عزرا الذى كان رئيسهم.. وهؤلاء الكتبة كانوا أول من علّم التوراة، وهم واضعو الشريعة الشفهية) التلمود.

٦ – السامريون:

فئة قليلة من اليهود، لا تعترف بغير الأسفار الخمسة من العهد القديم، إلى جانب سفر يشوع، وسفر القضاة، وتخالف نسخة توراتهم نسخة توراة اليهود.

وهى من بقايا من أقاموا فى (شكيم) بعد اجتياح نبوخذنصر لإسرائيل.

ذكر ابن حزم أنهم يبطلون كل نبوة فى بني إسرائيل بعد موسى ويوشع، ويقولون إن مدينة القدس هى نابلس، ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه، وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها.

ولقلة عددها الذى لا يتجاوز ثلاثمائة نسمة، فإن اليهود لا يعترفون بها كفرقة يهودية.

٧ – الإصلاحيون:

قام موسى مندلسون (١٨٢٩ – ١٨٨٦) فى ألمانيا بحركة اعتبرت ضرباً من الإصلاح الدينى الذى تأثر به كثير من يهود العالم الغربي.

حاول أن يحطم (الجيتو) العقلى الداخلى، وبذل أقصى جهده ليبين علاقة الدين بالعقل، ورفض الاعتراف بأى (فكر) يهودى يتنافى مع المنطق العقلي.. بل ذهب إلى حد الإيمان بأن اليهودية ليست ديناً مرسلًا من عند الله، وإنما هى مجموعة من القوانين الأخلاقية، وأن الله – عندما تحدث إلى

موسى فى سيناء – لم يذكر له أي عقائد، بل ذكر طريقة للسلوك يتبعها الأفراد فى حياتهم الشخصية، ولعله أراد بهذا تحرير اليهود من طغيان الحاخامات.

كانت الحركة ترمي إلى تغيير فى المعتقدات اليهودية بما يتمشى مع واقع الحياة فأباحت أكل الخنزير، وعدم تقديس السبت، ومالت إلى التخفيف من الطقوس الدينية، واستعمال اللغات الدارجة في العبادة، وأبطلت الصلاة على الموتى.

ومن أشهر مؤلفات مندلسون كتابه (أورشليم) أو انعتاق اليهود المدنى (١٨٧٣) الذى قال فيه عمانويل كانت: (أعتقد أن هذا الكتاب إعلان لإصلاح عظيم، لا للشعب اليهودى فقط، بل للشعوب الأخرى أيضاً، إذ إن الصلة بين الدين والضمير قوية جداً فى اليهودية، وهى قوية قوة ما كان الإنسان ينتظرها، ولا يستطيع أحد مجاراتهم فيها).

وقد أصدر فى ألمانيا سنة ١٨٥٠ صحيفة باللغة العربية تسمى (الواعظ الأخلاقي) جعلها منبراً لدعوته، ولدعاة الإصلاح اليهودى.

وقام بترجمة (أسفار موسى الخمسة) إلى الألمانية، ليقضى على عزلة اليهود الاجتماعية والنفسية، وأنشأ مدرسة فى برلين للأطفال اليهود، تعلمهم الالمانية وبعض الأعمال اليدوية، إلى جانب العلوم اليهودية التقليدية، وطالب بمنح كل فرد حرية العقيدة، ليقرر كل ما يشاء حسب ما يمليه عليه ضميره وتصوره الأخلاقي.

ومن معالم دعوة الإصلاح إنكار التوراة والتلمود كمصادر للتشريع، وإن كان الدعاة يؤمنون بانهما نتاج العبقرية اليهودية الدينية.

وقد رأى الإصلاحيون أن الوحى ليس خالصاً صافياً، بل يختلط بعناصر تاريخية زمنية.

وبهذا يصبح اليهود ملزمين بمحاولة فهم هذا الوحى، وتنفيذ ما هو ممكن منه في لحظتهم التاريخية، (وعلى هذا يصبح القانون الإلهى له السلطة والحق فقط، طالما كانت أوضاع الحياة التى جاء لمعالجتها مستمرة، وعندما تتغير

الأوضاع يجب أن ينسخ القانون ، حتى وإن كان الله صاحبه ومشرعه) .

ويأخذ هذا التيار التاريخي شكلًا متطرفاً في قرارات مؤتمر بتسبرج الإصلاحي (١٨٨٥) الذي تقرر فيه أن (الكتاب المقدس ليس من صنع الله ، بل هو وثيقة من صنع الإنسان) .

وكان هولدهايم يعتقد أن (الدين أداة ابتدعها الإنسان من أجل تطوير المجتمع البشري ، وهو – كأى أداة أخرى – لابد أن يواكب التطور ، وأن يعدل من آونة لأخرى ، وتقاليد اليهودية ولاهوتها كانا ملائمين للماضي ، لكنهما الآن فقدا صلتهما بالواقع ، ولابد من تطويرهما .. إن عقل الإنسان هو الذي يجب أن يحكم ، وليست الطقوس والتقاليد الدينية الساكنة) [1] .

وقد قام الإصلاحيون بإلغاء الصلوات التي لها طابع قومي يهودي ، وجعلوا لغة الصلاة الألمانية لا العبرية ، وأدخلوا الموسيقا والأناشيد الجماعية ، كما سمحوا باختلاط الجنسين في الصلاة ، كما قام بعض الإصلاحيين ببناء بيت للعبادة، وأطلقوا عليه اسم (الهيكل) ، وهي المرة الأولى التي يُستخدم فيها هذا الاسم الذي كان يخص (الهيكل) المقدس ، في محاولة لتعميق ولاء اليهودي للوطن الذي يعيش فيه .

وركزوا على الجوهر الأخلاقي للتلمود ، مهملين التحريمات المختلفة التي ينص عليها القانون اليهودي ، مثل القوانين الخاصة بالطعام .

ونادى أبراهام جايجر بحذف جميع الإشارات إلى خصوصية الشعب اليهودي من كل طقوس الدين وعقيدته وأخلاقه وأدبه ، مطالباً بالتخلي عن فكرة الشعب المختار كلية .

وعدل بعضهم هذه الفكرة بأن يكون للشعب المختار رسالة أخلاقية ليست مقصورة عليه ، ويمكن لمن شاء أن يؤمن بها .

كما عدل بعضهم فكرة عودة (الماشيح) بفكرة عصر يحل فيه السلام والكمال .

---

(١) الأيديولوجية الصهيونية – د. عبد الوهاب المسيري – عالم المعرفة – ديسمبر ١٩٨٢ ج ١ – ص ٨٢ / ٨٧ .

وجاء في المبدأ الخامس الذي أعلنه مؤتمر بتسبرج : (نحن لانعتبر أنفسنا أمة بعد اليوم ، بل جماعة دينية ، ولذا فنحن لانتوقع عودة إلى فلسطين ، أو عبادة قربانية في ظل أبناء هرون، ولااسترجاعاً لأى من القوانين المتعلقة بالدولة اليهودية) [1] .

ويرجح المؤرخون أن أصول دعوة مندلسون ترجع إلى (سباتاى زفاى - ١٦٢٦ / ١٦٧٦) الذى كانت حركته فى ألمانيا[1] تحولا فى الدوافع اليهودية الخفية من الدراسةالمستترة إلى الانطلاق فى حركة واسعة النطاق ، بكل متضمناتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وبعد(زفاى) ، عمل (جاكوب فرانك - ١٧٢٦ / ١٧٩١) ببولندا - من خلف قناع المسيحية الكاثولكية - على أن يتضمن (مجد الدولة) القوة العسكرية والثورة وكل الملذات الدنيوية ، وكانت تراوده فكرة تكوين الدولة اليهودية فى إحدى مقاطعات بولندا .

فى ذلك الوقت كان (إسرائيل بن أليعازر - ١٧٠٠ / ١٧٦٠) يدعو إلى وحدانية الله الذى يملأ مجده كل الأرض ، حتى يتزود يهود (الاغتراب) بقوة تساعدهم على مقاومة كل الإغراءات المضادة لليهودية .

وهكذا ساعدت الحركات الثلاث - قبل مندلسون - على نقل اليهودية الصهيونية من سلبية التقوقع والانتظار ، إلى إيجابية الاندماج والحركة ، التى تحولت على يد مندلسون إلى تغيير فى مناهج التعليم اليهودى ، وإلى إنشاء مدارس (حرة) يستعاض فيها عن تدريس العبرية باللغات العصرية والرياضيات والعلوم الحديثة .

وجاء (ليوبولد زونز) الذى اختط ـ فى سبيل إزالة الفواصل بين اليهودية والحضارة الغربية - نهجاآخر ، يقوم على دعوة اليهود إلى أن يبينوا للعالم قيمة حضارتهم وعظمتها ، حتى يحظوا بالاحترام ، ويسهل قبولهم فى أمم العالم ، ونتيجة هذه الدعوة أنشئت بالأموال اليهودية مئات المجلات التى تبحث فى

(١) المصدر السابق - ص ٨٧ .

(٢) سباتاي زفارى يهودي تركي ، مارس نشاطه بين تركيا واليونان وألبانيا ، وادعى الإسلام ، ليعمل تحت لوائه من أجل وأعلاء شأن اليهود ، كما ادعى أنه المسيح المنتظر .

شئون اليهود ، وأقيمت معاهد عليا وكراسى لعلم اليهودية فى الجامعات ، وافتتحت متاحف ، وأنشئت جمعيات لنشر المعارف عن اليهودية فى أوسع نطاق ، وحدثت محاولات لتزييف التاريخ ، والسيطرة على الفكر الغربى وقيمه الأخلاقية والحضارية والاقتصادية ، كخطوة على طريق السيطرة العالمية

ومع انتعاش الحركة القومية فى أوربا ،وسيادة الاتجاهات العقلانية فى التفكير – وجد اليهود طريقهم إلى الانتشار والتسلط ، والعمل على تحقيق الذاتية اليهودية ، والتأكيد على أنهم شعب الله المختار ، وأن بقاءهم رهن بتمسكهم بالأرض الموعودة ، فلسطين ، حيث يوجد هيكل أورشليم ، وحيث يثبون منها لتحقيق ما وعد الله به نسل إبراهيم ، فى أرض تمتد من الفرات إلى النيل .

وهذا يؤكد فشل عملية الإدماج التى عملت عليها حكومات الدول الأوربية جميعاً ، وفشل المحاولات الإصلاحية التى نهض بها كثير من المفكرين اليهود المخلصين ، مما حدا بالقيصر الروسى إلى تشكيل (لجنة ايجناتيف) التى قررت فى ربيع ١٨٨٢ (أن سياسة الكسندر الثانى « التسامحية » قد فشلت ، وأن قيام المعارضة الشعبية ضد اليهود فى روسيا نفسها قد برهن على وجوب اتخاذ إجراءات جديدة ضد اليهود الروس) .

وقدمت اللجنة عدة توصيات نفّذها (القيصر) فى صورة (إجراءات مؤقتة) ، جاء فيها :

١ – غير مسموح لأى يهودى بالاستيطان – من جديد – فى منطقة ريفية ، فى روسيا ، حتى فى مناطق الاستيطان .

٢ – من حق الروس فى القرى طرد اليهود من قراهم ، بقرار خاص يصدره رئيس القرية .

٣ – أى يهودى يغادر قريته لا يسمح له بالعودة إليها ثانية .

٤ – لا تجديد لعقود الإيجار المبرمة مع اليهود .

٥ – غير مسموح بتشغيل أى يهودى فى المناطق الريفية .

٦ – غير مسموح لليهود المقيمين فى المناطق الريفية استجلاب أى قريب لهم إليها ، وإذا حدث هذا يطرد اليهودى من قريته .

٧ –تحديد عدد الطلاب فى المدارس الإعدادية والثانوية وفى الجامعات ، بنسب يحددها المجلس التعليمى فى روسيا .

٨ – تخفيض نسبة عضوية اليهود فى القضاء الروسى من ٢٢ ٪ إلى ٩ ٪ .

٩ – أى يهودى يعيش داخل روسيا ، ويقوم بتوسيع نشاطه الاقتصادى ، يعاد فوراً إلى منطقة الاستيطان .

١٠ – أى يهودى يهجر مهنته إلى التجارة يسقط حقه فى الإقامة بالمدن والقرى ، ويعاد إلى منطقة الاستيطان .

١١ – تحريم إقامة اليهود فى موسكو .

١٢ – إغلاق معبد موسكو ، وتحريم استخدامه .

١٣ – حرمان اليهود من ممارسة حق الانتخاب ، أو ترشيح أنفسهم لمجالس البلديات التى يقطنون ضمن حدودها .

هذه (الإجراءات) دليل على تجاوزات خطيرة قام بها اليهود ضد الفلاحين وملاك الأرض ، عن طريق التعامل بالربا والرهونات ، كما تدل على مدى الإضرار بالاقتصاد العام عن طريق التحكم فى حركة التجارة والسيولة المالية ، وتهريب النقد .

وقد أدت هذه (الإجراءات) إلى هجرات جماعية صوب أوربا والولايات المتحدة ، مما ساعد على خلق تذمر عام أدى إلى ما يسمى (المسألة اليهودية) ، وإلى إعلان فشل حركة التنوير (الإصلاحية) التى لم تكد تمضى على ظهورها عدة أعوام .

●● وكان أن ظهر كتاب (روما وأورشليم) لموريتس هيس –١٨١٢ / ١٨٧٥ – الذى بدأ حياته اشتراكيا ، وكان صديقاً حميماً لكارل ماركس ، وهذا الكتاب يعد حجر الأساس لظهور المذهب

الصهيونى ، إذ نادى بأن على اليهودى أن (يتحمل نير مملكة السماء حتى النهاية) ، وسخر من محاولة(المتنورين) أن (يعرضوا المسرح اليهودى لضوء الثقافة الحديثة ، فذلك يحرق القشرة الصلبة التى سلح الحاخامات اليهود بها) .. إن أى دعوة نحو العالمية والشمولية هى فى صميمها دعوة للقضاء على اليهودية .

ودعا إلى إنشاء مستعمرات يهودية (من السويس حتى القدس ، ومن ضفتى نهر الأردن حتى شاطىء البحر المتوسط) ، تحت رعاية فرنسا ، التى (ستكون صديقتنا الحبيبة ، والمخلص الذى سيعيد لشعبنا مكانته فى تاريخ العالم) .

صدر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢ فى صورة رسائل متبادلة ، وعليها تعليقات ، أهداه المؤلف إلى جميع الذين يكافحون فى سبيل إعادة بعث قوميات الشعوب التى خلقت التاريخ .

وكان هيس يؤمن بأن النتيجة الحتمية لبعث الدول والقوميات ظهور الدولة اليهودية (التى تحقق العدالة الاجتماعية فى جماعة إنسانية منظمه متحدة) .

وساعد(فارص سمولنسكين – ١٨٤٠ / ١٨٨٥) بقصصه على تأكيد أن اليهودية ليست رابطة دينية ، بل هى العقيدة الجامعة الرابطة لشعب خاص ، وأن هذه العقيدة الدينية – مباشرة أو غير مباشرة – مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باللغة العبرية ، وكل انحراف عنها يؤدى إلى إضعاف أواصر الترابط بين أفراد الشعب .

وقد أصدر (فارص) في فينا سنة ١٨٦٧ مجلة عبرية (صبح) ، يقول في منهجها : (لاعار إذا اعتقدنا أن نفينا يجب أن ينتهي ، وأنه سيأتي اليوم الذي تحصل فيه الأسرة الإسرائيلية على وطن ، مثلها مثل سائر الشعوب ، ولا عار إذا تمسكنا بلغتنا القديمة التي رافقتنا طيلة أجيال السبى والنفي والتجوال) .

وقيل إن (فارص) أول من عالج اليهودية علاجاً قومياً في كتابه (الشعب الخالد) ، إذ تناول اليهودية على أنها مذهب قومي ، يعتمد على أصول دينية وخلقية ، وهو يطالب بيهودية متعلمة ، تعتمد على السير قدماً

في النهضة العقلية ، مع الحرص على خلق دولة يهودية .

وترتب على هذه الدعوات إلى بعث (القومية) اليهودية أن ازداد عدد الصحف والمجلات العبرية ، حتى بلغ المئات في أوربا الغربية وفي روسيا ، أما في أمريكا فقد صدرت صحف ومجلات أسبوعية وشهرية منذ سنة ١٨٧٠ ، وفي فلسطين ذاتها عرفت الصحف العبرية منذ سنة ١٨٦٣ ، وفي عام ١٨٨٠ ظهرت الصحف اليومية الحديثة ، بفضل جهود سمولنسكين وبلوم وجوردون .

ونتيجة الاضطهاد القيصري في روسيا روج اليهود للشيوعية ، وناصروها ، لكن ما لبثوا بعد نجاح الثورة البلشفية أن ركبوا ظهرها ، وصاروا عبئاً ثقيلًا ، وكان أن حدّ البلاشفة من نشاطهم ، فانتقل النشاط إلى وارسو التي صارت مركز إصدار عدد من الصحف العبرية ، فضلًا عن دار نشر أسسها دافيد فريشمان .

* * *

وإلى جوار هذا النشاط السياسي الديني قام نشاط آخر على مبادئ التصوف ، يتمثل في :

القبالة :

علم التأويلات الباطنية ، ويمثل الازدهار الأقصى للتفكير الأسطوري عندهم .

وقد اتخذه إبراهيم بن داود وسيله لإبعاد اليهود عن نزعة موسى بن ميمون العقلية .

أما إبراهيم بن شموئيل **أبو العافيه** – ١٢٤٠ / ١٢٩١ م – فقد استخدم عقيدة (القبالة) السرية على أنها دراسة أعمق وأكثر نفعاً من التلمود ، حتى حل التفسير القبالي محل كتب اليهود المقدسة في القرن السادس عشر .

وقد انقسمت القبالة إلى قسمين : نظري خاص بالطريق إلى المعرفة

الباطنية والفيض الإلهي .. وعملي أقرب إلى السحر الذي يستخدم التسبيح باسم الله ، ورموز الحروف ، والأرقام الأولية ، لتحقيق الغايات .

وترتبط القبالة بعدد من العلوم السحرية ، مثل التنجيم والسيمياء والفراسة وقراءة الكف وعمل الأحجبة وتحضير الأرواح .. ويؤمن القباليون أن ثمة منطقاً خفياً للحروف (العبرية) والحروف الأربعة المكونة لاسم (يهوه) .

وقد حاول القباليون إماطة اللثام عن الروح ، وتحريرها من قيود المادة ، حتى يمكنها الاتصال بالملأ الأعلى .

ومن أبرز التراث القبالي ، الزوهار والباهير .

وكتاب الزوهار أهم الكتب في هذا التراث ، وتعني كلمة الزوهار في العبرية الإشراق أو الضياء .

ويتناول هذا الكتاب طبيعة الخالق ، وعلاقته بمخلوقاته ، وأسرار الأسماء الإلهية ، وروح الإنسان وطبيعتها ومصيرها ، والخير والشر ، وأهمية التوراة والماشيح والخلاص ، كما يتناول التاريخ والطبيعة والإنسان بقدر من الاهتمام .

ولعل القبالة امتداد لنشاط شيعة (الأسينية) التي تأثرت بآراء البراهمة والبوذيين والمجوس والفيثاغوريين

وكان أفرادها يعملون بشعار (مالي ومالك ملك لك)) فكانوا يسكنون منازل تمتلكها الجماعة ، ويطعمون مجتمعين وهم صامتون ، وينتخبون زعماءهم بالاقتراع العام ، ويخلطون متاعهم ومكاسبهم في بيت مال مشترك .

وأعضاء الجماعة من الزهاد المتطهرين الذين يبتعدون عن جميع الملاذ الجسمية ، ويسعون إلى الاتصال الروحي بالله عن طريق التأمل والصلاة ، كانوا يأملون ـ بتقوى الله وبصيامهم واستغراقهم فى التأمل والتفكير ـ علم الغيب وقوة السحر ، كانوا كمعظم معاصريهم يؤمنون بالملائكة والشياطين ، ويعتقدون أن المرض ناشئ عن تسلط الأرواح الخبيثة ، ويحاولون طرد هذه الأرواح بالتعاويذ السحرية .

كانوا ينتظرون نزول المسيح ، لينشيء على الأرض مملكة (شيوعية) سماوية، يتمتع الناس فيها بالمساواة ، ولا يدخلها إلا من كانت حياته نقية طاهرة .

وكانوا شديدي ا لتحمس في الدعوة إلى السلام ، يأبون أن يصنعوا شيئاً من أدوات الحرب ، غير أنهم انضموا إلى غيرهم من الشيع اليهودية للدفاع عن أورشليم ، حين هاجمتها فيالق تيتوس ، وظلوا يقاتلون حتى لم يكد يبقى منهم أحد .

* * *

ومن روافد الغيبية الصهيونية :

الحسيدية :

ومعنى كلمة (حسيد) في العبرية (التقي) .

والحسيدية عَلَم على الحركة الدينية الصوفية التي أسسها (بعل شيم طوف ـــ ١٧٠٠ / ١٧٦١) .

وقد انتشرت هذه الحركة في شرق أوربا ، ويعزى انتشارها لأسباب اجتماعية وحضارية ، فقد عانى اليهود في منتصف القرن الثامن عشر من بؤس وفقر ، نتيجة التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تمر بمجتمعات شرق أوربا ، وبينما كان اليهود يرزحون تحت نير الاستغلال الاقتصادي من جانب النبلاء البولنديين ، كان الحاخامات مجرد موظفين لهم رواتب ، مما ساعد على زيادة العزلة اليهودية ، والإيمان بالخرافات والأوهام .

وجاءت القيادة الحسيدية من بين الطبقات الفقيرة ، من فقراء الوعاظ والمنشدين والمدرسين والذابحين الشرعيين ، وكان (بعل شيم) نفسه مدرساً وذابحاً شرعياً وخادماً للمعبد ، مما ساعد على سرعة الاستجابة الجماهيرية .

وانقسمت الحسيدية إلى فرق متعددة ، كل فرقة تدور حول (تساديك) تتشبه به ، وتأخذ بأقواله وأفعاله ، وأصبح لكل تساديك

أسرته وعرشه وبلاطه ، وبقدر تفاوت (التساديكيين) في القدرات الذهنية والتأثيرية كان التفاوت بين الفرق على مستويات من النزعات التصوفية والانسياقات الجماهيرية ، مما أشاع جواً من الغيبة الصوفية والشعوذات الاستهوائية التي زادت في عزلة اليهود الشرقيين عن التيارات الحضارية في أوربا .

ولعل حركة (التساديك) كانت عوناً كبيراً على تقبل الفكر الصهيوني ، فمن طريق إشاعة أفكار صوفية حلولية شبه وثنية سهل تقبُّل أفكار أرض الميعاد ، وإله إسرائيل ، وشعب الله المختار .

ومن الأفكار الحسيدية المشهورة :

أن الهدف من حياة الإنسان ليس فهم الكون أو تغييره ، أو حتى تنفيذ الأوامر والنواهي ، وإنما هو الالتصاق بالله والتوحد به .

إذا كان الله هو كل شيء فإن كل فعل إنساني هو في نهاية الأمر فعل رباني تكمن فيه (الشرارة الإلهية) .

الله كان في كل شيء ، حتى مذاق الطعام ، وحتى التبغ ، لذا يجب أن تتم عبادة الله بكل الطرق ، وأن نخدمه بالجسد والروح معاً .

(التساديك) صديق الله ، له قداسة خاصة ، لأنه يمتلك قدرات إعجازية ، فهو يشفي الأمراض الروحية والجسمية ، وهو بمثابة السلّم الموصل بين السماء والأرض ، بين الخالق والمخلوق ، فهو (القطب) الصوفي ، باعث الحياة في الكون ، ابن الله الحقيقي الذي تقوم الدنيا على وجوده ، ومع ذلك يعيش (التساديك) على معونة مريديه المادية [١] .

* * *

---

(١) اليهودية والصهيونية وإسرائيل - د. عبد الوهاب المسيري - بيروت ١٩٧٥ - ص ٣٧ / ٥٨ .

الأعياد اليهودية

نستطيع أن نميز بين نوعين من الأعياد والأفراح ، دينياً ودنيوياً .

فمن الأعياد الدنيوية ما ارتبط بالحاكم تتويجاً وانتصارات ، وما ارتبط بالمحكوم في حياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، كالزواج والولادة والفطام والختان وتحقيق المكاسب العلمية والزراعية والصناعية .

ومن الأعياد الدينية ما هو خاص ، وما هو عام ، وإن كانت النكبات التي نزلت باليهود ، وبخاصة علي يد الأشوريين والبابليين والرومان ، قضت على كثير من أفراحهم وأعيادهم الخاصة ، لكن الشريعة حرصت على الأعياد الكبرى ، حتى إبان السبي والعودة ، ولم يكتف الإسرائيليون بها ، فأضافوا إليها أعياداً أخرى ، من واقع الاختلاط بالمجتمعات الجديدة الغالبة .

ومن أهم أعيادهم :

١ ــ عيد الفصح :

وهو عيد قديم ، عرفه الإسرائيليون في البادية ، تذكر بعض المصادر التي وصلتنا (خروج ١٢) أن احتفال الإسرائيليين به كان بمناسبة الخروج من مصر ، بقيادة موسى عليه السلام .

وقد يزيد من أهمية هذا العيد أن اليهود يعتقدون أن (الرب) قاد اليهود بنفسه ، وأخرجهم من نير العبودية ، ولأن الخروج كان بصورة اضطرارية ، إذ أعجلهم الخوف من اللحاق بهم ، فقد أعدوا خبزهم على عجل فطيرا ، قبل أن يختمر .. لهذا أصبح على اليهود أن يأكلوا الخبز الفطير في الأسبوع الثالث من شهر نيسان ، ويقيموا احتفالات مقدسة في بداية العيد ونهايته ، حيث يتلون الأدعية ، ويقيمون الصلوات ، ويحرقون القرابين ،

وهناك رواية أخرى تقول : إن الاحتفال بهذا العيد كان يقع فى فصل الربيع ، إذ يختار يوم اكتمال القمر ، وينحرون الضحايا ليلًا ، وتشوى الأضحية وتؤكل لوقتها مع الفطير ، أما ما تبقي من الأضحية فيحرق

(خروج ١٢) و (تثنية ١٦) .. إلا أن العادات المتبعة عند الاحتفال بهذا العيد لاتشير إلى الخروج من مصر ، كما أن صفات العيد ليست تاريخية ، بل متصلة بالطبيعة ، وبخاصة فصل الربيع واكتمال القمر .

ويمكن القول إن هذا العيد عرف قبل أن يعرف الإسرائيليون (يهوه) ، في عهد كانوا يقدسون فيه الأرواح الشريرة ، إذ تذبح الأضاحي ، ويؤتى بدمها فيُرشّ في أماكن مختلفة تهدئه لغضب هذه الأرواح ، فلما كانت عبادة (يهوه) احتفظوا باحتفالاتهم بهذا العيد ، وأخذ الاحتفال به يتطور مع تطور العقيدة والحياة .

والمزمور ١٠٧ خاص بعيد الفصح ، إذ يبدأ الإسرائيلي تلاوته في صلاة المساء ، بعد تمام التضحية والأكل .

وفي مرحلة من حياة (القوم) خلطوا بين صنع الفطير وتقديم القربان ومعاداة غير اليهود ، وبخاصة المسيحيين ، فكانوا يعجنون الفطير بدماء أحد ضحاياهم ، لاسيما في عيد الفصح وعيد أستير ومراسم الختان ، واستخدمت هذه الدماء في طقوس سحرهم وشعوذتهم .. جاء في (أشعياء) ٥٧ : (أما أنتم ، أولاد المعصية ، نسل الكذب ، المتوقدون إلى الأصنام تحت كل شجرة خضراء ، القاتلون الأولاد في الأودية تحت شقوق المعاقل) !!

وقد حدث في ٦ فبراير ١٨٤٠ أن اختفى أحد الرهبان الكاثوليك من الرعايا الإيطاليين بدمشق واسمه (توما) واختفي خادمه أيضاً ، وأعلن الرهبان الكاثوليك أن اليهود ذبحوا أخاهم توما ، كما هي عادتهم ، وقد عثر على جثته ، وقد قطعت بصورة غير مألوفة لإخراج الدم منها ، ولما قام شريف باشا حاكم دمشق بتفتيش حارات اليهود ، وألقي القبض على سبعة منهم ، اعترف حلاق حارة اليهود بأنه هو الذي قام بذبح الراهب ، وأقر بأن كل الذي جرى إنما يتمشى مع ما جاء في التلمود عن ضرورة عجن الفطير بدم مسيحي أو مسلم ، واعترف بأنه قام بذبح الخادم .

وبعدها بيوم عثر اليونانيون في جزيرة رودس على واحد منهم مشنوق ، بعد أن صفي دمه .

وقد أثار هذان الحادثان ثائرة الناس ، فهاجموا اليهود في حاراتهم ومعابدهم ، وحرقوا وهدموا المعابد في دمشق وبيروت وأزمير .

وإذا كان هذان الحادثان قد عملا على مثار فتنة واضطرابات عدوانية ، فليس شك في أن أحداثاً كثيرة مماثلة أهملها التاريخ ، أو أحكم اليهود تدبيرها ، بحيث لم يقف أصحاب الضحايا على الجناة .

والمؤرخ اليهودي يوسيفوس (ت سنة ٩٥ م) ذكر أنهم ما كانوا يقتصرون على شرب دماء ضحاياهم ومزجها بعجين الفطائر ، بل كانوا يأكلون كذلك قطعاً من لحومهم .

٢ ـــ عيد الهلال :

فيه تنفخ الأبواق إعلاناً عن ظهور الهلال الجديد الذي قد يعد في مرحلة من مراحل معتقداتهم إلهاً .

ويتبارى اليهود فى سرعة إخبار الكهنة برؤيته ، وبعدها يشعلون النيران على جبال الزيتون لإعلام الآخرين ، وتقام وليمة في قصر الملك ، كما كانت العائلات والبطون والأسباط تختار هذا اليوم لاجتماعهم ، وتقدم القرابين في الأماكن المقدسة من الملك والشعب .

وقد نص العهد القديم على تقديس هذا اليوم ، إذ جاء : (وفي رءوس شهوركم تقربون محرقة للرب ، ثورين ابني بقر وكبشاً واحداً وسبعة خراف حولية صحيحة) – عدد ٢٨ و ٢٩ – ويدعو المصلون بهذا الدعاء : (إلهنا وإله آبائنا ، جدد لنا هذ الشهر بخير وفرح وسرور وخلاص وتعزية وقوت وإعالة وغفران الخطيئة وعفو عن الإثم ، وليكن هذا الشهر نهاية وحدّا لكل ضيقاتنا ، وابتداء وأول فداء أنفسنا ، لأنك اخترت شعبك إسرائيل من بين جميع الأمم ، وفرضت عليه فرائض رءوس شهور) .

ولايكتفي الإسرائيليون بتقديس الهلال ، بل القمر أيضاً ، ففي إحدى ليالي الأسبوع الثاني من كل شهر تتلى صلاة أخرى ، تنتهى بأن يقفز المصلون ويقولون : (كما أننا نحاول أن نقفز نحوك ، ولايمكننا أن نلمسك ، هكذا ليت كل الذين يقفزون نحونا ليضروا بنا ، لا يقدرون أن يلمسونا ،

لتقع عليهم الهيبة والرعب بعظمة ذراعك ، يصمتون كالحجر يصمتون بعظمة ذراعك ، الرعب والهيبة عليهم تقع) .

٣ – السبت :

خطيئة عظيمة عدم مراعاة حرمة هذا اليوم ، بحيث لاينشغل فيه الإنسان اليهودي بعمل .. ويدعي أن الوصايا العشر تقدس هذا اليوم ، وإن كانت عبارة العهد القديم لاتفيد هذا ، إذ تقول : (أما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك) .. فأي يوم هو ذلك السابع ، ما دام لادليل على الأول ؟!

وفي هذا اليوم يتشبه اليهود بالرب في الانقطاع عن العمل .

جاء في سفر (خروج ٣١) : (تحفظون السبت ، لأنه مقدس لكم ، من دنسه يقتل قتلًا ، إن من صنع فيه عملًا تقطع تلك النفس من بين شعبها ، ستة أيام يُصنع عمل ، وأما اليوم السابع ففيه سبت ، عطلة مقدسة للرب ، كل من صنع عملًا في يوم السبت يقتل قتلًا ، لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء وفي اليوم السابع استراح وتنفس) .

يقول الدكتور فؤاد حسنين على : (كان السبت يوم راحة ، يخصص للأسفار والرحلات ، وبعدالسبى أخرجت اليهودية يوم السبت عن معناه الأصلى ، ونظرت إليه نظرة دينية خالصة ، إذا كان من اليهود من يفضل أن يُقتل من أن يدافع عن نفسه يوم السبت) .

ويرى ول ديورانت أن اليهود تأثروا فى هذا اليوم بالبابليين الذين كانوا يطلقون على يوم الصيام (شبتو) ويقدسونه [١] .

٤ – يوم التكفير والغفران :

تطلب المغفرة فيه عن الذنوب التي فعلها اليهود في صلاة جماعية يؤديها الكهنة ، ويمكن القيام بالصلاة في أي وقت من السنة ، لكن يوم التكفير يتميز بتمسك اليهود فيه ، إذ يمضون اليوم كله في الصلاة والصيام ،

---

(١) اليهودية واليهودية المسيحية – ص ٦٥ / ٦٦ .

ويسبقه تسعة أيام من التوبة عما فعلوا من آثام طول العام .. وهذا اليوم يكون في الشهر السابع من السنة اليهودية .

٥ - الحج إلى بيت المقدس :

على اليهودي أن يحج إلى بيت المقدس مرتين كل عام ، يقضي أسبوعاً في كل مرة ، مشتركاً في احتفالات يقودها الكهنة ، لتكون الفرصة متاحة ، فيتعرف يهود العالم بعضهم ببعض .

●● ويرى الدكتور فؤاد حسنين على أن الإسرائيليين أخذوا عن الكنعانيين كثيراً من أعيادهم الزراعية ، وحاولوا إرجاعها إلى تاريخهم القديم ، من هذه الأعياد عيد الشعير ، حيث يصنع فيه الفطير ، وبعد نحو سبعة أسابيع نجد عيد الحصاد ، ثم عيد جمع العنب والفواكه ، ويسمى عيد المظال ، وقد ارتبط بهذه الأعياد تقديس أبكار الحيوان والنباتات والفواكه [1] .

وبعد السبى ظهر عيد الفوريم ، وكان ذلك في ١٤ و ١٥ آذار اعتماداً على القصة الواردة في سفر أستير ، وهو احتفال بذكرى القضاء على أعداء اليهود في فارس أيام الملك أحشويرش .

كذلك احتفلوا بذكرى انتصار المكابيين على اليونان ، وتطهير المعبد من الطقوس الوثنية ، ويحتفل بهذا العيد في ٢٥ نوفمبر .

---

(١) المصدر السابق - ص ٦٦ / ٦٧ .

المصادر والمراجع

١ – الكتاب المقدس – مطبعة عنتر – القاهرة ١٩٦٦ .
٢ – التوراة الهيروغليفية – د.فؤاد حسنين على – دار الكتاب العربي – القاهرة – بلا تاريخ .
٣ – الأدب اليهودي المعاصر – د فؤاد حسنين على – معهد البحوث والدراسات العربية – ١٩٧٢ .
٤ – اليهودية واليهودية المسيحية – د. فؤاد حسنين على – البحوث والدراسات العربية – ١٩٦٨ .
٥ – المجتمع الإسرائيلى منذ تشريده حتى اليوم – د. فؤاد حسنين على – معهد البحوث والدراسات العربية – ١٩٦٧ .
٦ – اليهودية – د. أحمد شلبى – النهضة المصرية – ١٩٧٤ .
٧ – اليهودية واليهود – د. على عبد الواحد وافى – مكتبة غريب بالقاهرة – ١٩٧٠ .
٨ – إسرائيليات – أحمد بهاء الدين – كتاب الهلال – ١٩٦٧ .
٩ – اليهود والحركة الصهيونية فى مصر – أحمد غنيم وأحمد أبو كف – كتاب الهلال – ١٩٦٢ .
١٠ – اليهود في تاريخ الحضارات الأولى – غوستاف لوبون – الحلبي بمصر – ١٩٧٠ .
١١ – فلسطين .. إليكم الحقيقة – جفريز – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧١ .
١٢ – تاريخ العرب – فيليب حتى – دار العالم العربي – ١٩٤٩ .
١٣ – الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية – د. إبراهيم العدوي – نهضة مصر – ١٩٥١ .
١٤ – السيرة النبوية – ابن هشام – المكتبة التجارية بالقاهرة – ١٩٣٧ .
١٥ – تاريخ فلسطين القديم – ظفر الإسلام خان – دار النفائس – بيروت – ١٩٧٣ .
١٦ – أبو الأنبياء – عباس العقاد – كتاب اليوم – ١٩٥٣ .

١٧ – في العقائد والأديان – د. جابر الحيني – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧١ .
١٨ – التلمود – تاريخه وتعاليمه – ظفر الإسلام خان – دار النفائس – بيروت ١٩٧٢ .
١٩ – التوراة – تاريخها وغاياتها – ترجمة سهيل ديب – دار النفائس – بيروت ١٩٧٢ .
٢٠ – الكنز المرصود في قواعد التلمود – د. أغسطس روهانج – القاهرة – ١٨٩٩ .
٢١ – مصادر الكتاب المقدس – القس صموئيل مشرقي – القاهرة ١٩٧٣ .
٢٢ – شمس البر – القس منسى يوحنا – مطبعة الأمانة بالقاهرة – بلا تاريخ .
٢٣ – وجع في قلب إسرائيل – أنيس منصور – المكتب المصري الحديث – ١٩٧٧ .
٢٤ – إخناتون – فؤاد شبل – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٤ .
٢٥ – موسى مصريا – محمد العزب موسى – المكتبة الثقافية عدد ٢٢٧ .
٢٦ – أساطير العالم القديم – ترجمة د. أحمد يوسف – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٦٤ .
٢٧ – مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة – طه باقر – بغداد – ١٩٥٦ .
٢٨ – التراث اليهودي الصهيوني – د. صبرى جرجس – عالم الكتب بالقاهرة – ١٩٧٠ .
٢٩ – دراسة في التوراة والإنجيل – د. كامل سعفان – القاهرة – ١٩٨١ .
٣٠ – الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي – د. عبد المالك خلف التميمي – عالم المعرفة – نوفمبر – ١٩٨٣ .
٣١ – مصر وفلسطين – د. عواطف عبد الرحمن – عالم المعرفة – فبراير – ١٩٨٠ .
٣٢ – الأيديولوجية الصهيونية – ج١ – د. عبد الوهاب المسيري – عالم

المعرفة - ديسمبر - ١٩٨٢ .
٣٣ - الأيديولوجية الصهيونية - ج٢ - د. عبد الوهاب المسيري - عالم المعرفة - يناير - ١٩٨٣ .
٣٤ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - آدم متز - لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٥٧ .
٣٥ - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - موريس بوكاي - دار المعارف - ١٩٧٩ .

دوريات :

١ - مجلة آفاق عربية - بغداد - ١٩٧٥ / ١٩٧٦ / ١٩٧٧ .
٢ - مجلة المسلمون - القاهرة - ١٩٥٣ / ١٩٥٤ .
٣ - مجلة الطليعة - القاهرة - ١٩٧١ .

ويجدر التنويه بالكتب الآتية :

١ - الدولة والدين في إسرائيل - د. أسعد رزوق .
٢ - التلمود والصهيونية - د. أسعد رزوق .
٣ - تاريخ مسلمي أسبانيا لدوزي - ترجمة د. حسن حبشي .
٤ - الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية - د. سامى الأسعد .
٥ - العرب واليهود في التاريخ - د. أحمد سوسة .

* * *

كتب للمؤلف

كتب مطبوعة :

١ - المنهج البياني في التفسير الحديث للقرآن الكريم بمصر - الأنجلو المصرية .
٢ - التراث .. واجبنا نحوه - الأنجلو المصرية .
٣ - أمين الخولي في مناهج تجديده - المجلس الأعلى للفنون والآداب .
٤ - أمين الخولي .. حياته وأعماله - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٥ - سبحان الله - دار المعارف .
٦ - الذين يلحدون في آيات الله - دار المعارف .
٧ - قراءة في ديوان ابن الرومي - دار المعارف .
٨ - اليهود .. تاريخاً وعقيدة - دار الهلال .
٩ - دراسة في التوراة والإنجيل - توزيع دار المعارف .
١٠ - في مرقص الظلال (شعر) - توزيع دار المعارف .
١١ - حتى تعود الإبتسامة (شعر) - المجلس الأعلى للثقافة .
١٢ - قبل أن تفيض الكأس (رواية) - توزيع دار المعارف .
١٣ - حتى مطلع الفجر (رواية) - توزيع دار المعارف . .
١٤ - عبر الأسلاك الشائكة (رواية) - توزيع دار المعارف .
١٥- الإدانة - شاهد من أهلها (رواية) . توزيع دار المعارف
١٦- الأرض لاتنبت أغصاناً جافة (شعر) . توزيع دار المعارف

كتب معدة للطبع :

١ - الذين قالوا : ربنا الله ، ثم استقاموا (دراسة مطولة في الفكر الإسلامي) .

٢ - من تجارب الشعر والشعراء (ج ١ في الجاهلية وفي الإسلام) (ج ٢ في العصر العباس) .

٣ - هذا أبو الطيب .. شاعر المعاناة والتمرد .

٤ - في صحبة أبي العلاء .

٥ - الفن القصصي في القرآن الكريم - معركة ذات أبعاد .

٦ - حالة مخاض (رواية) .

٧ - الأرض والجرذان (رواية) .

فهرس الكتاب

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٤٤٩/ ١٩٨٨

الترقيم الدولى ٦ - ٢٠٠ - ١٤٢ - ٩٧٧



دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
ت: ٧٧٣٩٢١

٨ شارع حسن حجازى - ت ٣٥٥١٧٤٨ ص ب ٤٧٠ القاهرة
الرمز البريدى ١١٥١١ فاكسيملى ٣٥٤٦٠٣١

وكلاء التوزيع فى المملكة المغربية

دار المعرفة

المكتبة السلفية